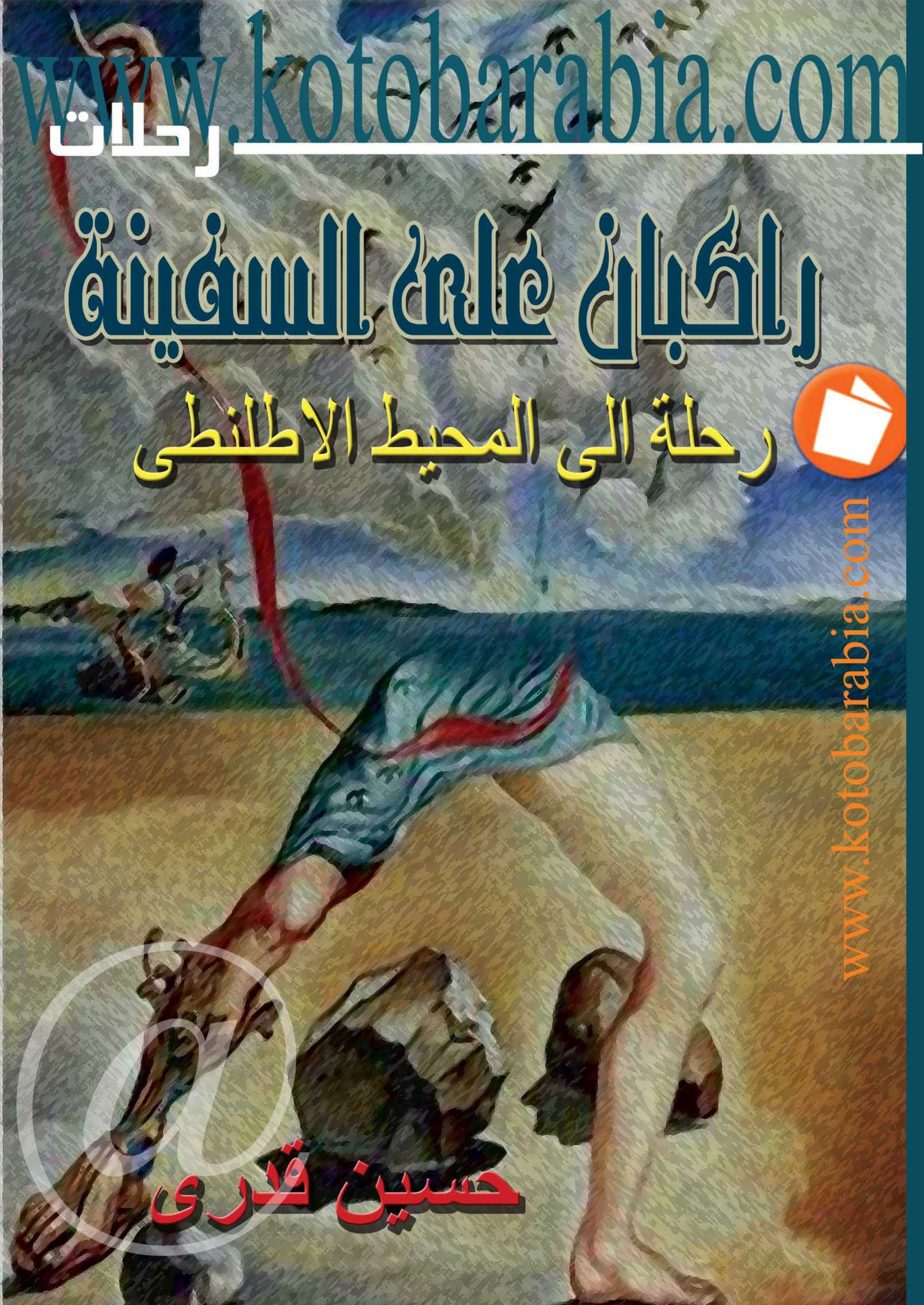


www.kotobarabia.com
رحلات
راكبان على السفينة
رحلة الى المحيط الاطلنطى
www.kotobarabia.com
حسين قدرى

# راكبان على السفينة

## رحلة إلى المحيط الأطلنطي

حسين قدري

## طبقا لقوانين الملكية الفكرية

# فهرس

# مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب له معي قصة ظريفة، وما أكثر القصـص الظريفة في حياتي التي تبعث على السعادة والسرور عنـدما أتذكرها..

فكان يا ما كان، في سالف العصر والأوان عندما كان (كتاب اليوم) سعره ١٠ قروش، والعـدد الممتـاز بـ ـ ١٥ قرش، وكانت كتب توفيق الحكيم وعباس العقـاد والمـازني وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وعبد الحليم عبـد الله وأمين يوسف غراب وطه حسين و.. و.. تباع بقرشين صاغ على عربات اليد في المصايف، وفي الأحياء الشعبية علـى سور حديقة الأزبكية.. في ذلك الزمن الغابر السعيد الذي لن يتكرر كانت أخبار اليوم تدفع للكتـاب ١٠٠ جنيـه بالتمـام والكمال ثمنًا لكتابه.. يتسلم نصفها عند التعاقد على الكتـاب، والنصف الثاني بعد صدور الكتاب.. وكان ذلك الأجر هـو مستوى أجور كبار الكتاب فقد كانـت لا تنشـر إلا لكبـار الكتاب.. لكن الإعلانات التي كانت تنشر عن الكتـاب فـي صحف أخبار اليوم –التي كانت وقتها محدودة جدا: أخبـار اليوم –الأخبار- آخر ساعة فقـط لا غيـر- كانـت كثافـة

الإعلانات على مدى أسبوعين: أسبوع قبل صدور الكتاب: (يصدر قريبا)، وأسبوع بعد صدور الكتاب: (صدر هذا الأسبوع)، كانت كافية وكفيلة بأن توزع الكمية المطبوعة كلها من الكتاب في أسرع وقت ممكن، بحيث إنه كانت في أغلب الأحيان تنفذ كلها في خلال الأسبوعين التاليين لصدور الكتاب..

في ذلك الزمن السعيد تعاقدت مع (كتاب اليوم) على هذا الكتاب (راكبان في السفينة)، وقبضت الخمسين جنيها الدفعة الأولى، وتم جمع الكتاب فعلاً وبدأت الحملة الإعلانية عنه في صحف أخبار اليوم.. ثم ثارت مشكلة لم تكن في الحسبان: (كتاب اليوم) وقتها كان يصدر في ١٤٠ صفحة ويباع بعشرة قروش.. لكن كتابي عندما تم جمعة وصل إلى ١٦٠ صفحة بالتمام والكمال، يعني بزيادة ٢٠ صفحة عن حجم الكتاب المفروض.. فاتصل بي سكرتير التحرير وطلب مني أن أختصر ٢٠ صفحة من الكتاب حتى يصدر في الحجم المعتاد لكتاب اليوم.. لكني رفضت تماما وقلت له: "ولا ٢٠ سطرا ولا ٢٠ كلمة ولا كلمة واحدة".. وبغرور وكبرياء كاتب لسه طالع في المقدر جديد، وذلك هو كتابه

الرابع بعد ٣ كتب مش بطالة وزعت توزيعا لا بـأس بـه، قلت: "إما أن ينشر كتابي كاملاً كما كتبته، أو بـلاش ينشـر خالص".. وثارت أزمة هددت بعدم صدور الكتاب بعد أن تم الإعلان عنه فعلاً.. حتى توصلنا إلى الحـل السـعيد الـذي أرضى كل الأطراف: أتنازل أنا عن بقية أجري كمؤلـف - ٥٠ جنيها- ويعتبر (كتاب اليوم) أن كتابي (عـدد ممتـاز) فيرتفع سعره إلى ١٥ قرش بدلاً من ١٠ قروش!

وصدر الكتاب فعلاً كما كتبتـه فـي ١٦٠ صـفحة، واستعوضت الله في الخمسين جنيها بقية أجري عنه.. لكـن متعتي في أن أجد بين يدي كتابي كاملاً كانت تساوي عندي الكثير..

ولم تنته القصة عند هذا الحد.. فقد اختار النقـاد هـذا الكتاب كأفضل كتاب في أدب الرحلات في العام الذي صدر فيه – ربما لأنه لم يصدر أي كتاب آخر في أدب الـرحلات في ذلك العام- وأقيم حفل تكريم سلمني فيها المرحوم يوسف السباعي كأسا فضية وشهادة تقدير لا زلت أحتفظ بهما حتى الآن.. وقررت أخبار اليوم مـن ناحيتهـا أن تشـارك فـي

تكريمي، فدفعت لي الخمسين جنيها الباقية من أجري ثمن الكتاب!.

بعد ذلك كله، فهذا الكتاب هو من أقرب كتبي إلى نفسي، حتى إنني قرأته مرتين!.

حسين قدري

مارس ١٩٩٧

# الفصل الأول

## بداية الرحلة

## يوم سبت

آخر.. بعد ٣ شهور بالضبط من ذلك الحـديث، فـي صباح يوم من أيام شهر مايو الأولى، كان يدق باب غرفتي في فندق (جوردون) بالإسكندرية (وليم) موظف الاسـتقبال، ليخبرني أن شابا اسمه (أحمد عبد العزيز) يطلب مقـابلتي.. وجاء وراءه شاب ربع القامة جاد المظهر، فحياني ثم أطلعني على خطاب معه مكتوب على الآلة الكاتبة وموقـع باسـم: (لواء بحري: عماد الدين مدكور).. فارتديت ملابسي علـى الفور ونزلت معه أنا والزميل المصور (عبد المنعم طاهر)، حيث وجدنا سيارة صغيرة تنتظرنا على باب الفندق..

وعند الظهر تماما، كنت الزميل (عبد المنعم طـاهر) كل منا يحمل جواز سفر في يد وفي اليـد الأخـرى حقيبـة صغيرة متواضعة، نمر من جمـرك الركـاب فـي مينـاء الإسكندرية، والشاب (أحمد عبد العزيز) يتقدمنا والخطـاب الذي معه يفتح لنا الطريق.. وسريعا سريعا انتهت إجراءاتنا وعادت السيارة الصغيرة تنطلق بنا مرة أخرى تاركة وراءها كل أرصفة الميناء واحدا بعد آخر، وتاركة وراءهـا سـفن الركاب الضخمة واحدة بعد أخرى، وبعدها سـفن الركـاب

المتوسطة ثم الصغيرة، ثم تاركة وراءها أيضا أرصفة سفن شحن البضائع وأرصفة ناقلات البترول.. وتظـل السـيارة منطلقة مخلفة وراءها كل السفن الممكن أن نركبهـا، حتـى تصل بنا إلى رصيف رقم ٧٤ قرب نهاية المينـاء: سـفينة صغيرة رشيقة بيضاء ليست سفينة ركاب، وليسـت سـفينة بضائع، وليست ناقلة بترول، وليست حتى يختًا خاصا.

وتتوقف السيارة الصغيرة أمـام (السـقالة) أو السـلم النازل من السفينة إلى الرصيف، ونصعد السـقالة يتقـدمنا (أحمد عبد العزيز)، عند نهاية السقالة يقف ضـابط بحـري بملابسه الرسمية، يقدمه لنا (أحمد عبد العزيز) ويقدمنا إليه: كابتن (عابس جاد الله) كبير ضباط السفينة، الأستاذ (حسـين قدري) والأستاذ (عبد المنعم طاهر) مـن مجلـة (الإذاعـة والتليفزيون) بالقاهرة.. يرحب بنا كبير الضباط (أهلاً وسهلاً .. في انتظاركم من بدري).. وفي طريقنا إلى مكتب القبطان ينظر إلينا مبتسما وهو يقول: (أنتم عارفين أنكـم حـاتكونوا الراكبين الوحيدين على السفينة؟) وأهز رأسي موافقًا، ويقدمنا للقبطان قائلاً: (الراكبين وصلوا يا فندم).. ويقـول القبطـان وهو يصافحنا: (أهلاً وسهلاً .. (ثم يوجه كلامه إلـى كبيـر

ضباطه) جاهزين يا عباس؟ وحـين يـرد كبيـر الضـباط بالإيجاب يقوم القبطان (عبد السلام داود) من مكانه متجهـا إلى غرفة القيادة بالسفينة وهو يقول: (على بركة الله.. يـاللا بينا)..

ومن على حاجز السفينة، أنظر إلـى أرصـفة مينـاء الإسكندرية وهي تبتعد عنا في بطء، وملامح المدينة الجميلة وهي تختفي شيئًا فشيئًا والبحر يوسع المسافة بيننـا وبينهـا بالتدريج، وأقول لنفسي في صوت هامس كأنه مناجاة:

- إلى اللقاء يا إسكندرية.. بعد ٣ شهور..

وتبدأ السفينة رحلتها الغامضة.. إلى المجهول!!

## قبل ذلك

التاريخ بشهرين آخرين، وبعد حـديثي مـع رئـيس التحرير بشهر كامل.. كنت والزميلة الصحفية (سامية) وفي يدي ورقة صغيرة بها عنوان، نقف أمام مبنى قديم فاخر في أحد شوارع الإسكندرية الرئيسة.. وحين تأكـدنا أننـا أمـام العنوان المطلوب دخلنا، واستأذنا في مقابلة اللـواء بحـري (عماد الدين مدكور)، فأذن لنا على الفور، فقد كان ينتظرنـا

نتيجة ترتيبات واتصالات سابقة.. ووقف الرجل يستقبلنا وهو يقول لي: (أنا حذرتك من الأول.. الرحلة مش سهلة، ومـش مريحة، ومش فسحة، ومدتها مش صغيرة، وفـي منـاطق خطرة واللي مش قد البحر ومش واخد عليه ما يستحملهاش.. علشان كدة بانصحك من دلوقتي إنك تعيد التفكير تاني مـرة واتنين.. وعلى أي حال قدامك فرصة شهرين قبل ما تبتـدي الرحلة فكر على مهلك).. ونظـر إلـى الزميلـة (سـامية) مستفسرا فقلت له: (الزميلة اللي حـاترافقني فـي الرحلـة، وحايكون معانا زميل مصور).. وبدا على اللواء (مـدكور) أنه فوجئ مفاجأة شديدة لم تكن في حسبانه على الإطـلاق، لأنه صاح على الفور مستنكرا: (مصور على عيني وراسي، لكن واحدة ست مش ممكن.. مسـتحيل.. أبـدا)!! وحاولنـا إقناعه بأن الزميلة (سامية) –رغم أنها ست- إلا أنها قامـت برحلات صحفية صعبة وخطرة ولم تكن هينة، وأنها ليسـت محررة مجتمع ولا موضة ولا أزياء، ولا حلالـة مشـاكل عاطفية، وأن أغلب تحقيقاتها الصحفية تتسم بطابع المغـامرة التي تحتاج إلى شجاعة قد لا تتوفر لكثير من الرجال وأنهـا شاركتني في كل رحلاتي السابقة، لكنه أصر علـى موقفـه

قائلاً: (أبدا.. مهما قلتم.. أولاً اللوائح عندنا لا تسمح بصعود الستات على السفن بتاعتنا على الإطلاق، وحتى لو سمحت فأنا لا أستطيع أبدا أن أسمح – بل ولا أستطيع أن أطمئن- لوجود ست واحدة بين ٨٣ راجل على سفينة في وسط المحيط الأطلنطي لمدة ٣ شهور.. أبدا.. ما تحاولوش.. وإلا فلا مناقشة في الموضوع كله على الإطلاق)!!

وكان لابد وأن نستسلم للأمر الواقع، فبدأت واللواء (مدكور) نناقش التفاصيل..

الرحلة إلى مناطق أعالي البحار في المحيط الأطلنطي عبر البحر الأبيض المتوسط، مدتها ٣ شهور، تبدأ من الإسكندرية وتنتهي في الإسكندرية، مرورا بجزر الـ (كناريا) الأسبانية الجنسية الأفريقية الموقع.. والسفينة التي سنركبها اسمها (برنيس)، وهي واحدة من ٣ سفن يشرف عليها اللواء بحري (عماد الدين مدكور) من موقعه كرئيس مجلس إدارة (الشركة المصرية لمصايد أعالي البحار).

مصايد!!!!؟

نعم، فالسفينة سفينة صيد.. صيد سـمك.. ولا تطلـب صيدها إلا في مناطق أعالي البحار.. وفي الظروف الحاليـة بعد توقف قناة السويس فإن أقرب (أعالي البحار) أمامها هو المحيط الأطلنطي..

وتستغرق رحلة الصيد الواحـدة ثلاثـة شـهور فـي المتوسط وأحيانًا تصل إلى أربعة شهور.. والمقدر للرحلـة الواحدة أن تعود بحصيلة من السمك قـدرها ٦٢٠ طنًـا، أو ٦٢٠,٠٠٠ كيلو جرام.. وهي الأسماك التي تصل إلينا فـي البيوت مجمدة والتي اعتدنا أن نطلق عليها اسـم: (السـمك الروسي) ونشتريها من المجمعات الاستهلاكية بأسعار تبـدأ بـ ١٢ قرشًا وتنتهي بـ ٢٥ قرشًا لأفضل الأنـواع وهـو سمك المرجان الأحمر.. وهذا السمك لا روسي ولا حاجة.. فالسفن التي تصطاده سفن مصرية ١٠٠%، ولكنهـا تابعـة لشركة مصايد أعالي البحار المصرية، وأسماؤها (بـرنيس) و(رأس بناس) و(الغردقة)، وكل طاقمها والعـاملين عليهـا مصريون، والمنطقة التي يتم فيها الصيد منطقة مياه دوليـة أبعد ما تكون عن روسيا بآلاف الأميال.. فلماذا سمينا هـذا السمك: السمك الروسي؟!

سميناه كذلك لأن أول علاقة لنا به كانت عن طريـق سفن الصيد الروسية التي كانت تصطاده من نفس المنطقـة، وكنا نشتري نحن منها هذا السمك جاهزا.. ومن هنا كانـت معرفتنا (بالفكرة) أصلاً، التي ما لبثنا أن اقتبسناها ونفـذناها لحسابنا، بسفن صنعت خصيصا لحسابنا في ترسـانة ميناـاء (فيجو) بإسبانيا.. وكانت السفن الـثلاث: (بـرنيس) و(رأس بناس) و(الغردقة) هي أول دفعة من السفن نتسلمها في أوائل العام الماضي، وفي منتصف العام القـادم ١٩٧٠ سنسـتلم سفينتين أخريين، وقبل أن تمر ٥ سنوات أخـرى سـيكون الأسطول المصري لصيد السمك من أعالي البحار قد وصل عدده إلى ٢١ سفينة كلها تتبع شركة مصايد أعالي البحار..

ولم تبق للسمك علاقة بكلمة (روسـي) إلا أن أدوات الصيد التي نصطاد بها –من شبكات ولوازمها- مصـنوعة في روسيا والطريقة التي نصطاد بها أيضا هي إحدى الطرق التي يصطاد بها الروس، والتي دربنا عليها خبراء روس..

**كل هذا**

كلام ظريف، ولكن: ما علاقتي أنا بهـذا كلـه؟! مـا علاقتي بسفن الصيد؟!

كانت الفكرة التي ناقشتها مع اللواء بحري (عماد الدين مدكور) هي نفسها الفكرة التي ناقشتها من قبل مـع رئـيس التحرير: أن نكون أو صحفيين مصريين يخرجـان –فعـلاً وحقيقة- لمصاحبة واحدة من سفن الصيد المصرية في إحدى رحلاتها إلى المحيط الأطلنطي لغرضـين: الغـرض الأول حضور ومشاهدة عمليات الصيد بأنفسـنا شخصـيا، ونقـل صورة كاملة حقيقة لها إلى القراء، حتى إذا ما وضع طبـق أو صينية أمامنا على الموائد في بيوتنا عرف كل منا كيـف جاء هذا السمك وما هي قصته، وما هـي حكايـة الرحلـة الطويلة التي قطعها طبق السمك هـذا مـن قلـب المحـيط الأطلنطي على بعد آلاف الأميال حتى استقر -أخيرا- على مائدته في القاهرة أو الإسكندرية أو بنهـا أو أسـوان أو أي مكان في مصر؟!

أما الغرض الثاني الذي فكرت فيه لرحلتنا فهو معايشة حياة البحر والناس الذين يعملون في البحر، على الطبيعـة، ولأطول مدة ممكنة.. أيضا لإعطاء صورة حقيقة صـادقة – وأنا أضغط هنا على جملة (صورة حقيقية صادقة)- لحيـاة ومتاعب ومشاكل ومرح وآمـال وذكريـات النـاس الـذين

يعيشون ٨٠% من حياتهم بين الماء والسـماء، البـر فـي نظرهم أمل بعيد، ما إن يتحقق لفترة قصيرة جدا، حتى يعود ليدخل في مرحلة الآمال من جديد بانطلاقهم في رحلة أخرى إلى البحر.

ولم يكن ممكنًا أن أحصل على هذه الصورة الحقيقيـة الصادقة التي أطلبها بمجرد جلوسي مع رئيس مجلـس إدارة شركة مصايد أعالي البحار في مكتبه المكيف والهـواء فـي مقر الشركة الفخم بالإسكندرية، (يحكي) لي عن حياة البحـر وناس البحر وأهل البحر، بينما تدور بيننا فنـاجين القهـوة وأكواب المثلجات.. كما حدث من قبل مع صحفيين آخـرين في صحف أخرى؛ لذا طلبت –بإصرار- أن أقـوم ومعـي زميلي المصور بهذه الرحلة بأنفسنا لنشاهد بأعيننـا وعلـى الطبيعة (الصورة الحقيقية الصادقة) للبحر وحياة الناس الذين يعملون في البحر، وأن نعيش هذه الحياة بشـكلها الحقيقـي الطبيعي كما يعيشونها، ونعاني منها كما يعـانون، دون أيـة امتيازات نحصل عليها زيادة عنهم، ولا قطرة ماء واحدة!!

ورغم أن سفن الصيد هذه لم يحدث لها مـن قبـل أن حلمت ركابا عاديين، إلا أنه إزاء إصراري وافق فعلاً اللواء

(عماد الدين مدكور) على أن أكون وزميلـي المصـور أول راكبين يرافقان سفينة صيد في رحلتها.. على أن يكون ذلك بعد نحو شهرين من لقائي معه، حين تعود السفينة (بـرنيس) من رحلتها الثالثة، وتستعد للقيـام بالرحلـة الرابعـة التـي سنرافقها نحن فيها..

## كانت الرحلة إذن: رحلة صيد!

تذكرت هذا كله وأنا في مكاني علـى أعلـى سـطح السفينة البيضاء الطويلة الرشيقة (برنيس)، أنظر إلى أرصفة ميناء الإسكندرية وهي تبتعد عن السفينة في بطء، وملامـح المدينة الجميلة وهي تتلاشى شيئًا فشـيئًا، والبحـر يوسـع المسافة بيننا وبينها بالتدريج، وأنا أقول في صـوت هـامس أشبه بالمناجاة:

- إلى اللقاء يا إسكندرية.. بعد ٣ شهور!!

# الفصل الثاني

## العاصفة

## والسفينة تبتعد

عن الإسكندرية في بطء، لم تكن في ذهنـي صـورة واضحة لما ستكون عليه الرحلة على الإطـلاق، ولا حتـى صورة ضبابية خفيفة.. ولم أكن أتصـور أن هـذه الرحلـة ستكون من أغرب الرحلات الصحفية التي قمـت بهـا فـي حياتي.. لم أكن أدري أن الشهرين القادمين سوف يحمـلان لي في طياتهما كل هذه الحصـيلة مـن الـذكريات الطيبـة والسيئة، الجميلة والرديئة.. لم أكن أدري أنه ستحمل لي هذه الآلام والمتاعب والضيق، وفي الوقت نفسه المتعة والمـرح والسعادة.. كانت هذه هي المرة الثانية التـي أسـافر فيهـا بالبحر، سافرت مرة من قبل على رابع أكبر سفينة في العالم من أستراليا إلى إنجلترا، وكنت أشعر طوال الشـهر الـذي قضيته على تلك السفينة أنني أعيش في قصر عابدين مـثلاً، متلذذًا ومستمتعا بالضخامة والفخامة والأناقة الزائدة عن حد التصور الذي كانت عليه تلك السفينة.. ولكن بالنسبة لرحلتنا الجديدة، فقد كانت هذه هي أول مدة أركب فيها سفينة صغيرة إلى هذا الحد!

وحين قال لي اللواء بحري (عماد الدين مدكور) في لقائنا في مكتبه بالإسكندرية: إن الرحلة لن تكون سهلة بالنسبة إلي، وستكون شاقة ومتعبة، لم أصدقه، وظننت أنه يبالغ من باب التخويف، ولكنني بدأت أصدقه حتى قبل أن تترك السفينة الإسكندرية وراءها.. فقد بدأت الرحلة – من أول لحظة- بداية سيئة وقف لها شعر رأسي فزعا، ليس وحدي، ولكن كل من كانوا عليها وكل المودعين الذين كانوا لا يزالون يقفون على رصيف الميناء وأيديهم لم تكف بعد عن التلويح!!

فبمجرد أن تركت السفينة الرصيف وبدأت تتحرك متراجعة إلى الخلف بظهرها لتعدل نفسها وتتجه بمقدمتها في اتجاه البحر الأبيض، وجدنا السفينة تنطلق بظهرها بسرعة كبيرة في اتجاه سفينة أخرى أجنبية راسية في الميناء.. وحين أصدر القبطان (داود) أمره بفرملة سفينتنا؛ حتى لا تصطدم بالسفينة الأجنبية تعطلت فجأة الآلات في سفينتنا ولم تستجب الفرامل، وأصبحت تسير بلا أي نوع من السيطرة أو التحكم وهي ما زالت منطلقة بظهرها بقوة الاندفاع نحو السفينة الأجنبية، لولا أن السفينة الأجنبية تنبهت في آخر لحظة

فأدارت آلاتها بسرعة جدا وأسرعت بالابتعـاد قلـيلاً عـن متناول سفينتنا، التي مرقت إلى جانبها كالرصاصة الطائشـة على بعد أمتار قليلة جدا منها، ولولا ذلك لحدثت كارثة مـن أول لحظة!!

وكما تعطلت ماكينات سفينتنا فجأة، عادت إلى الدوران فجأة أيضا، فاسترددنا أنفاسنا وقلنا: (الحمد لله.. لعل عطـلاً طارئًا حدث ومر بسلام).. وعاد مرشـد المينـاء العجـوز المكلف بإرشاد سفينتنا حتى خروجها من الميناء يقود السفينة إلى خارج بوغاز الإسكندرية، ولكن لم تكد تمضـي دقـائق أخرى، ونحن على باب فتحة البوغاز، يعني أننا بعد لحظات سنكون في عرض البحر الأبيض، حتى تعطلـت ماكينـات السفينة مرة أخرى!! وثار القبطان (داود) وأمر بـأن تعـود السفينة إلى داخل الميناء مرة ثانية؛ حتى يتم فحص الماكينات وإصلاحها.. وخرج كبير المهندسين العجـوز مـن غرفـة الآلات وهو يصيح راجيا أن تستمر السفينة في طريقها إلـى البحر لأن إصلاح العطب لن يستغرق أكثر من ١٠ دقـائق أخرى!! لكن القطبان (داود) رفض بإصرار وصـاح فيـه

بعصبية: (متأسف، ما أقدرش أجازف، ما عدتش أثق فـيكم بعد اللي حصل، نرجع المينا يعنى نرجع المينا).

اتضح أن وجهة نظر القبطان كانت في محلهـا، فـإن السفينة بعد أن عادت فعلاً إلى الميناء لم تستطع التحرك مرة أخرى إلا بعد ١٢ ساعة كاملة وليس ١٠ دقائق فقط كما قال الباشمهندس العجوز!!

## ومع أضواء

الفجر الأولى بدأت السفينة رحلتها مـن جديـد، دون أعطال هذه المرة، وعاد التفاؤل إلى وجوه الجميع وهـدأت النفوس.. وبدأت الأمور تأخذ مجراها الطبيعي بعـد ذلـك.. وبدأنا نحن أيضا نأخذ أماكننا على السفينة.. ورأى القبطـان (داود) من باب إكرامنا –لأننا ضيوف- أن يمنحنـا ميـزة استثنائية، فأمر بأن تكون إقامتنا أنا وزميلي (عبد المنعم) في مستشفى السفينة!! وانتابتني الدهشة في أول الأمر وظننتـه يمزح، ولكنني حين رأيت قمرات الضـباط ورأيـت قمـرة المستشفى عرفت أنه كرمنا فعلاً، فقد كانـت هـي القمـرة الوحيدة على السفينة –باستثناء قمرات القبطان وكبير الضباط وكبير المهندسين- الواسعة المريحة، الملحق بها حمام كامل

ودورة مياه خاصة.. ليس ذلك فقط، بل إن فيها خزان ميـاه خاصا به مياه عذبة طول اليوم.. وفي البداية لـم أر لـذلك الخزان أي ميزة إلا بعد أن عرفت أن الميـاه العذبـة هـي مشكلة المشاكل على سفن الصيد، فإنها لقلتها لا تصل إلـى الحنفيات إلا مرتين فقط كل ٢٤ ساعة: مرة في الصباح لمدة ١٠ دقائق، ومرة أخرى في المساء لمدة ١٠ دقـائق أخـرى فقط!!

ولم تكن قمرة المستشفى خالية تماما حين ذهبنا بحقائبنا إليها، فقد كانت قد استعلمت كمخزن إضافي مؤقتًا حتى يـتم ترتيب مخازن السفينة المكدسة بكميات هائلة مـن الأطعمـة والمأكولات التي ستستهلكها السفينة وسط أكداس من صناديق السجاير الضخمة المعدة للاسـتهلاك طـول مـدة الرحلـة ٢٤,٠٠٠ سيجارة (بلمونت) و(كليوبـاترا)، تـوزع علـى الضباط والبحارة بواقع علبتين ونصف أو ٥٠ سيجارة يوميا للضابط والمهندس، وعلبة ونصف يوميا للبحار.

وفي البداية ظننت أن هذه السجاير توزع على الضباط والبحارة مجانًا كما هو الحال في الأكل، ولكنني عرفت أنها وإن كانت لا توزع مجانًا فعلاً، إلا أنها أقرب ما تكون إلـى

ذلك، فعلبة السجاير الكبيرة ال٢٠ سيجارة التي تبـاع فـي السوق ب٢٢ قرشًا تباع على السفينة بأربعة قروش ونصف القرش فقط.. ولا تصرف لهم يوما بيوم، وإنما تصرف لكل ضابط أو بحار الكمية المخصصة له عن مدة الرحلة كلهـا دفعة واحدة.

وهكذا وجدت نفسي أنا وزميلي المصور (عبد المـنعم طاهر) في صباح اليوم التالي وفي يد كل منا ربطة كبيـرة فيها ١٠ (قاروصة) سجاير تضم ٣٠٠٠ سيجارة، لا نـدري ماذا نفعل بها ولا أين نضعها، فلم نكن قد تسـلمنا دواليـب بعد.. لولا أن الضابط الإداري (حمدي حـافظ) قـد لاحـظ مشكلتنا فأحضر لنا صندوقًا كبيرا من الكرتون وضعنا فيـه كميات السجاير التي صرفناها.. وظلت الـ ٦٠٠٠ سيجارة – نصيبنا- مكانها هذا طوال مدة الرحلة، لم نستهلك منها غير علبة واحدة ٢٠ سيجارة فقط، فأنا أصلاً لا أدخن، وزميلـي (عبد المنعم) يدخن بسرعة سيجارة واحدة في اليوم، وكان ما يكاد يخرج علبة السجاير (اليتيمة) مـن جيبـه حتـى يجـد عشرات الأيدي تمتد لتعزم عليه، فتعود علبته إلى قواعـدها في جيبه سالمة دون أن تمس!

رفيقنا الوحيد في المستشفى هو طبيب السفينة الشـاب (محمد رفيق عبد المنعم): شاب قصير وسـمين وظريـف، خريج كلية طب الإسكندرية دفعة ٦٧.. وكانت هـذه هـي رحلته الأولى في البحر؛ لذا فقد كانـت أول بـادرة مـرح ظريفة في رحلتنا كلها أن طبيب السفينة الذي جاء ليعالج من يعملون عليها كان هو أول من أصيب بدوار البحر، فسـقط مريضا من أول يوم لبدء الرحلة.. وبعد أن كنا نحن ضيوفه في المستشفى، أصبح هو نزيل المستشفى ونحـن أصـحاب الدار، بعد أن قام زميلي المصـور (عبـد المـنعم) بعـلاج الطبيب!!

## وفي أول

ليلة للسفينة في رحلتها عقد القبطان (داود) اجتماعـا دعا إليه كل الضباط وكل المهندسين والإخصائيين، ودعانـا نحن أيضا.. وكان هذا الاجتمـاع أساسـا لشـرح الرحلـة للمعينين الجدد على السفينة، وتقـديمهم –وتقـديمنا معهـم- لأفراد الطاقم القدامى.. وبالمرة أيضا، وبصراحة متناهيـة، حذر القبطان (داود) المجتمعين من ".. أن بيننـا صـحفيين، فخذوا بالكم كويس، وبلاش تنشروا غسيلنا الوسخ قـدامهم..

والله إذا قدورا يعرفوه لوحدهم كان بها، لكن بلاش تيجي مننا احنا"!! وقام الباشمهندس العجوز متطوعا ليؤيد كلام القبطان قائلاً: "إحنا وإن كنا نرحب بضيوفنا، إلا أننا -يعلم الله أننا- ماكناش ناقصين صحفيين ولا وجع قلب، دول ناس عـاملين زي الحرامية وبتوع المباحث في نفس الوقت، الواحـد مـا يعرفش يخبي عنهم حاجة، وإن خبى عنهم حاجة ما يسلمش من لسانهم الزفر"!!

وشكرنا لهم تحيتهم الحارة الغريبة، وقمت لأرد التحية بألعن منها، فقلت للقبطان وللباشمهندس العجوز وللجميع إننا: "مش جايين علشان نقوم بعملية تشهير.. وإننا لن نكتـب إلا الذي نراه ونحس به حقيقة.. المهم أن أحدا لن يسـتطيع أن يستغفلنا أو يضحك علينا.. وأننا على قلبهم للمحيط"!!

وخرجت بعد ذلك من حديث القبطان لمجموعـة مـن الضباط والمهندسين والإخصائيين ببعض المعلومـات عـن السفينة والرحلة.. أهمها أن اليوم الواحـد بالنسـبة للسـفينة يتكلف ٨٥٠ جنيها، بين مرتبات العاملين عليهـا وتكـاليف الغذاء والوقود والماء واستهلاك باقي الخامات، واسـتهلاك السفينة نفسها.. وأن الحصيلة المفروض أن تعود بها السفينة

من أسماك المحيط يجب ألا تقل عن ٦٢٠ طنًا، يباع الطـن لشركة تسويق الأسماك في الإسكندرية بـ ـ ١١٠ جنيهـات، فتكون حصيلة رحلة السفينة كلها تساوي ٦٨,٢٠٠ جنيـه.. فإذا استطاعت السفينة أن تتم رحلتها في شهرين كاملين فقط فإن نفقاتها ستصل إلى ٥١ ألف جنيه، أي أنها تكسـب فـي الرحلة الواحدة مبلغ ١٧,٢٠٠ جنيه، وهذا مبلغ مش بطـال، خصوصا أن جزءا كبيرا منه، أو ما يوازي ٨,٥% من ثمن الشحنة كلها يوزع على العاملين في السفينة جميعهم بنسـب متفاوتة.. أي أن مبلغ ٥٧٩٧ جنيها يقسم علـيهم، ليصـبح نصيب كل منهم يتراوح بين نحو ٤٠ جنيها للبحـار كحـد أدنى، حتى يصل إلى نحو ١٤٠ جنيها للقبطان نفسه..

وشرح القبطان البرنامج الزمني المرسـوم للرحلـة، فقال: إن رحلتنا حتى نصل إلى منطقة الصـيد فـي وسـط المحيط الأطلنطـي ستسـتغرق ١٣ يومـا مـن مغادرتنـا الإسكندرية، ومثلها في رحلة العودة بعد الصـيد، علـى أن نبقى في منطقة الصيد نفسها ٣٥ يوما تقريبا، تصطاد خلالها السفينة بمتوسط ١٧ أو ١٨ طنًا من السمك يوميا.. فيكـون مجموع أيام الرحلة نحو ٦٠ يوما أو شهرين كاملين..

أرقام أرقام أرقام، وعمليات حسابية معقدة لـيس لهـا معنى –حتى الآن- في نظرنا، وبسيطة جدا ومفهومة وسهلة بالنسبة إليهم.. على العموم لم يعد هناك مجال للتراجع الآن، فالإسكندرية أصبحت ورائنا –بمسافة بعيدة- والمحيط أمامنا –بمسافة أبعد- والذي نسمعه الآن بآذاننا مجرد كلام، غـدا يصبح حقيقة واقعة ملموسة نستطيع أن نراها بأعيننا ونحكم عليها..

## وكنت أظن

أنني بما أنني قد سافرت مرة في البحر قبل ذلك ولـم أصب بدوار البحر- أنني عندي مناعة ضده ولن أصاب بـه ولكن الذي حدث أنني استيقظت في صباح اليوم التالي مبكرا ونشيطًا ومتفتحا، وشاهرا قلمي وأوراقي مستعدا للعمل مـن أول يوم.. وصعدت إلى صالون الضباط، وتناولت الفطور – ولعل هذه كانت هي غلطتي- فإنني لست معتادا على الإفطار أصلاً وأنا في القاهرة.. وصعدت بعد ذلك إلى كابينة القيـادة بأعلى السفينة لعدة دقائق بسـيطة، ومـع اهتـزاز السـفينة المنطلقة أمامي بأقصى سرعتها شـعرت أن رأسـي غيـر مستريح على عنقي وأن صداعا شديدا يدق رأسي من أعلى

ومن أمام ومن خلف، وأن أذني وعيني تؤلمني بشـدة، وأن الإفطار الذي أفطرته منذ لحظات يتراجع من معدتي صاعدا إلى حلقي من جديد!! وهكذا وجدت نفسي مع بداية الصـباح أصاب بدوار البحر.. فأسرعت إلى قمرتي لأفرغ كل ما في بطني بعنف وألم شديدين.. بعـدها ارتحـت نسـبيا، إلا أن الصداع والدوخة لم يزيلاني، ووجدت أنني أصـبحت أكثـر راحة إذ استلقيت على سريري، ففعلت، وأخذني النوم فنمت عدة ساعات.. ولاحظ القبطان غيابي فأدرك على الفور مـا حدث لي، فجاء إلى قمرتي ليطمئن علي، وأيقظني ونصحني بمقاومة الدوار بالخروج إلى الهواء الطلق وعدم الاستسـلام للنوم، فصعدت معه إلى الصالون وطلب فنجان قهوة أعـدل به دماغي المصدوعة، ولكن القبطان نصحني بـأن أمـتص ليمونة، وأحضر لي السفرجي ليمونة، ما إن وضعتها علـى طرف لساني حتى شعرت برغبة في القيء مـرة أخـرى، فعدت جريا إلى قمرتي لأفرغ ما في بطني مرة ثانية، وعدت إلى النوم من جديد.. ونمت عدة ساعاتٍ أخرى حتـى جـاء أحد الضباط الشبان ليوقظني –بـالأمر- لأصـعد لتنـاول الغداء.. وتذكرت نصيحة القبطان بالمقاومة، فصـعدت مـع

الضابط الشاب وتناولت الغداء معه، وما إن وضعت آخر لقمة في فمي، حتى شعرت بها ترفض النزول وتحاول العودة من جديد، وفي هذه المرة عدت إلى قمرتي مسرعا وأفرغت ما في بطني للمرة الثالثة، ثم اعتصمت بالقمرة ورفضت رفضا باتًا أن أغادرها باقي اليوم كله.. لا غداء ولا عشاء ولا غيره.. ورغم أن القبطان زارني في المساء هو وكبير الضباط (عباس) ليقنعاني بالصعود للعشاء، إلا أنني رفضت بشدة، خصوصا حين عرفت من (عباس) أن دوار البحر لا يستمر مع المصاب به أكثر من يوم واحد، وأن علاجه الوحيد هو الاستمرار في الأكل: كلما أفرغت ما في بطني أعود على الفور لآكل من جديد، حتى أرغم معدتي في النهاية على الاحتفاظ بالأكل، فتعتاد على جو البحر وأستريح.. ولكنني رفضت ذلك العلاج؛ لأن مجرد التفكير في الأكل أو سيرة الأكل كانت على الفور تجعلني أشعر بالرغبة في القيء.

وقضيت طول النهار وطول الليل في فراشي، شديد التعب والإرهاق، أشعر بأنه ليس هناك قطعة واحدة في جسدي خاضعة لإرادتي، وأن هناك شيئًا ثقيلاً يشد جفني

ليسدلهما على عيني.. وظللت هكذا طوال الليل حتى غلبني النعاس قرب الفجر..

ومع الصباح الجديد، استيقظت لأجد نفسي أشعر بالهدوء والراحة، بل وبالنشاط أيضا، فحركت جسمي جزءا جزءا بالراحة جدا، حتى اطمأننت على نفسي، فقفزت من فراشي سعيدا وقد زالت الأزمة، وعدت إلى الرحلة من جديد.

الشيء الوحيد الذي طمأنني على نفسي، أنني حين خرجت إلى سطح السفينة عرفت أن أكثر من نصف أهل السفينة كانوا بالأمس (متودرين) بلغة أهل البحر، بمعنى أنهم أصيبوا هم أيضا بالدوار.. يعني لم أكن أنا وحدي الذي صرعني دوار البحر، وإن كان قد عاودني بعد ذلك عدة مرات على مدى الأسبوعين الأولين من الرحلة..

طائرة لحاف الأطلنطي كانت تمر فوق سفينتنا على ارتفاع منخفض عصر اليوم الرابع للرحلة، فلاحظت أن سفينتنا لا ترفع علما ما، فأثار ذلك دهشتها فيما يبدو، فغيرت اتجاهها بعد أن عبرتنا، وعادت لتمر من فوقنا من جديد وهي أكثر انخفاضا واقترابا منه، فلم تستطع أيضا أن تتعرف على

جنسيتنا، فعادت تطير فوقنا من جديد مرة ثالثة ثم رابعـة.. وأخيرا اتصل قائدها باللاسلكي يسأل سفينتنا: (جنسيتكم إيه؟) فرد عليه (محمد حسن ماركوني) ضـابط اللاسـلكي علـى الفور: (وأنت مالك أنت!) فغير قائد طائرة حلف الأطلنطـي اتجاه طائرته عائدا إلى وجهته الأصلية وهو يقول باللاسلكي لمحمد حسن: (عرفناكم.. أكيد مصريين)!!

## محطة قبرص

للأرصاد الجوية البحرية تصدر نشرة بحالة الطقس في منطقة البحر الأبيض في كل مناطقه مرة كـل ١٢ سـاعة.. أذاعت محطة قبرص في نشرتها عصر اليـوم أن عاصـفة ستهب على منطقة (مالطة) التي ستمر عليها سفينتنا غـدا.. واستعدادا لهذه العاصفة المقبلة أمر القبطان (داود) بـإجراء (تجربة غرق).. بمعنى أن تؤدى بروفة كاملة على ماذا نفعل في حالة تعرض السفينة للغرق؛ حتى يعرف كل فرد علـى السفينة دوره وموقعه ومكانه في قوارب النجاة فـي حالـة حدوث غرق حقيقي –لا قدر الله- للسفينة!!

السفينة عليها ٨٣ فردا وبها قاربـان فقـط للنجـاة.. والمفروض في هذه الحالة أن كلاً منهما يتسع لـ ٤٢ فـردا،

وإن كنت أنا شخصيا لم أستطع –بمجرد النظر- أن أصـدق أن هذه القوارب صغيرة الحجم ممكن تتسع حتى لربع هـذا العدد.. لكن على أية حالة هذا هو المفروض أن يكـون!!.. ولا يركب أي فرد أي قارب يلحقه، ولكن يقسم أفراد السفينة جميعهم إلى مجموعتين: مجموعة للقارب الأيمـن وأخـرى للقارب الأيسر.. على أن تكون المجموعتان متعادلتين مـن ناحية عدد وكفاءة الأفراد.. القارب الأيمن هو قارب القيادة، وفيه يركب القبطان وكبير المهندسـين وضـابط اللاسـلكي بجهاز اللاسلكي اليدوي الذي يعمـل بالبطاريـة، وضـابط الملاحة بخرائطه الملاحية وأجهزة الملاحة الصغيرة لتحديد موقع القارب بعد ذلك، وطبيب السـفينة بحقيبـة الإسـعاف الطبية، وعدد آخر من الضـباط والمهندسـين والبحـارة.. ويتبعه القارب الثاني مربوطًا إليه بحبل حتى لا يتوها عـن بعضهما في الظلام أو في المحيط المتسـع، وفـي القـارب الثاني كبير الضباط وباقي ضباط ومهندسي وبحارة السـفينة ويظل ضابط اللاسلكي في قارب القيـادة يرسـل إشـارات الاستغاثة الدولية (S.O.S.) باستمرار لطلـب النجـدة مـن

السفن والبواخر والموانئ التي قد تكون قريبة منه، بعد تحديد موقع القاربين في إشارته.

وقال لي القبطان (داود) وأنا أنزع صديري النجاة المطاطي من على كتفي وأفك رباطه من حول وسطي، يشرح لي كيف يمكن أن يتغلب القبطان الماهر الفاهم على العاصفة التي تصادفه.. فقال: إن العاصفة إذا جاءت من على يسار السفينة أو من على يمينها فإن على القبطان أن يطلق السفينة بأقصى سرعتها؛ لكي يقلل من تأثير العاصفة على السفينة فلا تجعلها تميل يمينًا أو يسارا بشدة، فإنها إذا مالت على أحد جانبيها بشدة فإنه من الممكن أن تنقلب على جانبها وتغرق.. أما إذا جاءت العاصفة من مقدمة السفينة فإن على القبطان أن يقلل من سرعة السفينة نسبيا؛ لأن الأمواج القادمة من الأمام تحمل السفينة وتجعلها تتسلقها، ثم تهبط من فوق الموجة، وفي لحظة من اللحظات تكون مؤخرة السفينة قد انكشفت في الهواء عالية عن سطح الماء، ورفاصها يدور في الهواء -على الفاضي- أسرع مما يدور وهو في الماء، مما يهدد باحتراق الماكينات.. أما الحالة الوحيدة التي تستفيد فيها السفينة من العاصفة، فهي إذا جاءتها

من خلفها أو مؤخرتها، وفي هذه الحالة فأهلاً وسهلاً؛ لأنهـا تدفع السفينة إلى الأمام في طريقها المرسوم بسرعة أكبر..

الشيء الغريب الذي أثار دهشتي فعـلاً فـي تجربـة الغرق التي شهدتها واشتركت فيها هو قوارب النجاة الساذجة ذات المجاديف اليدوية في سفينة حديثة عمرها سنتان فقـط تعمل بالمحيط الأطلنطي في أعـالي البحـار فـي القـرن العشرين!! فرغم أن السفن الثلاثـة الشـقيقات: (بـرنيس) و(رأس بناس) و(الغردقة) مشتراة من إسـبانيا منـذ سـنة ونصف فقط، إلا أن قوارب النجاة فيها تعمـل بالمجـاديف اليدوية كقوارب الفسحة على شاطئ النيل تماما وتنزل إلـى البحر بصعوبة بالغة –كما رأيت بنفسـي- بأونـاش عتيقـة يديرها البحارة باليد وبواسطة الحبال.. وذلك نظام عتيق جدا بطل استعماله من زمان في السفن الحديثة ولا يتناسب مـع التطور البحري ولا مع أحدث سفن اشترتها مصر من أقـل من سنتين!! وقد عرفت أن التفتيش البحري بالإسـكندرية – وهي الإدارة التي تقوم بالتفتيش على أية سـفينة تـدخل أو تخرج من مينـاء الإسـكندرية، عرفـت أن إدارة التفتـيش البحري قد اعترضت على قيام سفينتنا برحلتها بهذه القوارب

ولم تسمح الإدارة إلا بعد أن كتبت الشركة تعهدا بتغييرها بعد هذه الرحلة مباشرة!

## وفي صباح

اليوم التالي كان البشر والسعادة يعمان وجوه الجميع؛ فقد أذاعت محطة قبرص للأرصاد الجوية في نشرتها الأخيرة أن العاصفة قد سبقتنا وعبرت منطقة (مالطة) التي كان مفروضا أن نقابلها في اليوم مساء.. وأن العاصفة قد انتهت ومرت بسلام..

وفرح جميع من في السفينة لذلك، فالعاصفة ليست شيئًا يسعد الناس بلقائه في البحر.. ولكنها فرحة ما تمت، والظاهر أن محطة قبرص للأرصاد تتبع مصلحة الأرصاد الجوية عندنا في مصر؛ لأنه ما إن أقبل وقت الغروب حتى أقبلت معه العاصفة!!.. عاصفة رهيبة عنيفة هادرة مدلهمة جعلت السفينة فعلاً ريشة حقيرة تافهة في وسط خضم البحر الأبيض الهادر المزمجر الهائج.. وأصبحت السفينة كلعبة أطفال صغيرة في يد طفل شقي مخرب مدمر يريد إغراقها بأي شكل، وهي عنيدة مقاومة تنشال وتنهبد دون أن تستسلم، وترتفع بمقدمتها عن الماء ثم تهوي لتصفع سطحه أو

يصفعها سطحه بعنف شديد، ونحن في قلبها كـالفئران فـي مصيدة لا مفر منها ولا مهرب ولا مغيث!!

وكأي غشيمي بحر غير مقدرين لمقام العاصفة، وقفت وزميلي المصور (عبد المنعم) متشبثين بحاجز السفينة نرقب العاصفة وهي تـزداد، والأمـواج وهـي تعلـو مزمجـرة مصطحبة في ضوء الغروب الرمادي القريب من السـواد.. ونرقب –بدهشة بالغة- السفينة الصغيرة وقد أصبحت لعبـة متخبطة في يد العاصفة من ناحية والأمواج العالية من ناحية أخرى.. وأرقب أنا فـي دهشـة أكثـر زميلـي المصـور (عبد المنعم) وهو يصيح في هستيريا محاولاً أن يبدو مرحا، كالذي يكلم نفسه في الظلام بصوت عال ليبدد خوفه، يصيح: (آبيدو)!! مقلدا صوت (ماري منيب) وأرد على (عبد المنعم) وأنا أهتف بصوت يتماوج برعشة الرعب الذي يشق داخلي: (طظ فيك يا عمي، طظ فيك يا عمي)!! مقلدا صوت الممثـل (أسامة عباس) والممثلة (سناء ماهر) في مسـرحية (طبـيخ الملايكة).. وأرقب – في ذهول هائل نفسـي، ومـن أيـن ظهرت لي هذه الشجاعة المفاجئة والتهور الكبير لحظـة أن وافقت بل وسعيت بنفسي –إلى الموقف الذي أنا فيـه الآن:

البحر!! يا نهار أسود.. أنا كان مالي ومال البحر.. والبحـر الأبيض كمان، ولسه داخلين على المحيط الأطلنطي؟.. مـن المؤكد أنني كنت منوما أو لم أكن في حالتي الطبيعية عندما وافقت على هذه الرحلة.. بحر؟! ده أنا باتشطف في البيـت بالعافية، وأذكر أنني وأنا صغير كنت أهرب من البيت يـوم الجمعة طول النهار؛ لأنه كان يوم الاستحمام.. وعندي الآن في البيت نصف دستة مايوهات فاخرة أجلس بهـا -أليطًـا نظيفًا فاخرا- على البلاج وعلى جوانـب حمـام السـباحة بالنادي دون أن أسمح لأي منهما أن يغريني بالنزول إليه ولو خمس دقائق.. أقوم أطلع البحر والمحيط، برجليا!؟ سـبحانك يا ربي، أنت مقسم العقول يا رب!!

وحين اشتدت العاصفة ونحن ما زلنا واقفين عند حاجز السفينة، فكأي (جبان بحر) جدا وكرجل قدري يـؤمن بـأن الموت من عند الله وحده، وأنه إذا جاءتكم مصيبة مثل هذه.. يا نهار أسود، نزلت إلى قمرتي في مستشفى السفينة جـري واستسلمت لفراشي بعد أن تلوت شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. وتشبثت بسريري وأنا نائم على وجهـي مخفيا رأسي بين ذراعي؛ حتى لا أسمع صوت العاصفة ولا

أشعر بالسفينة وهي تغرق، وحتى لا أرى الماء وهو يقـتحم قمرتي ويغرقني معها!!

# الفصل الثالث

## الجزيرة الغامضة

ومن فرط

الرعب نمت دون أن أشعر وأنا أضع رأسـي تحـت الوسادة في انتظار أن تتغلب العاصفة العنيفة على السـفينة فتغرقها ويقتحم الماء قمرتي ليغرقني مع السفينة وأنا علـى فراشي هكذا بكرامتي من غير بهدلة، ونصبح شهداء الواجب وتأخذ أُسرنا معاشا كاملاً من نقابة الصحفيين في مصر!!

ولكن الذي اقتحم قمرتي في الساعة الثانية صباحا لـم يكن هو الماء، وإنما كان أحد الضباط الشبان يوقظني يقنعني أن العاصفة قد مرت بسلام، وأن القبطـان (داود) يريـد أن أصعد إليه في غرفة القيادة بأعلى السفينة؛ لكي أشهد جزيرة (مالطة) ونحن نمر عليها..

مالطة: جزيرة سعد زغلول الشهير التي نُفي إليها ذات مرة، تمر على يسارنا الآن.. جزيرة طويلة ممتـدة الطـول أسيلة العرض، تتلألأ الأضواء في هذا الوقت المتأخر مـن الليل في ساحلها الممتد كأنها مستيقظة حتى الآن تحتفل بعيد ما، وهي لا تشعر بأي رعب كنا فيه وكنا نعانيـه قبـل أن نصل إليها.. ذكرني شكل الأضواء المتصاعدة فيها بالطريق

الجبلي الصاعد إلى هضبة المقطم الذي كنت أراه من شرفتي الكبيرة في شقتي العالية بالقاهرة.. القاهرة التي أصبحنا الآن على بعد ٩٥٦ ميلاً منها في هـذا الموقـع عنـد مشـارف مالطة..

## وقرب الظهر

كدنا نمر على جزيرة (بنتلاري) الإيطالية.. جزيـرة جميلة متصاعدة جبلية، تشعر معها من النظرة الأولى أنها – بأكملها- قمة جبل قاعدته تحت البحر الأبيض وقمته هي هذه الجزيرة.. فأرضها تبدأ في التصاعد جبلية من بعـد المـاء المحيط بها مباشرة.. مزروعة السفح بمصـاطب متدرجـة خضراء زاهية تضوي تحت أشعة شمس الظهيرة، فتبعث في النفس الإحساس بالجمال والشعور بالتسامي والرفعـة مـع الجبل القوي الشموخ، وتجعل الفرد يتمنى لو أن يعيش فـي هذه الجزيرة الجميلة.. لولا ما عرفناه من أنهـا: سـجن!!.. الجزية بأكملها سجن إيطالي ضخم كبير للمساجين الإيطاليين الخطرين الذي يخشى من فرارهم لو سجنوا داخل إيطاليا، أو الذين لا يراد لهم أن يكونوا على اتصال بأحد أو يتصل أحد بوسيلة أو بأخرى، أو المحكوم عليهم بمدد طويلة، يؤتى بهم

إلى هذه الجزيرة البعيدة عن إيطاليا يزرعون ويحصـدون، ويعيشون فيها إلى ما شاء القاضي، أو إلى ما شاء الله!!

الغريب أننا ظللنا نمر أمام (بنتلاري) أكثر من سـاعة دون أن نرى –حتى بالمنظار المكبر- أي بني آدم، ولا حتى صريخ (ابن يومين) كما يقال، حتى بدت في أعيننـا كأنهـا جزيرة مهجورة لا يعيش عليهـا أحـد.. وحـين اكتشـفت بالمنظار المكبر وجود سيارة صفراء صغيرة واقفة بجـوار سور متهدم أشبه ببوابة أثيرة واقفة وحدها لا تؤدي إلى شيء ما وراءها، وتشبه قوس النصر في باريس، صـحت أنبـه الزملاء الذين صعدوا إلى سطح القيـادة بالسـفينة يتـأملون جميعهم أمر هذه الجزيـرة الغريبـة الغامضـة.. فراحـوا بالنظارات المعظمة يتفحصون السيارة الصـفراء الصـغيرة وكل منهم يحاول تحديد ماركتها وموديلهـا، دون أن يتفـق اثنان على ماركة واحدة، كأن هذه هي المشكلة!!.. وصـاح الكل فرحين في النهاية حين شاهدوا أتوبيسـا أزرق اللـون يظهر فجأة لمسافة بسيطة جدا ثم يختفي وراء تل صغير: إن في الجزيرة الجميلة -السجن- حياة إذن!!

## أول يوم

سبت لا أرى في العدد الجديد مـن مجلـة (الإذاعـة والتليفزيون) منذ علمت بها من نحو ٣ سنوات.. ولن تتنسى لي رؤية الأعداد العشرة القادمة –على الأقل- إلا حين أراها كلها دفعة واحدة بعد عودتنا من هذه الرحلة.. فقـد مضـى اليوم أسبوع كامل على السفينة الصغيرة وهي منطلقـة فـي البحر الأبيض المتوسط بنفس السرعة ونفس القـوة ونفـس الرتابة دون تغيير، ودون أن تتوقف ولو لحظة واحدة.. وقد أصبح فرق التوقيت بيننا وبـين القـاهرة الآن ٣ سـاعات كاملة.. فالساعة الآن على السفينة حسب خطوط الطول التي نمر فيها: الثالثة بعد الظهر وسأدخل الآن لأنام فترة الظهيرة على السفينة، والمفروض أن الناس فـي مصـر –أيضـا- يستيقظون من نوم فترة الظهر ليجـدوا السـاعة السادسـة مساء!!

وبالمناسبة، فإننا إذا أردنا أن نستمع إلـى أول نشـرة أخبار تذيعها إذاعة القاهرة كان علينا أن نستيقظ قبل الساعة الرابعة عصرا على السفينة؛ لأن القاهرة تذيعها في السـابعة صباحا، وهي تسبقنا بـ ٣ ساعات كما قلت.

بالمناسبة أيضا: راديو القاهرة مازلنا نسمعه بوضـوح حتى الآن رغم اقترابنا من مدخل المحيط الأطلنطي.. إذاعة الشرق الأوسط تطاردنا بأغاني الإعلانات وحتـى شـوفوا جونلاتي وأنا اسمي المسحوق رابسو.. وصوت عبد الحلـيم حافظ يلاحقنا حتى قرب المحيط مختلطًا بصـفافير الموجـة القصيرة، وهو يسرح بحبيبته بأن الهوى هواه، وأنه مشغول جدا ببناء قصر عالٍ علشانها!!.. في مثل هذا الفراغ الطويل، في الوقت وفي مدى البصر وفي الجو المحيط بنـا، يصـبح لدينا متسع من الوقت لنتأمل تفاهة وركاكة الكلام الذي يغنيه مطربونا.. كلام لا معنى له على الإطلاق!!

## استطعت الحصول

على جردل ماء زيادة اليوم بشكل استثنائي وبتصريح خاص من كبير الضباط (عباس) بعد أن طلب مني ألا أخبر أحدا بذلك.. وسعدت بذلك جدا، فقد استطعت أن أحلق ذقنـي وأستحم لأول مرة منذ غادرنا الإسكندرية منذ ثمانية أيـام.. وقد حذرني (عباس) من أن أعتبر ذلك الامتياز حقًا مكتسبا، بمعنى أنني لن أستطيع أن آخذ حماما ولا حتى مرة واحـدة كل ٨ أيام!!

كنت منتعشًا وسعيدا جدا بعد الحمام، فالاستحمام على السفينة حدث عظيم يستحق التسجيل!!

كبير مهندسي السفينة الباشمهندس (حنا يوسف مينـا) جاس بعد العشاء في الصـالون ذات مسـاء يحـدثنا كيـف استطاع أن يتغلب على مشكلة الماء على السـفينة بالنسـبة لنفسه، فقال: إنه لا يستعمل الحنفية مباشرة وإنما يضع سدادة الحوض في مكانها ليسد بلاعة حوض غسيل الوجه، ثم يضع في الحوض ملء (كوز) ماء ويأخذ منه بيديه ليغسل وجهـه أولاً، وبعده يغسل يديه، ثم يغسل فمه ويتمضمض، ثم يغسل قدميه، كل ذلك في نفس كمية الماء الموجودة في الحـوض، ثم في النهاية يغسل في المـاء المتبقـي غياراتـه الداخليـة وملابسه التي تحتاج إلى غسيل!!

أطلقنا على طريقة كبار المهندسين تشنيعة، قلنا: إنـه بعد كل ذلك يدخل المهندس التالي إلى نفس الحوض ليغسـل وجهه من نفس الماء، ثم يغسـل يديـه، ثـم يغسـل فمـه ويتمضمض، وهكذا حتى تتم كل العمليات السـابقة، وبعـده يأتي دور المهندس الثالث، ثم المهندس الرابـع وإخصـائي

المحركات، وبعدهم المساعدون والفنيون والميكانيكيون –كل منهم حسب أقدميته في الشركة- حتى نهاية القسم الهندسي!!

## أي شيء

مهما كان تافها يمكن أن يحدث ذعرا هائلاً بين سكان السفينة الصغيرة المنطلقة إلى المحيط.. عصر اليوم صـرح فجأة طبيب السفينة القصير السمين دكتور (رفيق) متسـائلاً في ذعر وفزع: (حريقة؟! يا نهار أسود.. فين؟ فين؟).. ثـم ترك العيادة وانطلق جاريا بلا هدى في كل مكان، فأرعـب السفينة كلها أكثر مما أرعبها الحريق نفسه، ولم يتوقـف إلا حين وجد نفسه في حضن القبطان.. وطلع الحريق في النهاية قطعة صغيرة من القماش (الكهنة) اشتعلت خطأ في يد أحـد البحارة وهو يملأ ولاعة بالبنزين!!

ثاني مرة أسمع فيها كلمة (حريق) على السـفينة منـذ بداية الرحلة، وربنا يستر.. حانجري فين!؟

والدكتور (محمد رفيق عبـد المـنعم) مـن أظـرف شخصيات السفينة: قصير وسمين ودمـه خفيـف، وسـاذج وماكر في الوقت نفسه.. لم يبتعد كثيرا عن مرحلة الطفولة،

فعمره ٢٥ سنة فقط، ويبدو أنه كان قد عود نفسه علـى أن يبدو شكله جادا ومرسوما علشان هو دكتور، لكن حين وجد نفسه على السفينة بين مجموعة شـبان ضـباط ومهندسـين جميعهم في نفس عمره، عاوده مرحه وانطلاقه فعاد ظريفًـا من جديد.. وأصبحت مجموعة شبان السـفينة كلهـا أشـبه بمجموعة زملاء في كلية واحدة في رحلة جامعيـة، مـا أن ينتهي العمل الرسمي حتى تتجمع الشلة في عدة أماكن محددة معروفة في السفينة، وتنطلق في المرح والتهريج.. الدكتور (رفيق) يتمتع بوجه طفل صغير، وطول الوقت على السـفينة يرتدي مايوه شورت كحلي وفانلة سبور حمراء نصف كـم، على سمنته الهائلة أصبح يشبه طفلاً صغيرا هائل الحجم؛ لذا فقد أطلقنا عليه إشاعة أنه دخل كلية الطب بعد حصوله على الشهادة الابتدائية!!.. وقال عنه (عباس) كبير الضباط: (أكيد أخوه الكبير دكتور، وهو أخد من عنده كتاب في الطب وقرأه وجاي يشتغل بيه على السفينة)!!.. ولم يجد (رفيق) بأسا من أن يستفيد من هذه الإشاعات؛ لذا كان كلما ذهب إليه واحـد من البحارة يشكو مرضا قال له (رفيق): (طيـب يـا أخـي وساكت على نفسك ليه/ ليه ما تروحشي لواحد دكتور)!! أو:

(غريبة أوي الحكاية اللي عنـدك دي.. يكونشـي معمولـك عمل)!؟.

وقد اعتاد (رفيق) أن يستيقظ متأخرا، واعتاد أيضا أن يزوغ من العيادة كثيرا، وينتهز زميلي المصور (عبد المنعم) المقيم في العيادة هذه الفرصة ليمارس الطب كهواية، فيقـوم بالكشف على البحارة المرضى الذين يجيئون إلـى العيـادة، ويعطيهم الحقن بنفسه ويغير لهم على جروحهم.. لدرجة أن أغلب البحارة أصبحوا ينادون (عبد المنعم): (يا دكتور)!!.. واستثمر (رفيق) هذه العملية فأصبح (يزوغ) من العيادة أكثر (على حس) عبد المنعم.. ثم أصبحت الحكاية (عيني عينـك) و(عبد المنعم) يعالج البحارة في وجود رفيق نفسه، وصـار (عبد المنعم) كلما أراد أن يترك العيادة لفترة قال لرفيق: (خد بالك من العيادة يا رفيق لحد ما أرجع، وإذا كان فيـه حالـة مهمة والا حاجة ابعت لي، أنا فوق في صالون الضباط)!!

## في عز

العاصفة منذ أيام، ونحن وقوف على حاجز السـفينة، شاهدنا يمامة صغيرة تنطلق فجأة من مكان ما فـي السـفينة كانت مختبئة فيه إلى عرض البحر فـي ضـوء الغـروب

الرمادي.. وتبدو اليمامة الصـغيرة المسـكينة تتخـبط، ولا تعرف أين تنزل بعد أن ابتعدت السفينة مسافة كبيـرة إلـى عرض البحر الأبيض، فكلما حاولت النزول وجدت تحتهـا ماء.. وظللنا نحن نراقبها مشفقين عليها: أتـأتي معنـا مـن الإسكندرية حتى هنا ثم يقدر لها أن تموت في عرض البحر الأبيض غرقًا في الماء المالح وفي الظلام هكذا!؟.. وظلـت اليمامة المسكينة تقاوم وقد أنهكها التعـب، وأخيـرا غلبتهـا العاصفة ولم تستطع مواصلة الطيران، فاستسلمت للسقوط في الماء أمام أعيننا، فصحنا جميعا في جزع وخيبة وحزن كأن فريقنا أصابه هدف الهزيمة فـي آخـر لحظـات المبـاراة النهائي.. وكانت هذه اليمامة المسكينة حديثنا لعدة أيام بعـد ذلك..

وبعد العاصفة بعدة أيام، يعثر أحد البحارة على اليمامة نفسها- والله أعلم، لعلها واحدة غيرها- مختفيـة فـي أحـد قوارب الإنقاذ، فأمسك بها وأعطاها لمهندس التبريد (فهمـي عجمي) الذي أخذها معه إلى قمرته، وأحضر لها ماء وأرزا وعدسا، وفرك لها (بكسويت) بجوز الهند لكي تأكل وتسترد صحتها.. واستردت اليمامة فعلاً صحتها وبدأت تتقافز فـي

القمرة الضيقة.. واهتممنا جميعا بأخبار اليمامـة الصـغيرة الظريفة، وكان كل منها يذهب ليطمئن عليها ويأخذ لها شوية أرز أو كبشة عدس أو باكو بسكويت، ويقضي معهـا وقتًـا يلاعبها ويلاغيها.. ومرت عدة أيام فوجئنا بعدها ذات صباح باليمامة الظريفة: ميتة! وحزن المهندس (فهمي) عليها وحزنا جميعا عليها حزنًا كبيرا!!

وهكذا جزعنا عليها من المـوت غرقًـا فـي البحـر الأبيض، فنجت من البحر، وماتت في غرفة النوم!

## كانت الليلة

حافلة بالمفاجآت الظريفة بالنسـبة لنـا جميعـا.. أول مفاجأة كانت صنف الحلو الذي قدم لنا بعـد العشـاء.. فقـد اعتدنا طول الفترة الماضية أن يكون البرتقـال هـو ختـام العشاء.. لكن الليلة كان الحلو: جيلاتي كاسـاتا.. جيلاتـي حقيقي مثلج صنعه الليلة عم (علي البنا) باشطباخ السفينة..

ثم بعد ذلك سهرنا في السينما.. نزلنـا إلـى الطـابق الأسفل لنسهر في (ميس) البحارة ومعهـم (محمـد حسـن ماركوني) ضابط اللاسلكي الأسمر يعرض لهم فيلم (زقـاق

المدق) لشادية وحسن يوسف.. فكل سفينة من سفن الصـيد الثلاثة عليها جهاز عرض سينمائي و٣ أو ٤ أفلام مصـرية لا تتغير، يشاهدونها هي هي في كل رحلة، وأحيانًا يعـرض نفس الفيلم في الرحلة الواحدة عدة مرات.. فيلم الليلة (زقاق المدق) كان البحارة حافظينه لكثرة ما عرض عليهم، فكـانوا ينطقون الحوار قبل أن ينطقه حسن يوسف أو صلاح قابيـل أو محمد رضا أو عبد المنعم إبراهيم، ويتقصـعون قبـل أن تتقصع شادية، ويسكت بعضهم بعضا في انتظار الضحكة أم صهلولة اللي جاية بعد الموقف ده!! وبما أن السينما لا تعمل إلا مرة واحدة كل ١٠ أيام، فإن أحدا من الضباط والمهندسين لم يتخلف عن النزول إلى (ميس) البحارة لمشاهدة نفس الفيلم للمرة الـ١٢، في جو بتـاع سـينما درجـة عاشـرة فـي الإسكندرية، من المؤكد أن الواحد منهم لو كـان يمـر فـي شارع بالإسكندرية أو القاهرة، فيه سينما من هذا المسـتوى، لانتقل إلى الرصيف الآخر؛ حتى لا يشاهده أحد وهو يمـر أمامها فيحدث –لا سمح الله- اشتباه فـي أنـه سـيدخلها أو خارج منها.. لكنها الظروف التي تحكم!!

## أوشكت فترة

الكسل على السفينة أن تنتهي، فها نحن مقبلون بعد قليل على جبل طارق، أو البوابة التي تؤدي إلى المحيط الأطلنطي، وبعدها يعلم الله كم سنقضي في قلب المحيط قبل أن نتم كمية الصيد المطلوبة؛ فالمسألة مسألة حظوظ وأرزاق قبل كل شيء.. فإن كل الرحلات السابقة قد استغرقت ما بين ٧٥ يوما و١١٩ يوما للرحلة الواحدة.. وربنا يستر فينا ولا نقضي كل هذه المدة..

زميلي المصور (عبد المنعم) ربطه كبير الضباط (عباس) من وسطه بحبل ربط طرفه في حاجز السفينة، قبل أن يسمح له بتسلق صاري السفينة العالي جدا ليتمكن من تصوير مناظر عريضة (توتالات) لجبل طارق الشهير أثناء اجتياز السفينة له..

سرب من (الدرافيل) البحرية يخرج للقاء السفينة عند مدخل جبل طارق، ويتقافز حول مقدمة سفينتنا ويسابقها بفرح ومرح وسعادة ظاهرة، كأنها كلاب ترحب بعودة صاحبها إلى البيت.. ومشهور عن (الدرافيل) أنها صديقة الإنسان ولا تؤذيه، بل تنقذه إذا سقط في البحر، فتظل تدفع

به برفق إلى الشاطئ حتى تتركه عنده، وهو طـافٍ فـوق سطح الماء حتى لا يغرق..

٦,١٥ مساء.. جبل طارق يبدو ضخما رهيبـا مهيبـا رائعا أسطوري الشكل.. صخرة هائلة تقف في وسط البحر، مخروطية كأنه نحتت خصيصا علـى الطـراز الإنجليـزي (لتوضع) في هذا المكان.. مزروعة خضراء كملاعب كـرة القدم من السفح إلى القمة.. وبالنظارات المعظمة يبدو الترام الهوائي المعلق (التليفريك) واضحا نازلاً من أعلى قمة الجبل إلى سفحه، مكانه مختار بعناية بحيث تراه السفن الداخلة إلى البحر الأبيض والخارجة منه عبر جبـل طـارق.. وتبـدو (الفيلات) الإنجليزية الطراز متصاعدة من السطح إلى القمة متناثرة متباعدة أحيانًا، كثيفة أحيانًا أخرى، في نظام هندسي بديع.. وقمم الجبل الثلاث: الصـغيرة والعريضـة شـكلها المخروطي جميل للغاية يبدو من بعيد كجزيرة الأحلام..

القبطان (عبد السلام داود) اقترب بالسفينة إلى أقصـى اليمين عند جبل طارق لتكون أقرب ما يمكن إلى الجبل على الساحل الأسباني، رغم تبعية الجبل نفسـه إلـى إنجلتـرا..

واستطعنا بالنظارات المعظمة أن نشاهد قاعـدة الغواصـات الإنجليزية المتوارية خلف خليج صغير في مدخل الجبل..

زميلنا الباحث (بهجت بارح بشري) أراد أن يحصـل على عينة من ماء البحر الأبيض عند قرب لقائـه بـالمحيط الأطلنطي، فأمسك بجردل صغير من البلاستيك مربوط بحبل وطرحه في البحر، ولكنه طرحه في الاتجاه الخاطئ عكـس اتجاه السفينة فيسحب ماء البحر المندفع الجردل والحبل الذي التف حول ساق الباحث (بهجت) ساحبا إياه إلى البحر عبـر حاجز السفينة.. ويتشبث الباحث بالحاجز بعنف وفزع ويقاوم سحب الحبل له إلى الماء باستيئاس وهو يصـرخ مسـتنجدا بالمصور (عبد المنعم) في مكانه في أعلى صاري السـفينة، على اعتبار أنه الوحيد القريب منه؛ لأن كل أهـل السـفينة كانوا متجمعين على سطحها قرب غرفة القيادة في مقـدمتها يشاهدون جبل طارق، ويستغيث الباحـث بعبـد المـنعم أن يحاول أن يلفت نظر أي أحد لإنقاذه من الورطة التي هو فيها قبل أن يسحبه الحبل المتاف حول ساقيه إلـى البحـر مـع الجردل، فينتهزها عبد المنعم فرصة للقطة صحفية ويصوره وهو يقاوم ويعافر حتى لا يسقط في الماء!!.. ويظل الباحث

في ورطته هذه حتى يتصـادف مـرور مهنـدس التبريـد (عبد الوهاب فرغلي) خارجا من غرفـة الماكينـات فيهـب لإنقاذه، ولكن (عبد الوهاب) أيضا قبل أن يقطع الحبل مـن حول ساقي الباحث يتوقف لحظة ليسـأله مفكـرا: (طيـب وبعدين؟! ما أن لو قطعت الحبل الجردل هيضيع في البحر.. والجردل عهدة)!!

## وفي نفس

الليلة انتهينا من مشوار البحر الأبيض تماما وتركنـاه وراء ظهورنا، وعبرنا بوابة المحيط الأطلنطـي: السـاحل الأسباني على يميننا، والمدينة الدولية (طنجة) على يسارنا.. وأصبحنا نحن والمحيط الرهيب وجها لوجه، وفات الهزار ما بقي إلا الجد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وربنا يستر ويجيب العواقب سليمة!!.

# الفصل الرابع

# بركات الشيخ داود

## كنت أتصور

أننا بمجرد أن نعبر مضيق جبل طارق وندخل منه، أو بمعنى أدق نخرج منه، إلى المحـيط الأطلنطـي، سـتطرح سفينتنا (برنيس) شباكها على الفور في المـاء، وتبـدأ فـي الصيد.. ولكنني فوجئت بأن علينا أن نظل نتوغل في قلـب المحيط جنوبا في محاذاة ساحل قارة أفريقيا العربـي لمـدة أربعة أيام أخرى قبل أن نصل إلى المنطقة التي سنصـطاد فيها.. طبعا ليست هناك مناطق محاطة بأسوار أو بأسـلاك شائكة في قلب المحيط مخصصة للصيد، لكن مناطق الصيد تحدد حسب تجمعات السمك فيها بكميات كبيرة تجعل السفينة تغترف منها في شباكها، بحيث لا تقل حصيلتها من الصـيد عن ٢٠ طنًا من السمك في اليوم الواحـد علـى الأقـل، أو ٢٠,٠٠٠ كيلو جرام.. ولكنها في أحيان كثيرة –كما حـدث معنا بعد ذلك- تنخفض إلى ٢ طن فقط في اليوم الواحـد إذا عاندتنا الظروف وعصلج السمك، وترتفع إلى ٣٠ طنًـا إذا حلت بركات (الشيخ داود) كما يسمي البحارة القبطان (داود) الذي يقوم بقيادة عملية الصيد..

أمامنا حتى نصل إلى منطقة الصيد أربعة أيام أخـرى إذن.. فرصة كبيرة بالنسبة لصحفي علـى سـفينة صـغيرة محدودة المساحة ومحدودة الشخصيات أن يراقب ويـتفحص ويسجل كل الشخصيات المحيطة بـه تحركاتهـا وسـكناتها ويرسم لها بقلمه صورة دقيقة.. فكل عـدد طـاقم الضـباط والمهندسين والإخصائيين والخبراء لا يزيد على ٢٧ شخصا: القبطان وكبير الضباط ومعـه ٦ ضـباط بحريـون لقيـادة السفينة، وضابط إداري، وضابط لاسلكي وطبيب وباحث و٣ أخصائيين وكبير المهندسين ويتبعه ٧ مهندسين وأخصائيين، ومعنا أيضا ٤ خبراء أجانب..

بالإضافة إلى ٥٤ بحارا على السفينة جميعهم يعملـون في مختلف مراحل عمليات الصيد المختلفة.

ولكي أبسط الصورة للقارئ، فلو تصورنا أننـي أنـا وزميلي (عبد المنعم) لسنا صحفيين، وإنما سينمائيان يقومان بعمل فيلم سينمائي على ستة أفراد كل واحد منهم صـورته واضحة جدا ومرسومة بدقة تجعل منه بطلاً، حتى ولو كـان دوره في الفيلم –أو في السفينة- كوميديا!!

هؤلاء الستة: هم القبطان (عبد السلام داود)، وكبيـر الضباط (عباس جاد الله)، ويقوم بالأدوار الضـاحكة كبيـر المهندسين (حنا يعلم الله) والطبيب (رفيق)، والباحث (بهجت بارح حبشي) والبكباك الأكبـر (حمـدي حـافظ) الضـابط الإداري!!.. أما الخبراء الأربعة الأجانب فهم ضيوف شرف في فيلم السفينة، لا منهم ولا عليهم، ومجرد ناس خواجـات شعورهم شقراء ووجوههم حمراء، واخدين لنفسـهم ركـن لوحدهم لا يختلطون بأحد، ولا يتركون أحدا يختلط بهم، ولا يحاولون أن يرتبطوا بصداقات أو يقيموا علاقات مع بـاقي أفراد طاقم السفينة.. جميعهم يتكلمون لغة بلادهم فقط، ويقوم بدور المترجم لهم (مستر موخسـن) أو مسـتر (محسـن) أخصائي الملاحة الذي قضى عدة سنوات في بعثـة بلادهـم ويجيد لغتها.. واحد فقط من هؤلاء الخبراء –هو كبيـرهم- يتكلم الإنجليزية بصعوبة بالغة وبطريقة فيهـا كثيـر مـن المعاناة، تجعل شكله يبدو عصبيا وهو يتكلمها!! دائما هؤلاء الأربعة رايحين مع بعض جايين مع بعض بخطوات جـادة مستعجلة كأنهم طابور عسكري ضل طريقـه وجـاء إلـى

السفينة غلط!! وهؤلاء الخبراء لهم قصة ظريفة سنلتقي بهـا معا في فصل آخر من فصول هذه الرحلة..

نعود إلى فيلم السفينة: باقي الضباط والمهندسين هـم أصحاب الأدوار الثانوية، ٨ منهم يقومون بـأدوار ثانويـة رئيسة، أما الباقون فيعني، كومبارس متكلم!!.. أمـا بحـارة السفينة الـ٤٥ فمنهم إلى شخصيات ظريفة جـدا وغريبـة ونادرة، وحتى إنه خيل إلي في وقت من الأوقات أن الشركة صاحبة السفينة قد ضمتهم إلى بحارتها خصيصا من أجلنا – كصحفيين- حين عرفـت أننـا سنصـاحب السـفينة فـي رحلتها!!..

طبعا لن أستطيع أن أستعرض أبطال فـيلم (السـفينة برنيس) كلهم في فصل واحد، ولكنني سأتناول ٣ شخصيات فقط في هذا الفصل، حتى نصل إلى منطقة الصيد، وبعد ذلك سأتناول باقي الشخصيات حين تأتي مناسبة يكون واحد منهم قد قام فيها بدور ما..

## القبطان

(عبد السلام داود) شخصيته غريبة فعلاً: رجل طويل، ممتلئ إلى حد ما، متين التركيب، مثقف جدا وقـارئ جـدا ومحدث لبق جدا وراوية ظريف وطاق اللسان جدا.. عشري يحب الناس جدا، ويقول هو عن نفسه أنه يحب يسهر للصبح يقعد مع الناس..

ويتكلم وياخد راحته في الكلام، وقد بدا ذلك واضـحا طول مدة الرحلة، فهو في كل ليلة فارس في مجال الحـديث والحواديت والحكاوي لا يبارى.. له في كل موضـوع رأي وحكاية وذكريات لا تنتهي.. يتكلم في البحـر وفـي الأدب والسياسة وفي الأديان وفي الهندسة وفي الجنس وفي الشعر العربي والشعر الإنجليزي، وحين يحضـر إلـى صـالون الضباط ليقضي معهم جانبا من سهرتهم كل ليلـة، فإنـه لا ينفتح موضوع إلا ويكون هو أول المتحدثين فيه، وغالبا مـا يكون آخرهم أيضا؛ لأنه – بعد أن ينتهي- لا يتـرك شـيئًا يمكن أن يقوله أحد بعده.. ومع ذلك فكلامه وحكاياته ظريفة ومسلية فعلاً.. وله طريقة في استعمال يديه وملامح وجهـه وعينيه في الإشارة والتعبير والتوضيح وهو يحكـي، كـان

ممكنًا أن تجعل منه ممثلاً ممتازا فعـلاً لا تمـل مشـاهدته والاستماع إليه..

والمفروض أن شخصا بهذه الصفات يكون (مهـاودا) ويجب أن يرضي (السميعة) بتوعه، ولكنه مع ذلـك عنيـد وصلب الرأي جدا، وإذا اتخذ قرارا فليست هناك جدوى على الإطلاق من مناقشته فيه؛ لأنه لن يتراجع على الإطلاق: في بداية الصيد تعثر حظنا قليلاً لعـدة أيـام، فـركن الخبـراء الأجانب على جنب وأعفاهم من العمل، وبدأ يصطاد بطريقة غريبة لم ترد في عالم الصيد من قبل، لدرجة أثارت رعـب الخبراء الأجانب، خصوصا كبيرهم.. ولكن الذي حـدث أن هذه الطريقة أتت بنتائج مذهلة غير معتادة، ورفعت حصـيلة الصيد اليومية المفروضة إلى أكثر من الضعف ووصلت في بعض الأوقات إلى ٣٧ طنًا يوميا، لدرجة أنـه فـي أحيـان كثيرة كانت كمية الصيد أكثر مما تتحمله سعة غرف التبريد في السفينة، فكنا نرمي ٧ أو ٨ أطنان مـن السـمك مـرة أخرى في الماء بعد أن نصطاده فعلاً ويخرج في شـبكتنا.. ولدرجة أن البحارة قالوا عن القبطان (داود) أنـه: (راجـل مبروك).. وأطلقوا عليه لقب: سيدنا الشيخ داود!! ولدرجة أن

السفن الأجنبية التي كانت تصطاد إلى جانبنا وترى شـبكتنا المزدحمة، وتسمع على أجهزة اللاسلكي النشرة اليومية التي تذيعها كل سفن الصيد عن نتائجها، تركـت سـفن الصـيد الأجنبية طريقتها (العلمية المدروسة) التي كانت تصطاد بهـا وراحت تصطاد بطريقتنا (الهمايونية): طريقة الشيخ داود!!

والمفروض أن كل سفينة من سفن الصـيد المصـرية الثلاث تزور خلال رحلتها مرة واحدة على الأقـل (جـزر الكناريا) في وسط المحيط وترسو في مينائها الشهير الظريف المغري (لاس بالماس) لعدة أيام، إما للتمـوين أو لإصـلاح الأعطال التي تطرأ على السفينة خلال الرحلة، أو على الأقل للترفيه عن طاقمها وبحارتها وإراحـتهم وتجديـد نشـاطهم واستعادة معنوياتهم!!.. ولكن القبطـان (داود) (طلـع فـي دماغه) إن: مفيش (لاس بالماس) المرة دي!! وكانت النتيجة فعلاً مفيش (لاس بالماس) رغم أن كل واحد في الـ ٨٢ بني آدم الموجودين على السفينة طلب منه ورجاه، بل توسل إليه في بعض الأحيان، أن يعدل عن قراره هـذا، ولدرجـة أن واحدا منهم كاد أن يبكي وهو يصرح بأنه سيشتري فسـتان الزفاف لخطيبته من هناك، وواحدا آخر كان سيشـتري دواء

هاما لوالده المريض في حالة خطرة، ولكنه قال لهم جميعـا: إن السفينة لن تدخل (لاس بالماس) إلا إذا حدثت عليها حالة وفاة.. وطبعا ما حدش منهم رضي يتوفى!!

القبطان (داود) عمره ٣٩ سنة، تخـرج فـي الكليـة البحرية من ١٨ سنة وزار –كبحار- ٢٦ دولة فـي أوربـا وأفريقيا وآسيا، ثم أصبح قطبانا وعمره ٣٠ سنة فقط حـين انتدب للعمل في البحرية التجارية.. ثم تـرك الخدمـة فـي القوات البحرية ليخدم ٣ سنوات في شركة (باتا) للأحذيـة – ليس هناك خطأ مطبعي ولا حاجة، هو كده صح: شركة باتا للأحذية!!-.. بعهدها جاء إلى شركة (مصايد أعالي البحار) ليقوم برحلة واحدة قبل هذه يتدرب فيها على عمليـة قيـادة سفن الصيد، وفي أول رحلة يقوم فيها بمفرده بمسئولية قيادة سفينة صيد –استطاع أن يحقق ٣ أرقام قياسية: أقصر مـدة لرحلة صيد لكل السفن، فقد كانت مدد الرحلات السابقة كلها تتراوح بين ٧٥ يوما إلى أربعة شهور، وجاء هو فأتم الرحلة في ٥٩ يوما فقط أو أقل من شهرين.. والرقم الثـاني الـذي حققه كان: أكبر حصيلة صيد، فقد حقق في رحلتنا هذه ٦٣٥ طنًا من السمك، ولم تحقق أية رحلة أكثـر مـن ٦١٢ طنًـا

فقط.. أما الشيء الثالث الذي حققه فهـو أن تكـون رحلـة (برنيس) التي اشتركنا فيها أول رحلة رابحة ماديا في تاريخ الشركة منذ إنشائها فقد حققت ربحا قدره ١٧ ألف جنيه، في الوقت الذي كانت كل رحلة سابقة سواء لبرنيس أو للسفينتين الأخريين اللتين تملكهما الشركة تحقق خسارة بـنفس القـدر تقريبا: أي ١٧ ألف جنيه خسارة!!

بركاتك يا شيخ (داود)!!

## وبعد ثلاثة

أيام فقط من بدء رحلة (برنيس) كان كل طاقم السفينة قد نسوا الاسم الحقيقي لكبير المهندسين العجوز (حنا يوسف مينا) وأطلقوا عليه الباشمهندس (حنا يعمل الله)!! فقد كانـت كلمات: (يعمل الله)، (نشكر الله)، (نحمد الله) هـي لوازمـه الكلامية التي تخرج مع كلامه بمعدل مرة كل دقيقة!.

والباشمهندس (حنا يعمل الله) عمره ٥٧ سـنة ولكنـه يبدو أكبر من عمره كثيرا، محني الظهـر، ملامـح وجهـه وأكتافه المحنية إلى الأمام وطريقته فـي المشـي بخطواتـه البطيئة الزاحفة على الأرض فيها كهولة كبيرة، خصوصـا

بعد ما أطلق ذقنه وشاربه على السفينة، فنما الشعر خفيفًا في مناطق متباعدة من وجهه بطريقة جعلته أشبه بالصينيين حين يطلقون شواربهم وذقونهم فتبدو قصيرة خفيفة شـعثاء غيـر منسقة، جرداء في بعض الأماكن، تثير رؤيتهـا الإضـحاك لأنها تجعله أشبه بممثل كوميدي (مركب ذقن عيرة) يقصـد بها الإضحاك، خصوصا وهو طول الوقت يتحسسـها فـي سرحان وتأمل وهو ينظر بعينيه نظرات ساهمة ساهية مـن تحت لتحت، وهو يلفت النظر على الفور بطريقته في الكلام التي تجعله يبدو كأجنبي (يعرف) اللغة العربية، ولكنه ينطقها بلكنة خواجاتي.. له آراء غير عادية –خصوصا في الجنس- يرددها كثيرا، تجعل التعليقات الساخرة تنطلق من الجالسـين رغما عنهم، كعندما يقول مثلاً: إنه مندهش من شدة اهتمـام الناس بالجنس، وأنه هو شخصيا رغم أنه متـزوج مـن ٢٥ سنة إلا أنه لا يهتم بالجنس على الإطلاق!!!! وعندما يقـول إنه لا يحب تقبيل النساء، ولم يقبل أية امرأة طول عمـره!! في الوقت الذي يقول فيه عندما يدخل صالون السفينة فيجـد مجموعة من الضباط أو المهندسين جالسين: (أنا عاوز أبوس حد.. أبوس مين فيكم)!!؟ ثم يختار أي واحد من الموجودين

ليقبله في جبهته أو في خـده بطريقـة فيهـا نعومـة ودلال غريبان!! وحين يجلس بجوار أحد يصـر علـى أن يضـع ذراعه تحت إبط الجالس بجواره طول الوقت بطريقة لابد أن تثير الملاحظة والضحك فعلاً.. جلس مرة بجوار المهنـدس (محمود فخر الدين) وهو شاب قصير وصغير الحجم ونحيف جدا.. وفجأة مد يده وتحسس فخذ (فخر الدين) ثم قال له في ضيق وتأفف: (عضم.. كلك عضم.. أنت مابتكلش ـي؟ قـوم أنت، تعالى يا (حمدي) اقعد جنبي)!!!

يظل الباشمهندس (يعمل الله) قبل موعد الأكل يـردد: (والله أنا ماليا نفس ولا حقدر آكـل.. أصـلي شـبعان أوي ومليان على الآخر) فإذا وضع الأكل على المائدة كـان أول واحد يقوم إليها، ويأكل –أقصد يلتهم- بطريقة بوليسية وهو ينظر في أطباق الجالسين من تحت لتحت كأنه يراقبهم، فإذا أعجبه أي صنف في طبق أي زميل يجلس قريبا منه –وقـد يكون في طبقه هو شخصيا نفـس الصـنف- مـد قبضـته و(كبش) ما في طبق الزميل ووضعه في طبقه مـدعيا أنـه يمزح!! ويكون هو آخر واحد يقوم بعد أن يأتي على آخـر شيء ممكن أن يؤكل على المائدة، كأنه يأكل لآخر مرة فـي

حياته أو كأنه مقبل على صيام سيسـتمر ١٠٠ سـنة قابلـة للتجديد.. فإذا تبقى على السفرة شيء في أطبـاق الآخـرين جمعه في طبق أو عدة أطباق وأخذه معه ليضعه في الثلاجة في قمرته!!

دخل الباشمهندس إلى صالون الطعام مرة وأخذ يـدير أسطوانته المعتادة: (أصل أنا ماليش نفس ومش حاقدر آكل.. أصلي مليان على الآخر).. فلم يتمالك واحد مـن الجالسـين نفسه وصاح ينادي (عم حسين) السفرجي قائلاً:

- عم حسين.. تعالى خد الباشمهندس فضـيه وهاتـه علشان ياكل!!

وفي الفترة اللي كنت فيها مريضا ومصابا بدوار البحر سمع الباشمهندس مرة القبطان يقول للسفرجي: (اعمل شفشق ليموناته ووديه للأستاذ حسين قدري في القمـرة بتاعتـه).. وصعدت أنا للعشـاء فـي الصـالون بعـد ذلـك، فـانتهز الباشمهندس فرصة وجودي في الصالون ونزل ففتش قمرتي بحثًا عن شفشق الليموناتة لكنه لم يجده؛ لأنني كنت وضـعته على رف عال في ركن منزو مظلم، فلما التقى الباشـمهندس بعد ذلك بمزميلي المصور (عبد المنعم) سأله بضيق: (هـو

الأستاذ حسين مخبي الليموناتة فين؟ نزلت دورت عليها في القمرة بتعاته مالقيتهاش.. هو خايف أن حد ياخد منها حاجة والا إيه)؟!!

## حتى الدقائق

العشر دقائق التي كانت تفتح فيها المياه في الحنفيات في الصباح ومثلها في المساء، ثم انخفضت إلى ٥ دقائق فقط ومثلها في المساء، حرمنا منها، فانقطعت المياه عن السفينة الصغيرة تماما، وأصبح لكل ضابط وبحار الحق في ملء جردل واحد كل يوم حين تفتح المياه في حنفية رئيسية في المطبخ العام مرة واحدة كل يوم في الساعة العاشرة صباحا!!

ورضينا بالمر، وتعودنا عليه، واهي رحلة وتعدي، ولكن حتى هذا المر لم نهنأ به طويلاً، فقد انقطعت المياه العذبة من حنفية المطبخ أيضا لتحل محلها مياه أخرى تأتي من جهاز اسمه (الديستلر)، وهو عبارة عن جهاز يسحب المياه المالحة من المحيط فيرشحها من الملح الموجود فيها، ثم توزع علينا: مياه لها طعم ولون ورائحة: مياه غير نظيفة وغير نقية وليس فيها كلور، لها طعم معدني كريه مر صدئ

المذاق ويموع النفس، ولها لون رمادي نتيجة الذرات الدقيقة الغريبة التي تسبح فيها ونستطيع رؤيتها بـالعين المجـردة، ولها رائحة غريبة حادة تقتحم الأنف بعنف.. وأصبحت هذه المياه مقررة علينا بعد مرور أقل من ٣ أسابيع مـن بدايـة الرحلة.. وحتى هذه المياه الرديئة في كل شيء كنا في أحيان كثيرة لا نجدها هي أيضا.!!

## صعبت حالتي

وأنا مريض طيلة فترة بداية الرحلـة علـى مهنـدس الكهرباء الشاب (ناجي نور)، وكانت زميلة صحفية قريبة له قد أوصته بنا خيرا، فجاء وزارني في قمـرة المستشـفى أو العيادة، وصرح لي بأن من أسباب استمرار مرضي هو أنني أنام في العيادة!! فموضع العيادة قرب مقدمة السفينة، ومقدمة السفينة هي أكثر مكان في السفينة تعرضا للاهتزاز بعنـف، والاهتزاز العنيف المستمر هو سبب مرضـي!!.. وتطـوع المهندس (ناجي) مشكورا فاقترح علي أن نتبادل أماكننا: هو يحل محلي في النوم في العيادة؛ لأنه قديم في البحر وواخـد على النوم في أي مكان، وأنا أحل محله في قمرته التي تقـع قرب وسط السفينة ولا تتعرض للاهتزاز..

وكما يتمنعن وهن الراغبات، تمنعت في البداية قليلاً وأنا أتمنى أن يلح علي في القبول، وفعلاً ألح، وقبلت طبعا.. وهكذا تركت زميلي المصور الشجاع (عبد المنعم) ينام في العيادة مع (ناجي) والطبيب (رفيق) وانتقلت أنا إلى قمرة رقم ٨ ليصبح زميلي بقية الرحلة هو مهندس التبريد (فهمي عجمي) بطل قصة اليمامة الشهيرة.. فنجوت من شيئين: الاهتزاز والحر!!

وقد اكتشفت اليوم شيئًا ظريفًا غريبا، وإن لم يكن جديدا على نظام العمل في الشركات عندنا: اكتشفت أن سفينة الصيد التي نركبها، والتي خرجت في رحلة صيد تتكلف ٥١ ألف جنيه، والمفروض أن تعود بحصيلة سمك ثمنها ٦٨,٢٠٠ جنيه.. هذه السفينة خرجت في رحلتها التي نرافقها فيها وليس بها: شبكة صيد!! على أساس أن شبكة صيد ستصلها قبل أن تصل إلى جبل طارق.. إزاي؟ ما تفهمشي!! وها نحن قد تركنا جبل طارق وراءنا ودخلنا في المحيط وأقبلنا على منطقة الصيد وليس معنا شبكة نصطاد بها.. بل وقضينا فعلاً –بعد ذلك- ٤ أيام في منطقة الصيد دون أن تصلنا الشبكة المنتظرة!! ٤ أيام يتكلف كل يوم منها في

رحلة السفينة ٨٥٠ جنيها، أي أنه ضاع على السفينة مبلـغ ٣٤٠٠ جنيه في انتظار الشبكة!!.. ليس ذلك فقـط، بـل إن الشبكة التي حصلنا عليها بعد ذلك لم ترسلها لنا الشركة، بل حصلنا عليها (شحاتة) من إحدى السفن الأجنبية القريبة منا، باتصالات ورجاوات القبطان (داود) وكبير الخبراء الأجانب الذي معنا على السفينة، ولولا ذلك لقضينا ١٥ يوم كاملة في منطقة الصيد دون صيد، حتى وصلتنا الشبكة التي تكرمـت الشركة أخيرا وأرسلتها على سفينة أخرى.. تصـوروا: ١٥ يوم تساوي نحو ١٣ ألف جنيه كانت ستضيع علينا ونحن في منطقة الصيد مكتفين بالفرجة على سـفن الصـيد الأجنبيـة الأخرى وهي تصطاد!!

إنه عالم غريب، غريب، غريب!!

## وبمناسبة العالم

الغريب فقد سمعت قصة أيضا غريبـة أعـادت إلـى ذاكرتي الخطب والأناشيد التـي كثيـرا مـا نسـمعها فـي المناسبات المختلفة عن (الحوافز الإيجابية) و(المكافأة علـى قدر العمل)، و(تشجيع المجـدين والمجتهـدين والمبتكـرين لتحسين الإنتاج).. إلى آخر هذا الكلام الظريف..

فعندما كانت سفينتنا (برنيس) في رحلتها الأولى للصيد من المحيط، وكان كل طاقمها لسه غشيم صيد فـي أعـالي البحار، ألقت مرة شبكتها للصيد ثم أثناء سحبها تعلقت نهاية الشبكة وطولها نحو ٢٥ مترا، برفـاص السـفينة الموجـود تحتها في قلب الماء، ولفت الشبكة على الرفـاص فتعطلـت السفينة وتوقفت عن الحركة تمامـا فـي وسـط المحـيط.. والمفروض في هذه الحالة أن تطلب النجدة من السفن القريبة منها لتجرها إلى أقرب ميناء.. والسفينة التي تتطوع لإنقاذها وسحبها إلى الميناء يصبح لها الحق في الحصول على نصف ثمن السفينة نفسها، بالإضافة إلى نصف شحنتها.. ولما كانت (برنيس) قد أكملت تقريبا شحنتها من الصيد التي تساوي ٦٨ ألف جنيه، وثمن السفينة نفسها هو مليون جنيـه إسـترليني كاملة، فإن السفينة التي ستتطوع لإنقاذها وجرها إلى الميناء كانت ستحصل من (شركة مصايد أعالى البحـار) صـاحبة (برنيس) على نحو ٥٣٠,٠٠٠ جنيه إسترليني..

لكن الذي حدث أن السفينة المصـرية (رأس بنـاس) شقيقة (برنيس) التابعة لنفس الشركة كانت قريبة منهـا فـي منطقة الصيد أيضا.. فتقدم أحد البحارة الذين يعملون علـى

(رأس بناس)، وهو الغطاس (علي القليوبي)، ليغطس في الماء تحت السفينة (برنيس) ويمزق الشبكة من حول رفاصها وحدث ذلك فعلاً معرضا نفسه لخطر أسماك القرش المفترسة التي تملأ المنطقة.. وأنقذ (علي القليوبي) (برنيس)، فهل تعلمون ماذا كانت المكافأة التي كافأت بها الشركة بحارها الذي وفر عليها نحو ٥٣٠,٠٠٠ جنيه إسترليني؟ كافأت الشركة (علي القليوبي) فصرفت ليه: مرتب نصف شهر.. يعني سبعة جنيهات ونصف فقط لا غير!!

مرة أخرى: إنه عالم غريب، غريب، غريب!!

## أول مرة

أحضر فيها احتفالاً بليلة مولد النبي على ظهر سفينة.. كانت الليلة هي ليلة مولد النبي.. واحتفلت بها السفينة احتفالاً (فرانكو _ آراب) بأن قدمت لها العشاء فتة عيش (فينو) بالخل والتوم واللحم المسلوق، ثم كان الحلو ٤ أصناف: تورتاية كبيرة وكيك وبلح الشام وشربات!! واحتفل (ميس البحارة) بتلاوة القرآن الكريم الذي تلاه البحار (أحمد حافظ نصار)، كما ألقى البحار العجوز (دعدور) خطبة دينية.. ولكن كبير الضباط (عباس) أفسد عليهم احتفالهم حين نزل

وشطب الحفل الديني وأمرهم بالقيام للنوم بدعوى أن أمامهم يوم صيد شاق غدا وعليهم أن يستيقظوا مبكرين!!

وعملية الاهتمام بالمناسـبات الدينيـة والاحتفـالات والأعياد على ظهر السفينة من اختصـاص ضـابط إداري السفينة (حمدي حافظ)، وهو شاب حاصل على بكـالوريوس تجارة جامعة الإسكندرية، وكل ما يقع في نطـاق الأعمـال الإدارية والأكل والتموين ومخازنهما على السفينة هـو مـن اختصاصه؛ لذا فقد استطاع (حمدي) بعد ٤ رحلات فقـط أن يربي كرشًا صغيرا يعتز به كثيرا ويعمل على تنميته.. ويـا بخت من رضي عنه (حمدي) من ضباط أو بحارة السـفينة، فهو لن يشكو من قلة الأكـل علـى الإطـلاق؛ لـذا كـان الباشمهندس (يعلم الله) حريصا جدا علـى أن يظـل طـوال الرحلة متمتعا بصداقة (حمدي) ومخازن (حمدي)!!

و(حمدي حافظ) إلى جانب ذلك هو (البكباك الأكبـر) على السفينة، (البكبكة) كلمة ابتكرها (عباس) كبير الضـباط للتعبير عن الرغي والهمس وترويج الإشاعات وعمل المقالب في بعض الزملاء لإثارة ضحك الباقين عليهم.. و(حمـدي) في هذا المجال فارس خطير لا يشق له غبار: يدور (يبكبك)

طول النهار وحين يأتي الليل تكون السفينة كلها قد (شـبكت) في بعضها و(حمدي) ساذج بريء ما عندوش خبر عن حاجة أبدا، وبراءة الضباط الإداريين في عينيه!!.. ضحيته المفضلة دائما في (البكبكة) هو باشمهندس السفينة (يعلم الله)، الـذي يكشف في كل ليلة أن (حمدي) قد أوقعه في مطب أو مقلب، ومع ذلك يستسلم لبكبكته في اليوم التالي ليكون هـو نفـس الضحية في كل ليلة والليالي التالية!!

المهم، كنت متعبا طوال اليوم ولم أنم في فترة الظهر؛ لذا لم تستمر سهرتي طويلاً في صالون الضباط بعد العشـاء ونزلت لأنام مبكرا.. لكنني بعد أن أوشكت على الاسـتغراق في النوم فوجئت بالبحار (محمد الوكيل) يوقظني بإصـرار ليحمل إلي دعوة من البحارة لتناول العشاء –تاني- معهـم، وقضاء السهرة معهم في قمراتهم.. ورغم أنني كنت مرهقًـا للغاية في حالة جسمانية لم تكن تسمح لـي حتـى بمجـرد الاستيقاظ، إلا أن دعوة البحارة لي أسعدتني، فقمت لأتعشـى معهم صينية سمك طريفة أكلناها ونحن قعود على الأرض.. ثم سهرنا معا بعد العشاء أنا وزميلي المصور (عبد المـنعم) والطبيب (رفيق) و(حمدي حافظ) وأخصائي الصيد (شـوقي

الشرقاوي).. وفوجئنا بحفلة سمر بحرية أصيلة تناولوا فيهـا الغناء بطريقتهم الخاصة التي يستبدلون فيها كلمات الأغـاني المشهورة بكلمات أخرى من عندهم يداعبون فيها رؤسـاءهم الضباط والمهندسين.. وغنوا أيضا علـى السمسـمية التـي عزف عليها زميلي المصور (عبد المنعم) وهو أصـلاً مـن مدينة الإسماعيلية بلد السمسمية.. وفوجئت بأنهم نظموا أغنية السمسمية هذه خصيصا (للتريقة علي) أنـا شخصـيا حـين لاحظوا أنني قضيت أغلب أيام بداية الرحلة مريضا ومصابا بدوار البحر!! غنوها جماعة بطريقة (أخونا سـيد المـلاح) الشهيرة:

لن أركب بحرا في حياتي

م الآن إلى يوم مماتي

لن أركب بحرا في حياتي

**

أحلف بكل الحلفان

لن أركب المركب تاني

دا دوار البحر خلاني

راقد على طول يا إخواني

أغيثونا أغيثونا..

الله..

ع البرد ودونا..

الله..

لن أركب بحرا في حياتي..

**

(الشيف) في كل مكان..

يبحث عن كل هربان..

بـ (المستركي) آه ياني..

من أحلى نومة صحاني..

لن أركب بحرا في حياتي..

**

(بني) يا صانع تعييني..

أكل البطاطس يؤذيني

لا العدس يرويني

ولا اللحم يشفيني

لن أركب بحرا في حياتي..

م الآن إلى يوم مماتي..

و(الشيف) هو اختصار لقب كبير الضباط باللغة الإنجليزية Chief Officer، و(المستركي) Master key هو المفتاح الذي يحمله كبير الضباط، ويستطيع أن يفتح به أبواب جميع القمرات فيضبط من يلازم فراشه زوغانًا أو ادعاء المرض.. أما (بني) فهو عم (علي البني) رئيس طباخي السفينة..

وغنى البحارة أغنية أخرى على وزن أغنية (صفاء أبو السعود) في مقدمة مسلسل (رضا بوند) التي قدمتها الإذاعة في شهر رمضان الماضي.. غنوها بعد أن حولوها إلى (اسكومبر بوند) تريقة على باشمهندس سابق للسفينة كان قد أفرط في الشراب في أحد البارات حين رست السفينة على ميناء (فيجو) بإسبانيا، فحاول أن يقبل فتاة إسبانية رغما عنها

فحدثت مشاجرة وقبض عليه البوليس الإسباني، وبات ليلـة في التخشيبة!!

اسكومبر بوند وباع اسمه

اسكومبر بوند

كان كويس وكويستو

اسكومبر بوند..

راح الخمارة مسكتوا سينوريتا..

جه البوليسا وكلبشتو..

اسكومبر بوند..

وعلى البلاطة نيمتو..

اسكومبر بوند وباع اسمه!!!

وكان مضيفونا في هذه السهرة الظريفة هم البحـارة: محمد الوكيل، علي الراشدي، لؤي الشيخ، إبـراهيم خليـل، مصطفى السيد، محمد عبد العزيز، (زيزو)، محمود الطيـر، السيد الصحاح، إبراهيم شاهين عسران عبد الرحيم أبو زيد..

**ودخلنا منطقة**

الصيد أخيرا قرب منتصف الليل بعد مسـيرة ٤ أيـام كاملة في قلب المحيط الأطلنطي، فألقت السفينة مراسـيها أو خطافها في وسط المحيط طوال الليل، تمهيدا لبدء الصيد غدا عند شروق الشمس.. ونحن الآن نبعـد عـن الإسـكندرية بـ ٥٥٦٠ كيلو مترا أو ٣٠٠٠ ميل بحري، أمـام سـواحل جمهورية (موريتانيا) عند الساحل الغربي للقـارة الأفريقيـة وعلى بعد ١٢ ميلاً فقط منها.. وبالتحديد أمام ميناء (كـاب بلانش) أو (كاب بلانك) كما ينطقها أهل المدينة الأفريقيون.. وغدا يبدأ الصيد..

ومع الليل هاج المحيط وجاءت العاصفة مرة أخرى.. وكالعادة جعلت السفينة الصغيرة لعبتهـا، فراحـت تشـيلها وتهبدها في ماء المحيط كأنها لعبة صغيرة تافهة.. لكنها والله أثبتت أنها عنيدة صامدة، فهي لا تكاد ترتفع عن سطح الماء وتنهبد عليه آخذة الكرباج الذي يرج كيان السفينة كلها رجـا ويشعرنا بأن أمعاءنا قد قفزت من مكانها تحاول الخروج من حلوقنا، حتى تعود السفينة العنيدة تحـاول أن تسـتقر علـى سطح الماء وهي تترنح من أثر الرزعة ومن تأثير الأمواج،

ولا تلبث أن تأتيها موجة أخرى عاليـة فتشـيلها وتهبـدها وترقعها بكرباج آخر.. وتتمايل السفينة على جانبيها بشـكل مخيف رهيب قلب كل شيء في قمرتي رأسها على عقـب، وجعلني أتشبث بسريري بيدي بعنف وأنا أقرأ على روحـي الشهادتين مع كل مرة تميل فيها السفينة الصغيرة على أحـد جانبيها..

وقضيت ليلة أخرى رهيبة تحطمت فيها أعصابي، إن كانت قد بقيت لي أعصاب بعد الليالي العاصفة الكثيرة التـي قابلتنا في مشوار الوصول إلى منطقة الصيد.. وربنا يسـتر في باقي المدة!!

# الفصل الخامس

## الصيـــد

## في القاهرة

كنت لا أستيقظ قبل التاسعة صباحا، وكان أهل بيتـي يعانون كثيرا من إيقاظي في الصباح إذا لم تكن لدي مواعيد مبكرة، وكنت بعد أن أستيقظ أقضي نحو ساعة في الحمـام بين اللكاعة والمهمزة وحلاقة ذقني ثم الدش.. أما هنا علـى السفينة فقد (انضبطت) علي أن أقلق في السابعة والنصـف صباحا، ثم أقفز من فراشي كالملسوع في الثامنة إلا خمـس دقائق بالضبط لكي ألحق بالماء حين يصل إلـى الحنفيـات لأتشطف فقط، وبسرعة، وإلا قضـيت اليـوم كلـه دون أن أغسل وجهي!! ثم أملأ الجردل البلاستيك وزجاجـة المـاء البلاستيك أيضا لأشرب منها طوال اليوم.. كل ذلك فـي ١٠ دقائق مرتين كل يوم، انخفضت إلى ٥ دقـائق فقـط بعـد أسبوعين من بداية الرحلة.. ثم انقطعت تماما بعد ذلك..

أدب!!

## ولكن اليوم

كان علي أن أستيقظ في الخامسة صباحا؛ لأشهد بـدء عمليات الصيد، أو البداية الحقيقية للرحلـة المقـدر لهـا أن

تستمر في هذه المنطقة وحدها في وسط المحـيط بـين ٣٥ و٤٠ يوما على الأقل..

مع بداية أول ضوء للفجر يأتي من السماء، القبطـان (داود) في غرفة القيادة في أعلى مكان في السفينة يجلس أمام جهاز رادار شاشته شبيهة بشاشة تليفزيون صغير مسـتديرة في حجم الطبق العادي.. وتبين هذه الشاشة كـل الأجسـام الموجودة في الماء ابتداء من تحت السفينة مباشرة، وبشـكل عمودي، حتى قطاع المحيط.. وتنطلق السفينة فـي رحلـة صغيرة مدتها ساعة تقريبا، والقبطان جـالس أمـام جهـاز الرادار أو جهاز التليفزيون الذي يصور له عمق الماء تحت السفينة، يستكشف كميات الأسماك الموجودة عنـد الأعمـاق المختلفة، وبعد هذه الساعة يكون قد أتم استكشـافه واسـتقر رأيه على المنطقة التي سيصطاد فيها اليوم، فيبـدأ إصـدار أوامره بالميكروفون لإنزال الشبكة في الماء..

وكان تصوري في البداية أن شخصا ما سـيقف عنـد حاجز السفينة ويطوح بيديه شبكة صيد كالتي نرى الصيادين يطوحونها وهم وقوف عند ساحل البحـر أو شـاطئ النيـل مثلاً.. ولكن الذي رأيته كان شـيء جديـد علـي تمامـا..

وسأحاول أن أنقل للقارئ صورة كاملة لما يجري في عملية صيد واحدة..

عندما يشرع القبطان في بـدء الصـيد ينـادي فـي الميكروفون:

- ألسطه وردية الصيد؟!

فيشير إليه رئيس وردية الصـيد، ويسـمى باشـريش الصيد، بيده إشارة: إنهم جاهزون.. فيعود القبطان ليقول:

- عشق الكهربا على الونش.. و(ماينا) الشبكة!!

بمعنى: ليبدأ الونش عمله، فيبدأ الونش الضـخم فـي (ماينا) الشبكة أي إنزال الشبكة!!

الشبكة هنا شكلها غريب أساسا.. عبارة عـن شـبكة طويلة جدا يصل طولها إلى ٥٠ مترا، شكلها أشبه بقرطاس كبير جدا ضخم الحجم جدا، مصنوع من الشباك، ينزل إلـى الماء مربوطًا من جانبه بأسلاك من الصلب القـوي، وتبلـغ فتحة قرطاس الشبكة هذه ٢٥ مترا بعرض ١٠ أمتار.. ولكي نضمن أن هذه الفتحة ستظل مفتوحة دائما ولا يغلقها المـاء، فإنه يركب في أسفلها كرات ضخمة مـن الحديـد، تجـذب

طرفها الأسفل إلى تحت دائما؛ حتى تجعله يستقر على أرض قاع المحيط، وتركب في طرفها العلوي كرات من البلاستيك المجوف أشبه بعوامات تطفو فوق الماء، فتظل الشبكة فاتحة فمها الواسع الكبير تستقبل أفواج السمك سيئ الحظ الذي يمر في طريقها فيجد نفسه فجأة داخل الشبكة العملاقة لا يستطيع منها خروجا أو فكاكًا.. كل ذلك والسفينة سائرة تجر وراءها الشبكة، والقبطان في مكانه أمام جهاز الرادار الذي يكشف له –هذه المرة- السمك في قاع المحيط تحت السفينة وهو في طريقه إلى مصيره المحتوم داخل الشبكة.. وقد تظل الشبكة في الماء ساعة أو ساعتين أو أكثر أو أقل، حتى يقرر القبطان أنها امتلأت بالسمك، أو على الأقل وصل إلى داخلها القدر الكافي، فيبدأ في إصدار أوامره في الميكروفون من جديد:

- ألسطه وردية الصيد!؟

يعني وردية الصيد تستعد..

وبسرعة يظهر على سطح السفينة أفراد وردية الصيد:

- عشق الكهربا على الونش.. و(بيرا) الشبكة..

فيبدأ الونش في (بيرا) الشبكة، أي سـحب الشـبكة.. وتعود الشبكة إلى سطح السفينة محملة بنصيبها الذي تجمـع في داخلها من الأسماك، وتترواح الكمية بداخلها كل مـرة – واحنا وحظنا - بين ٢٠ طنًا وهو أقصى احتمـال للشـبكة، ونصف طن فقط وهو أقصى احتمال لصبرنا وأعصابنا!!

ويفرغ السمك من الشبكة من خلال فتحة كبيرة تفـتح على سطح السفينة لينزل إلى قلبها من الداخل، حيث تجـرى عليه عدة عمليات: أولاً ينزل كله على طاولة خشبية كبيـرة عريضة اتساعها باتساع عرض السفينة كلها.. ويغسل وهـو فوق الطاولة بالماء بواسطة خراطيم قوية تغسله غسلاً جيـدا عنيفًا، وبعد الغسيل يبدأ عدد آخر من بحارة السـفينة وهـم يرتدون قفازات من المطاط في فرز السمك، وأمام كل منهم فتحة كبيرة وعدد من (الصاجات) مـن الألومنيـوم شـبيهة بصاجات الكعك إلا في اختلاف الحجم.. الفتحة الكبيرة تؤدي إلى البحر مباشرة: السمك السام أو صغير الحجم أو الأنواع غير المطلوبة تمرر من خلال هذه الفتحة لتعود إلى البحـر مرة أخرى.. والصاجات لتفرز فيها أنواع السمك المختلفـة، كل نوع في صاج مستقل حتى لا يصبح في الصاج الواحـد

أكثر من نوع واحد.. وتمرر هذه الصاجات بعد ملئها بالسمك إلى ٢ آخرين من البحارة يقومان بوزن الصاج لتكون عبوته ٢٠ كيلو جراما فقط من السمك.. ويسير الصاج فوق عربـة متحركة ذات رفوف حمولتها ٦٠ صاجا.. ومن هذه العربـة تبدأ المرحلة الثالثة..

هذه العربة المتحركة ذات العجـلات مـا أن تكتمـل حمولتها من الصاجات الـ ٦٠ حتى تبدأ في الحركـة علـى قضبان كقضبان السكك الحديد، متجهة إلى قسم التجميد –كل ذلك في بطن السفينة من الداخل- حتى تقف أمام باب مقفـل أشبه بباب الدكان أو هو أقرب شبها بباب جـراج السـيارة الواحدة.. فما إن تقف العربة أمام هذا الباب؛ حتـى ينفـتح وتغير العربة اتجاهها لتنزلق إلى داخل هذا الجراج، وينغلق الباب وراءها، وتصبح العربـة محبوسـة خلفـه.. وتظـل محبوسة هكذا لمدة ٦ ساعات كاملة تخرج بعدها وقد أصبح السمك متجمدا تماما كالحديد، لو ضربت بسمكة منه شخصا على رأسه لانفتحت دماغه وانبطح..

وبعد ذلك تأتي المرحلة الرابعة والأخيرة..

يخرج السمك من هذه الجراجات الثلجيـة ليبـدأ فـي مرحلة أخرى وأخيرة.. عملية إخراجه من الصـاجات أولاً، فيخرج السمك من الصاج وقد تماسك كله مع بعضه ليصبح عبارة عن لوح ثلج فعلاً في نفس حجم الصاج ولكـن هـذا المكعب الثلجي محشو من داخله بالسمك.. ليمر هذا اللـوح الثلجي السميك بمرحلة غسيل أخيرة قبـل أن تتلقفـه أيـدي أخرى من البحارة لتضعه كما هو في علبة مـن الكرتـون أو الورق المقوى في نفس حجم لوح الثلج السمكي، ويغلفونها بدبابيس خاصة قوية بواسطة (دباسة) تشبه تماما تلك التـي نستعملها في المكاتب، والفرق فقط في الحجم، لتصبح علبـة الكرتون محكمة تماما، قبل أن تنطلق علـى سـطح آخـر متحرك في مشوارها الأخير إلى داخل مخـازن السـفينة.. ومخازن السفينة هذه ليست مخازن عادية، وإنما أيضا درجة البرودة فيها ٢٠ درجة تحت الصفر، لتحفظ ألـواح السـمك الثلجية بشكلها هكذا طول مدة الرحلـة حتـى تعـود إلـى الإسكندرية وتفرغ السفينة شحنتها من الأسـماك المثلجـة، لتنقلها بعد ذلك سـيارات شـركة تسـويق الأسـماك إلـى

المجمعات الاستهلاكية، إلى الجمهور، إلى أطبـاق السـمك الشهية على مائدتي ومائدتك وكل مائدة..

وكنّا قد بدأنا الصيد في بداية الرحلة أمام ميناء (كـاب بلانش) أو (كاب بلانك) على سواحل جمهورية (موريتانيـا) في غرب القارة الأفريقية.. وكانت حصيلة الشبكة الأولى ٨ أطنان أو ٨٠٠٠ كيلو جرام من السمك.. وكانت هذه الشبكة ظريفة جدا، فقد خرجت فيها عينات غريبة جدا من الأسماك ندر أن تجتمع في شبكة واحدة: سمك الكاليمـارس الشـفاف الجسم الوردي اللون ذو الفم الغريب المتشعب مـن فصـيلة الأخطبوط، وهو أغلى سمك في العالم؛ إذ يباع الكيلو منه في أوربا بنحو أربعة جنيهـات.. وسـمك الخنزيـر، وسـمك السيوف، وسمك العفريت، وسمك الشمس، وقملـة السـمك، وسمكة قرش متوحشة متوسطة الحجم اسمها (قرش النمر).. ومجموعة من أسماك القرش الطفلة أو الصغيرة، وأخطبوط متوسط الحجم معلق في أذرعه الثمانية عدد كبير من أسماك الشاخورا..

ولما كانت فرحة النجاح والانتصار – بـأي شـيء - تنتقل سريعا كالعدوى فتصيب كل الموجودين، حتـى الـذين

ليس لهم علاقة مباشرة بالموضوع، فقد عمت الفرحة السفينة كلها واستبشروا خيرا برصيد الشبكة الأولى، فقبل كبير الضباط القبطان، ورحنا نهنئ بعضنا بعضا، حتى نحن الصحفيين اللذين لا نفهم في السمك انتقلت إلينا فرحة البحارة وهم يهللون ويرقصون ويدقون على الصاجات ويغنون أغنية المطربة (ليلى نظمي): ماخدشي العجوز أنا، لا أزجه يجع في الجنا..

خاطر غريب قفز إلى خاطري وأنا أشهد هذه الفرحة من جانب البحارة الصيادين، فقد فكرت في أن الطرف الآخر: السمك، لابد وأن يكون حزينًا شديد الحزن والكدر، فقد انتهت حياته على الصورة التي لم يكن يتوقعها وهو يمرح ويرتع في وسط المحيط الهائل، ولا يدري أن قضاه قد أتاه.. وكما (لا تدري نفس بأي أرض تموت) فإنه (لا تدري سمكة بأي أرض تؤكل) فالسمكة في المحيط الأطلنطي قد تخشى خطر الأسماك الأكبر منها.. قد تخشى سمكة القرش المتوحشة مثلاً أو أي سمكة أخرى، ولكنها لا يخطر على بالها أبدا أن تأتيها سفن الصيد من أقاصي العالم ومن كل مكان في العالم لتنقض عليها و(تنتشلها) من أعماق المحيط..

ولا تدري السمكة في أي شبكة ستقع قرعتهـا، ولا فـي أي سفينة سيكون نصيبها، وهل تؤكل بعد ذلك في مصر أو في السويد أو في النرويج أو في روسيا، حسب جنسية السـفينة التي ستصطادها..

صحيح: لا تدري سمكة بأي أرض تؤكل أو تمـوت.. وهكذا الإنسان أيضا!!

ومن الطبيعي وعملية الصيد قد بدأت، أن يكون أغلب الحديث عن الصيد، خصوصا حديثنا نحن الصحفيين، فالجو جديد علينا تماما، وأسئلتنا المستفسرة المتلاحقة تبدو –قطعا- ساذجة وعبيطة في نظر الشبان الذين مروا بهذه التجربة عدة رحلات كاملة قبلنا.. كان مهندس الكهرباء الصغير (نـاجي نور) يقف إلى جانبي وأنا أقرر ببسـاطة بعـد أن شـاهدت رصيد الشبكة الأولى: (كدة كويس أوي.. إذا كانت الشـبكة الواحدة بتطلع ٨ أطنان في المرة يبقى نقدر نرمي الشبكة ٥ مرات في اليوم ونطلع ٤٠ طنًا كل يوم.. وبالشكل ده نخلص الصيد كله في حوالي ١٥ يوما ونرجع على طـول.. أمـال كنتم قبل كدة في الرحلات اللي فاتـت بتقعـدوا ٤ شـهور ليه!؟.. ويجيبني (ناجي) بصوته الخافت الهامس: (ما تتغرش

في الشبكة دي.. كتير بيحصل أننا نقعد الـ ١٥ يوم اللي أنت بتقول عليهم دول من غير ما تطلع في الشبكة سمكة واحدة.. وحصل أننا قعدنا نصطاد مدة فيطلع لنا كل يوم ١٠٠ كيلـو بس.. لما تحسبها بالشكل ده حتلاقي إننا علشـان نصـطاد الـ ٦٢٠ طن –كل يوم ١٠٠ كيلو، فحنحتاج إلى ٦٢٠٠ يوم صيد على ٣٦٥ يوما في السنة يبقى حوالي ١٧ سنة.. وبما أننا إحنا دلوقتي سنة ١٩٦٩ يبقى حانرجع إسكندرية بإذن الله في شهر مايو سنة ١٩٨٦!! (ويستطرد المهنـدس (نـاجي) كأنما يفكر) الحمد لله أن الواحد مش مرتبط بمواعيـد قبـل كده.. لأني ما أحبش أدي مواعيد وأخاف فيها أبدا)!!

ويبدو أن المهندس ثروت ثاني السفينة قد أحس أيضـا هذا الإحساس في رحلة سابقة له، ولما كان (ثـروت) مـن هواة كتابة شعر الهلس أو الشعر (الحلمنتيشي) الذي كانـت تتبناه الصحافة الفكاهية زمان، فقد سجل إحساسه هـذا فـي قصيدة حلمنتيشية قال فيها:

ركبت سفينتنا ظهر الموج

وجابت البحار والمحيطات من عل

علنا نصيد سمكًا بالأطنان

ونملأ عنابرنا والشحنة تكمل

وسارت بنا السفينة أيام وليال

إلى مكان فيه السمك للعين يزغلل

فتفاءلنا خيرا وقرأنا الفاتحة

ووضعنا بالشبكة زجاجة خمر فلل

وتشاهدنا عندما نزلت إلى الماء

عروس الشباك الأجمل

ثم جررنا وسحبنا، ويا ليتنا

لم نترك بيوتنا، ولهذه الخيبة لم نفعل

فقد كان الكل في انتظار وتلهف

للأسماك التي من أجلها نعمل

فإذا الشبكة مليئة بقروش

لا تساوي مليما ولا في الصناديق تحمل

و(استاكوزا) عمياء أوقعها سوء المصير

في أيد حنطتها وكان من الأولى أن تخال

أما خبراؤنا فتدللوا وقالوا لنا:

انتظروا، لابد أن السمك مقبل

وللآن مازلنا ننتظر أن يحن

السمك علينا وفي الشبكة يدخل

فهلا أراحتنا الشركة وأمرت

أن نصطاد ماء، لكثرته، ولأنه أسهل!!

والمهندس (ثروت) هو المهندس الثـاني للسـفينة، أو مساعد كبير المهندسين؛ إذ إن ترقيته التالية فـورا هـي أن يكون كبيرا للمهندسين.. والذي يسمع ذلك يتصور أن عمـر المهندس الثاني لابد وأن يكون كبيرا ليتناسب مع اللقـب أو الوظيفة المرشح لها وهي (كبير المهندسين)، إلا أن (ثروت) أتم ٢٦ سنة فقط خلال الرحلة، وتخرج في أول دفعـة مـن قسم الهندسة البحرية بكلية هندسة إسـكندرية –رغـم أنـه قاهري- منذ ٥ سنوات، ليصبح ضابطًا مهندسا في السـلاح البحري، وبعد انتهاء مدة تكليفه عين على سفينة الصيد هذه.. وكانت رحلتنا هي الرحلة الثالثة له على سفن الصيد..

وفي نفس موضوع صيد السمك كتب المهندس (حسين محمد حسين هيكل) أحد مهندسي طاقم السـفينة (الغردقـة) الشقيقة الثالثة لسفينتنا (برنيس) زجلاً قال فيه:

سمكة تطلع من (الطانل) متجبسة

شغلة تنسي الأهل واليابسة

شغلة ياما بهدلت ناس من عائلات كويسة

شغلة تمحي الصفات وتعلم التربسة!!

دي (طرحة) حلوة وشكة عال

والتالتة طالعة مفلسة..

أسماك كتير، أصناف كتير

صوانيها عالية مكدسة..

(شخورا) إيه، وكمان (وقار)

ودي سمكة (القط) مفدسة..

على الله (بيرا)، اسحب (ترال)

الشبكة طالعة مدبسة

الشبكة تطلع مليانة خير

والناس من الفرحة مهيصة

وآهو طن (بوري)، طن (لوفار)

نجيب حصيلة كويسة..

و(الطانل) هي المجمدات أو الجراجات الثلجية التـي تلكمنا عنها.. أمـا الـ (شـخورا) و(الوقـار) و(القـط) والـ (البوري) و(اللوفار) فهي أسماء أنـواع مختلفـة مـن الأسماك.. وكلمتا (طرحة) و(شكة) فهما تعبيران فـي لغـة الصيادين يعنيان حصيلة الشبكة من الأسماك.. وكلمة (بيرا) شرحت معناها من قبل بمعنى (اسحب) الشبكة، والـ (ترال) هي الشبكة نفسها!!

## ملاحظة لفتت

نظري واستغربت جدا في يوم قيام السفينة، ثم تأكدت من خلال الرحلة.. فقد لاحظت أن طقم ضـباط ومهندسـي وبحارة السفينة لم تصبح أسماؤهم مؤكدة تماما إلا في لحظة إبحار السفينة، وقبلها بنصف ساعة فقط لم يكن أحد –حتـى ولا قبطان السفينة نفسه- يعرف مين اللي طالع ومين اللـي

مش طالع!! وفي آخر لحظة تخاف ناس وجيء بـدلاً مـنهم بناس آخرين.. ودارت سيارات الشركة تحضر ناسا لم يكـن مفروضا أن يكونوا ضمن الطاقم هذه المـرة مـن بيـوتهم، وتصطاد الناس من الشوارع، كما حدث فـي فنـي الـديزل (رزق مصطفى رزق) الذي التقطته السيارة من الشارع وهو في طريقه إلى بيته –وكان في إجازة- وأحضرته إلى السفينة قبل قيامها بلحظات، وسافر الرحلة دون أن يكون معـه أي ملابس غير التي كان يرتديها، ودون أن تعلم أسرته حتى أنه سافر!!

الذي يترتب –في ذهني- على هذه الملاحظة أنـه إذا كانت شركة المصايد تعاني هذه المعاناة في توفير واستكمال أطقم المهندسين أو الضباط والبحارة للسفن الثلاث فقط التي تمتلكها في الوقت الحالي، فماذا يمكن أن يحدث عندما تصل خطة الشركة إلى أقصاها حين يصل عدد السفن التي تمتلكها إلى ٢١ سفينة بعد سنوات قليلـة!؟ خصوصـا وأن أغلـب الضباط البحريين والمهندسين الشبان وعددا كبيرا من البحارة الذي يعملون الآن فعلاً علي سفن الشركات ما أن يسـتكملوا مدة خدمتهم البحرية استعدادا للحصول على شهادات بحريـة

أعلى، حتى يهربوا بعدها فورا إلى العمل في سفن البحرية التجارية أو سفن نقل البضائع المصرية أو الأجنبية؛ حيث العمل أقل وأسهل -وأنظف، ولا يتطلب المجهود الكبير المضني الذي يبذلونه في سفن الصيد، وحيث مدد الرحلات أقل ودخول الموانئ أكثر والمتعة أكثر، (المكاسب) أيضا أكثر.

أما القباطنة والمهندسون والضباط البحريون من الرتب الأكبر الموجودون الآن في سفن الشركة فهم ينتظرون بفارغ الصبر إعادة فتح قناة السويس ليعملوا مرشدين ومهندسين فيها.. فماذا سوف تفعل شركة المصايد في ذلك الوقت!؟

كثيرا ما كنت أفكر طول مدة الرحلة: من أين تأتي طيور (النورس) البحرية التي تحوم حول السفن وتظل تطير وراءها طوال الوقت، خصوصا إذا كانت سفينة صيد!؟.. أعرف لماذا تحوم حول سفن الصيد؛ لأنها تلتقط الأسماك التي تزيد عن حاجة السفينة فترميها؛ لأنها سامة أو لأنها ليست من الأنواع المطلوبة، فتلتقطها طيور (النورس) وتتغذى عليها.. لكن السؤال هو: من أين -أصلاً- تأتي هذه الطيور حتى تصل إلى وسط الأطلنطي على بعد مئات

الأميال من أقرب ساحل، حيث لا جزر قريبة تسمح بمجيء طيور (النورس) هذه منها وعودتها إليها!؟ وأين تذهب هـذه الطيور الغريبة وتختفي حين يحل الليل فتختفي في الظـلام ولا تظهر!؟.. فمن المؤكد أنها لا تظل طائرة في الجو هكذا طول عمرها، ولا تتكاثر وهي في الجو، ولابد لها مـن أن ترسو على أرض ما في الليل –أو في أوقات فراغهـا!!-.. فهل تطير مئات الأميال من المحيط حتى تصل إلى أقـرب أرض ذهابا وإيابا كل ليلة؟! وكم تكون سرعتها في الطيران في هذه الحالة حتى يكون في إمكانها أن تظل طائرة حـول سفينتنا إلى ما بعد الغروب، ثم تكون موجودة حول السـفينة في مرة أخرى قبل الشروق في اليوم التالي!؟

كاد الصيد اليوم أن ينتهي بكارثة، فقد كان أخصـائي الصيد الشاب (جاد محمد جاد) (٢٩ سنة) يراقـب ويباشـر عملية إخراج الشبكة المليئة بالسمك من الماء عنـد مـؤخرة السفينة، حين انزلقت قدمه فجأة فاختل توازنه وسـقط مـن السفينة إلى الماء في قلب المحيط.. وانخلعت قلوبنا جميعـا هلعا؛ إذ إن عمق المحيط في هذه المنطقة كان لا يقل عـن ٣٠٠ متر.. وحتى لو استطاع (جاد) السباحة لفترة حتى نلقي

إليه طوقًا من أطواق الإنقاذ، فإنه سيجد نفسه معرضا في أي لحظة إلى هجوم أسماك القرش المتوحشة وثعابين المـاء أو الإخطبوط أو السمكة الرعادة الكهربائية التـي لـو لمسـت بطرفها فيلاً ضخما لصعقته على الفور!!. إلا أن (جاد) فـي آخر لحظة استطاع أن يتعلق بشبكة الصيد التي كان جـزء منها لا يزال في الماء، فتعلق بها وتسلقها –بصعوبة ومشقة- عائدا إلى سطح السفينة، وفي لحظات انتفض واقفًـا وعـاد يصدر أوامره وتعليماته ويقود العمل من جديد بعد أن تمالك نفسه!!

يعجبني هذا الشباب، وهـذا الطـراز (الجـدع) مـن الشبان.. وفي مساء اليوم حـدث شـيء آخـر: أخصـائي الأسماك (عبد المعبود القديم) اختلف مـع كبيـر الضـباط (عباس) حول مسألة فنية أثنـاء عمليـة إخـراج الأسـماك المجمدة من المجمدات، فقـد طلـب كبيـر الضـباط مـن (عبد المعبود) طلبا –بالنسبة للسمك- ورأى (عبد المعبـود) أن هذا الطلب غير سليم فنيا وعمليا، فرفض تنفيذه، وأصـر كبير الضباط على رأيه، وأصر (عبد المعبود) علـى عـدم تنفيذه إلا إذا تلقى أمرا كتابيا حتى يخلي مسئوليته.. فأصـدر

كبير الضباط أمرا بإيقاف أخصائي الأسماك عـن العمـل، ووافقه القبطان على ذلك، إلا أنه عدل الأمر فجعلـه (إبعـاد عن العمل) فقط وليس (إيقافًا).. وذلك مـن حـق القبطـان، فالأوامر في البحر وعلى السفينة –أي سفينة مهمـا كانـت مهمتها، وذلك هو قانون البحر- يجب أن تطاع على الفور، ثم تناقش فيما بعد إذا كانت تستدعي المناقشة..

وفي الحقيقة، ولأنني حضرت هذا الموقف من بدايتـه حتى نهايته فقد وجدت نفسي مؤيدا ومتعاطفًـا مـع موقـف (عبد المعبود) علميا وفنيا، ومؤيدا لموقف القبطان إداريـا.. ومستنكرا دائما لطريقة (عبـاس) الشـاذة الشرسـة الفظـة الجارحة في معاملة ضباط السفينة!!

# الفصل السادس

# سفن الحريم

## وجاد وعبد المعبود

كلاهما واحد من ١٠٠ شاب قضـوا فـي روسـيا ٥ سنوات يدرسون المراحل المختلفة لعمليات صـيد الأسـماك كدراسة جامعية، وعادوا ليوزعوا على شركات المصايد في مصر، كشركة مصايد الجنوب التي تعمل في البحر الأحمر وفي بحيرة ناصر عند السد العالي، وشركة مصـايد شـمال التي تعمل في البحـر الأبـيض وفـي بحيـرات المنزلـة والبرلس.. وكان من نصيب (شركة مصايد أعالي البحـار) التي نحن في ضيافتها ٣٠ شابا من هؤلاء، وزعـتهم علـى سفنها الثلاث: برنيس، ورأس بناس والغردقة.. منهم ٧ شبان معنا ضمن طاقم السفينة (برنيس) في رحلتها التي ترافقهـا فيها هم: (جاد محمد جاد) -٢٩ سـنة- أخصـائي صـيد، (شوقي الشرقاوي)-٢٩ سنة- أخصائي شباك، (عبد المعبود القديم) -٢٨ سنة- أخصائي تبريد، (عبد الوهاب فرغلي) -٣١ سنة- أخصائي تبريد أيضا، (محسن النوبي) -٣٠ سنة- أخصائي ملاحة سفن، (محمود الجعفـراوي) -٢٩ سـنة- أخصائي محركات..

الشيء الظريف أن ضباط ومهندسي وبحارة السـفينة يسمون هؤلاء الشبان: (الروس المصريين)!! تمييزا وتعريفًا لهم عن: الروس الروس!!.. وحكايـة الـروس المصـريين والروس الروس ليست نكتة، وإنما هـي فعـلاً مـن بـاب التعريف، فإن على السفينة معنا أيضـا ٤ روس حقيقيـين.. خبراء من روسيا لتدريب الشبان المصريين علـى عمليـات الصيد في أعالي البحار، على اعتبـار أن أعـالي البحـار والمحيطات مناطق جديدة تماما على الصيادين المصـريين، وطريقة الصيد نفسها أيضا جديدة علينا، عرفناها وتعلمناهـا من الروس لأول مرة.. وليس عيبا على الإطلاق أن نحتـاج ونبحث عن الخبرة عند من سبقونا في مجال ما، المهـم أن نستطيع أن نستفيد منهم حقيقة ونتعلم منهم حقيقة، وذلك مـا حدث فعلاً.. فإن السفينة (برنيس) مثلاً – التي كنا عليها بعد ٣ رحلات صيد في المحيط الأطلنطي تحت إشراف ومباشرة الخبراء الروس، استطاعت في رحلتها الرابعـة أن تطلـب منهم الاكتفاء بالمشاهدة والملاحظة فقط، وقام بعملية الصـيد في الرحلة الرابعة بأكملها الشبان المصريون فقط، وبإشراف القبطان المصري (عبد السلام داود).. وكانت الرحلة الرابعة

هي أنجح رحلات (برنيس) على الإطلاق وسـجلت أرقامـا قياسية في كل شيء: في قصر مدة الصيد، وفي كمية الصيد نفسها، رغم حدوث أعطال كثيرة بالسفينة خلال الرحلة كان ممكنًا أن تلغى الرحلة من أساسها أو على الأقل تجعلها رحلة عادية جدا..

## والخبراء الروس..

الأربعة هم: (فالنتين فيدرو تشنكا) ٣٧ سـنة، رئـيس الخبراء على السفينة، وهو خبير في الصيد والملاحة البحرية في أعالي البحار بعد أن حصل على درجتين علميتين فيهمـا من جامعة الصيد بمدينـة (فيلاديفـو سـتوك).. والقبطـان (فالنتين) لم يتزوج حتى الآن، وإن كان قد طلب التصريح له بالعودة إلى الاتحاد السوفيتي بعد هذه الرحلة ليتـزوج مـن خطيبته التي لا تزال طالبة تدرس البيولوجيـا فـي جامعـة (لينينجراد)..

ثاني الخبراء الروس هو (فيتـا) وهـذا هـو اسـمه الصغير، أما اسمه الكامل فهو (فيكتو فاسيليفيتش اشـتيفان) خبير الأجهزة الإلكترونية عموما، وبالذات أجهـزة الـرادار التي تبين السمك الذي يوجد في العمق بين قاع السفينة وقاع

المحيط.. و(فيكتور) عمره ٣٣ سـنة وهـو خـريج معهـد (بافوث) للإلكترونيات بـ(لييننجراد)، وزوجته أيضا مهندسة راديو اسمها (سفتلانا) وعندهما طفلة واحدة اسـمها (جـالا) أو (هالة) عمرها ٨ سنوات.

ثالث الخبراء الروس هو (جينا) أو (ليتوتيش يفجينـي باكوفيديفتش) خبير أجهزة التبريد، عمره ٣٣ سنة، ومتخرج من معهد بناء السفن في (نيكالايف) في جمهورية (أوكرانيا) على البحر الأسود.. و(جينا) متزوج ولديـه طفلـة واحـدة عمرها ٣ سنوات اسمها (ساشـا) أو (ألكسـندرة) وكانـت زوجته (آنا) تعمل طباخة في مطعم قبل أن يتزوجها..

أما رابع الخبراء وآخرهم فهو (بوريا)، وهذا أيضا هو اسمه الصغير، أما اسمه الكامـل فهـو (بـاريس كـوزمين ألكسندرفيتش) خبير صيد وشباك عمره ٢٩ سنة، وهو خريج معهد الأسماك البحرية بمدينة (استراخان) فـي جمهوريـة (روسيا البيضاء) على نهر الفولجا.. و(بوريا) متزوج ولديه طفلة واحدة أيضا اسمها (أيرينا) وعمرهـا سـنة ونصـف، وزوجته (لودميلا) مازالت طالبة تدرس الهندسة الميكانيكيـة بمعهد زراعي عالٍ..

ويبدو أن عملية صيد الأسماك في روسيا عملية مهمة جدا عندهم؛ لأنهم يهتمون بها اهتماما كبيرا.. ففـي روسـيا وزارة للصيد، تتبعها ٤ إدارات مركزية كبيرة للصيد فـي ٤ جمهوريات مختلفة على بحر البلطيق والبحر الأسود.. وكل مركز من هذه المراكز الأربعة تتبعه جامعة كاملة للصيد بها كليات ومعاهد عليا متخصصة في فروع الصـيد المختلفـة، وتصب في هذه الكليات والمعاهـد مـدارس صـيد ثانويـة متوسطة!!

والروس لديهم ١١,٠٠٠ سفينة صيد سمكية كلها ملك الدولة، منها ٤٠٠٠ سفينة كبيرة يطلقون عليها (سـفينة أم) أو Mother ship.. الـ ٧٠٠٠ الأخرى سفن صيد صغيرة في حجم سفن الصيد المصرية الثلاث: بـرنيس، الغردقـة، رأس بناس.. وسفن الصيد الروسية منتشرة في كل محيطات وبحار العالم ابتداء من الباسفيكي إلى الأطلنطـي والهنـدي والمحيط الهادي حتى قرب سواحل أمريكا نفسها.. واهتمامهم البالغ بصيد الأسماك راجع إلى أنهم يأكلونها بكثـرة جـدا، ورغم الكميات الهائلة من السمك التـي تصـطادها سـفنهم الـ ١١,٠٠٠ والتي تتراوح الكمية التي تصـطادها الواحـدة

منها بين ٥ آلاف و ١٥ ألف طن في السنة – للقياس: سفينة الصيد (برنيس) التي كنا عليها تصطاد نحو ٢٠٠٠ طن فقط في السنة- إلا أن هذه الكميات الرهيبـة لا تكفـي لتغطيـة احتياجات الروس من السمك؛ ولذا فإن السمك المجمد هنـاك يباع بأسعار مرتفعة تصل إلى ٦٠ قرشًا للكيلـو الواحـد – للقياس أيضا: أغلى كيلو سمك مجمد عندنا سعره ٢٤ قرشًا!!

ولكثرة سفن الصيد هناك وطول مـدة رحلاتهـا فـي البحار، فإن ٥ سنوات فقط تكفي للطالب الذي يتخـرج فـي الكليات البحرية هناك ليصل إلى درجة قبطان أعالي البحار، فيقود سفينة ضخمة كبيرة وهو فـي الخامسـة والعشـرين أو حتى دونها، في الوقت الذي يحتاج فيه الطالب المصـري الذي تخرج في الكلية البحرية التجارية عندنا مـا بـين ١٠ و١٥ سنة ليصل إلى درجة قبطان في سـن بـين الخامسـة والثلاثين والأربعين..

ولنفس السبب أيضا؛ لطول رحـلات سـفن الصـيد الروسية والمدة التي تقضيها السفينة في البحر فـي الرحلـة الواحدة، وهي تتراوح بين ستة شهور وسنة كاملة – للقياس: مدة الرحلة للسفينة المصرية تتراوح بـين شـهرين إلـى ٣

شهور فقط على أكثر تقدير- فإنه مسموح للنساء الروسـيات أن يعملن على سفن الصيد الروسية، بل والمفروض –هكـذا سمعت- أن يكون عدد النساء على السفينة الواحدة أكثر من عدد الرجال بمقدار النصـف تقريبـا، بمعنـى أن السـفينة الروسية التي يبلغ عدد أفراد طاقمها ٢٥٠ فردا يكـون ١٥٠ منهم نساء و١٠٠ فقط رجال!! وذلك حتى لا يهرب الرجال من العمل في البحر لطول ابتعادهم عن أسـرهم وعـائلاتهم وصديقاتهم أو زوجاتهم.. فالحرية الجنسية مكفولة وليسـت عليها قيود من أي نوع، والبحار الروسي لا ينقصه شيء في البحر على الإطلاق، وكذلك المرأة الروسية التي تعمل فـي البحر!!.. لدرجة –كمـا سـمعت أيضـا، ولـم أر بنفسـي للأسف!- أن البحارة الرجال يغلقون أبواب قمـرتهم علـى أنفسهم من الداخل بالمفاتيح ليلاً، تبعا لنظرية كثرة العـرض وقلة الطلب!!

الغريب الذي سمعته من الخبراء الروس الأربعة على السفينة (برنيس) هو أنه غيـر مسـموح بـأن يعمـل زوج وزوجته على سفينة واحدة، ولابد أن يعمل كل منهما علـى سفينة غير السفينة التي يعمل عليها الآخر!!

وذلك ليس معناه أن وجود النساء على السفن الروسية من باب الترفيه فقط، فإنهن يعملن فـي كـل المهـن علـى السفينة، ابتداء من طباخات وسفرجيات وغسالات وعاملات فرز أسماك وممرضات، إلى طبيبـات ومهندسـات تبريـد وأخصائيات أسماك، بل وهناك ٣ سيدات روسيات قبطانـات أو قبطانة على ٣ أكبر سفن صيد سمك في روسيا!!

وليس هناك جناح خاص في السـفن الروسـية لنـوم النساء وجناح آخر لنوم الرجال، فإن القمـرات متجـاورة، وطبيعي جدا أن تجد قمرة فيها نساء وبجوارها مباشرة قمرة فيها رجال..

## كان القبطان

(داود) في الفترة التي كنا فيها نقوم بالبحث عن سفينة صيد في المنطقة نشحت أو نستلف منها شبكة للصيد بدلاً من الشبكة التي وعدتنا بها الشركة ولم ترسلها إلينا، كان قد وجد في مخزن السفينة الشبكة التي استعملت في الرحلة السـابقة لـ (برنيس).. والمفروض أن الشبكة تستعمل خلال رحلـة واحدة فقط تصطاد خلالها نحو ٦٠٠ طن ثم تصبح بعد ذلك في حكم المنتهية.. فأخرج القبطـان هـذه الشـبكة القديمـة

المستهلكة واصطدنا بها أربعة أيام بحرص شديد جدا، حتى جاء الفرج أخيرا وجاءت الشبكة الجديدة التي اشتريناها أمس –شكك أو على الحساب- من سفينة أجنبية جاورتنا في منطقة الصيد.. ولكن بعد الاطمئنان إلى وصول الشبكة الجديدة عز على القبطان (داود) أن يركن الشبكة القديمة أن يستفيد منها أطول مدة ممكنة؛ توفيرا للشبكة الجديدة.. وقد كان، وقرر أن تستمر عملية الصيد اليوم بالشبكة القديمة أيضا.. ولكن كان نتيجة ذلك أننا عشنا اليوم على أعصابنا لحظات رهيبة رائعة:

ألقينا الشبكة –القديمة- في العاشرة والنصف صباحا.. ولمدة ساعة كان شكل جهاز الرادار الذي يبين أفواج السمك في الأعماق عاديا ولا يبشر بشيء مثير أو غير عادي.. ثم لمدة ربع ساعة فقد القبطان العمق الذي كان يصطاد عليه، ولم يعد الجهاز يبين شيئًا على الإطلاق.. ثم أخيرا استطاع العودة إلى العمق المطلوب، ليجد أن أفواجا هائلة متتابعة متعاقبة من السمك تأخذ طريقها إلى داخل الشبكة فوجا بعد آخر.. وأخذنا إغراء الجشع –وكنت إلى جواره في غرفة القيادة أمام شاشة رادار الأعماق- فترك الشبكة أمام أفواج

السمك الزاحفة ربع ساعة أخرى، ثم بدأنا في سحب الشـبكة المكدسة المكتظة الثقيلة جدا من الماء عنـد قـاع المحـيط بصعوبة بالغة، لدرجة أن (بوريا) خبير الصيد الروسي قال: إن الشبكة ستتمزق تحت الماء قبل أن تصـل إلـى سـطح المحيط!!.. وبعنف شديد جدا ومجهود كبير وصـل طـرف مقدمة الشبكة إلى حافة السفينة، وعند هذا القـدر عصـلجت واستعصت على الونش الضخم أن يقدر على سحبها.. ولـم يكن هناك حل إلا عمل فتحة في جانب الشبكة تسمح بتسرب كمية من السمك منها إلى المحيط مرة أخرى حتـى يخـف وزن الشبكة فيستطيع الونش سحبها، ولا بـد أن يـتم ذلـك بسرعة جدا قبل أن تتمزق الشبكة كلها تحت ثقـل السـمك وتعود إلى الماء بما فيها؛ إذ إن الونش لم يعد قـادرا علـى سحبها فقط، بل حتى على مجرد الاحتفاظ بها قليلاً في هـذا الوضع.. وكان لا بد من المجازفة، فتطوع أخصائي الصـيد المصري الشاب (جاد محمد جاد) لهذه العملية رغم ما فيهـا من الخطورة البالغة؛ إذ من الممكن –بل من المتوقع جـدا- أن تعجز الشبكة عن احتمال زيادة ثقل (جاد) أيضا فتتمـزق الشبكة فجأة وهو عليها فتأخذه معها إلى قاع المحيط!!

ولبس (جاد) حزام النجاة، وربطه (عباس) من وسطه بحبل ربط طرفه الآخر إلى حاجز السفينة، ووقف زمـلاؤه إلى جوار الحبل اسـتعدادا لأي بـادرة خطـر.. وبعمليـة طرزانية تشعبط (جاد) على الشبكة نازلاً عليها إلـى سـطح المحيط، حتى وصل إلى مكان مناسب فوقها قـرب سـطح الماء، وبخنجره مزق جانبها بسرعة جدا فخرجت من هـذه الفتحات كميات السمك بوفرة جعلت أسراب طيور (النورس) تعظي سطح الماء عند مؤخرة السفينة.. وعاد (جاد) متسـلقًا الشبكة بسرعة إلى سطح السفينة، لتبدأ مرحلة أخـرى فـي محاولة شد الشبكة بالونش الضخم الضعيف!! وبين الشد من جانب الونش والمقاومة من جانب الشبكة التي مازالت ثقيلـة جدا، بدأت الشبكة فعلاً تتمزق ويرتفع صرير تمزيقها مهددا كل من حولها من البحارة والمهندسين.. وكان لابد من شيء واحد إذا أردنا ألا نفقد الحصيلة الهائلة مـن السـمك التـي اصطادتها، والتي لم نحظ بمثلها منذ بداية الرحلة، وهـي أن نستطيع جذب الشبكة بالونش إلى سطح السفينة قبل أن تنفلت هي عائدة إلى الماء.. ومرت لحظات رهيبة على أعصـابنا، كان يرتفع فيها أنين الونش وصريره، لتتقـدم الشـبكة إلـى

سطح السفينة عشرة سنتيمترات، ثم يفقـد الـونش العجـوز أنفاسه فتعود الشبكة لتتراجع نحو الماء مترا كاملاً.

وبدأ صراع عنيف بين البحارة على الونش (المخستك) من ناحية والشبكة التي لا يزال ثقلها كله في الماء مـن ناحيـة أخرى.. ومرت لحظات علا فيها صـوت تمـزق الشـبكة وانفلاتها من الحبال الضخمة التي تربطها بها، وكادت فعـلاً أن تنفلت عائدة إلى الماء، وبذل البحارة الواقفون على الونش جهودا جبـارة يائسـة، والبـاقون جميعـا يحيطـون بهـم ويشجعونهم بعنف وبأنفاس محتبسة وقلوب واجفـة، كأنهـا مباراة مصارعة ميئوس منها بالنسبة للبطل الذي نشـجعه.. وانطلقت السفينة بأقصى سرعة لها لتتيح للونش قوة جـذب أكبر.. وفي لحظة، بعد أن بلغ اليأس منتهاه وفقـدنا الأمـل تقريبا، عبرت الشبكة العجوز الجبارة العنيدة خط اليأس إلى سطح السفينة بين صياح البحارة وتهليلهم، وصـياحنا نحـن الصحفيين اللذين ليس لنا في الصيد ولا في الطحـين.. فقـد نجت الشبكة أخيرا –والسمك معها- من الغرق!!

وكما يقول الأطباء: نجحت العملية ومات المـريض!! فقد أمكن إنقاذ ما في بطن الشبكة من سمك، ولكـن الشـبكة

نفسها كانت قد انتهت حياتها، ولم تعد صالحة للاستعمال مرة أخرى بعد أن تمزقت تماما.. انتهت نهايـة الأبطـال، فقـد صمدت وأدت واجبها إلى النهاية.. وكانت آخر حصيلة صيد لها ١٨ طن تقريبا غير ٣ أطنان أخرى خرجت من الفتحـة التي أحدثها (جاد).. ولم تمت الشبكة إلا بعد أن وصلت شبكة جديدة محلها!!

لحظتها فقط.. هـبط القبطـان (داود) علـى كرسـيه واسترد أنفاسه المحتبسة!!

## رغم أن

المفروض أن الجو في مصر الآن عز الصيف وعـز يونيو، إلا أن الجو في المحيط رطب جدا وبارد، لدرجة أنني كنت لا أستطيع أن أصعد إلى سطح السفينة المكشوف للهواء –خصوصا بالليل- بالملابس العادية أو القميص والبنطلـون فقط، وإذا أردت أن أجلس قليلاً على سطح السفينة، حتى لو كان ذلك في الثانية ظهرا، فلابد مـن أن أرتـدي السـويتر (الووتر بروف) المبطن بالصوت من الداخل ومـع ذلـك لا أستطيع البقاء طويلاً..

وقد ضحك القبطان (داود) على حين التقينا أول مـرة في الإسكندرية قبل بدء الرحلة، فقد طلب منـي أن أحضـر معي أخف ملابس ممكنة، على اعتبار أننا سنصطاد قـرب خط الاستواء حيث الحرارة المحرقة الفظيعـة، وأنـه فـي الرحلة السابقة التي قام بها إلى نفس المنطقة فـي شـهري ديسمبر ويناير –يعني في عز البـرد- كـان الجـو عاديـا ومعتدلاً وليس حارا على الإطلاق!!.. ولكن اتضح العكـس على طول الخط، فقد ظللت طوال الرحلـة أنـام بالبيجامـا وأتغطى ببطانية صوف في داخل القمرة الضـيقة المقفولـة المحكمة ومع ذلك أشعر بالبرد يتسال إلى عظامي من تحـت البطانية، وفي عز يونيو، الوقت الذي تمتليء فيـه بلاجـات الإسكندرية بالمصيفين الحرانين الهربانين من قـيظ يونيـو ليرطبوا أنفسهم بماء البحر!!

غريبة.. لم أجد تفسيرا لهذه الظاهرة.!

## أثار إشفاقي

جدا الضابطان تحت التمرين –قرب العشرين عامـا- (جلال منير) و(محمود سامي)، حين جاءا علينا باب العيـادة –وكنا نجلس بالداخل- فلما فتحنا لهما قالا بذلة ومسكنة: (ما

عندكوش ميه؟ عايزين نشرب.. حـانموت مـن العطـش)، فصعبا علي جدا.. ذكراني بشكل الأطفال اليتامى أولاد الناس الكويسين حين يجور عليهم الزمن!!.. فذكرت لهمـا مكانـه وأعطيتهما مفتاح القمرة، فطارا إليها يتسابقان وعادا وهمـا سعيدان وقد أشرق وجهاهما مرة أخرى، وعادت الابتسـامة إليهما.. سألتهما فقالا: (لقينا الليموناتة حمضانة، لكن برضه شربناها، أحسن من مفيش)!!

منك لله يا عباس يا ابن جاد الله!!

## غريب ذلك

الشيء الذي يلفت النظر فينا ولا نشعر به نحن، فـي أوائل رحلتنا ونحن ما زلنا في البحر الأبيض عبرت فوقنـا إحدى طائرات حلف الأطلنطي، وذهبت وعادت ثـم ذهبـت وعادت فوقنا عدة مرات، ثم اهتمت جدا بأن تسألنا: من نحن واريحين فيه وجايين منـين؟.. وكـأنهم شاويشـية البحـر الأبيض، واليوم حدث شيء أغرب: سفينة بولنديـة كانـت تقطع المحيط في عكس اتجاهنا متجهة إلى شـاطئ غـرب أفريقيا في اتجاه جبل طارق، وبدون مناسبة على الإطـلاق غيرت اتجاهها لتقترب منا جدا دون سلام أو كلام أو حتـى

تحية، ولما نظرنا إليها بالنظارات المعظمة اكتشفنا أن السفينة البولندية تقوم بتصوير سفينتنا بكاميرا سينمائية!!

صديقنا الباحث (بهجت بارح حبشي) بسرعة استفاد – كأي أبو لمعة نشيط- من الفرصة، ليعلن أن السفينة البولندية جاءت خصيصا لتصويره هو شخصيا علـى اعتبـار أنـه الباحث!!.. وأخرج من جيبه مشطه الذي لا يفارقه وسـرح شعره ومشط ذقنه ووضب نفسه، ثم تصدى للكاميرا البولندية سعيدا فخورا.. وظل أسبوعين بعدها سعيدا جـدا؛ حـاتطلع صورته في السينما!!

## أكملنا اليوم

صيد الـ ١٠٠ طن سمك الأولى من الـ ٦٢٠ طنًـا المقررة أن تصطادها السفينة، وانتهينا من سـدس مهمتنـا.. واستغرق صيد الـ ١٠٠ طن الأولى هذه نحو عشرة أيام.. وإذا استمر الحال على هذا المعدل –أي: بمعدل ١٠ أيام لكل ١٠٠ طن- فيكون باقيا لنا ٥٢ يومـا فـي عمليـة الصـيد وحدها.. ثم ١٣ يوما أخرى حتى نصل من منطقة الصيد في وسط المحيط إلى الإسكندرية!!

## هانت

وبمناسبة الصيد: شيء ظريف يحدث في وسط المحيط الواسع.. ويبدو أن الشحاتة أو التسول فن متطـور وعلـى درجات ومستويات تتدرج من التسول علـى بـاب سـيدنا الحسين إلى التسول في قلب المحيط الأطلنطي!! نعم، ففـي المحيط أيضا شحاتون، ولكنهم شحاتون ظراف من نوع جديد مبتكر: بلانصات صيد صغيرة في كل واحد منهـا ٣ أو ٤ أفراد فقط، وكلاب، وشوية عيش فينو وبصل توضـع علـى ظهر البلانص بطريقة ظاهرة؛ بحيث يمكن للسفن القريبة أن تراها بوضوح، من باب إظهار الفقر، وإلهي ما يغلب لكـم جدع!!

وتظل هذه البلانصات تدور في المحيط تحـوم حـول سفن الصيد وتتلكع إلى جانبها حين تكون السفن تصـطاد.. فإذا اصطادت سفينة الصيد وسحبت شبكتها اقترب منها واحد من هذه البلانصات وراح الذين فوقه –بالإشارة- يشـحتون شوية سمك من اللي زايد عن حاجة السـفينة، مـن بـاب: أعطونا مما أعطاكم الله، ويا بخت من قدم شيء بيـداه يـا فاعل الخير والثواب! وهم يعزفون على الجيتار وينشدون أن

يبارك الله في رزق سفينة الصيد ويجعله موفـورا وكثيـرا، ويحيون طاقم سفينة الصيد برفع قبعـاتهم القـش الإسـبانية الكبيرة والتلويح بها مع الانحناء؛ حتى تحن عليهم السـفينة بشوية سمك، وهذه الـ (شوية) يعنـي نحـو ١٠٠ أو ٢٠٠ كيلو جرام مثلاً، فيأخذها بالنص الشحاتين شاكرا، ويحاولون أن يقدموا شيئًا مقابل هذه الشحاتة: زجاجة ويسكي من النوع الرخيص جدا مثلاً.. وطبعا هـذا العـرض يثيـر الرثـاء والابتسام، فيرفضه قبطان سفينة الصيد، ولكنه قد يقبل شـيئًا آخر على سبيل التذكار: بالونة مثلاً كتلك التي قبلتها سفينتنا (برنيس) في رحلة سابقة لها، بالونة أطفـال عاديـة كبيـرة ملونة لا تساوي ١٠ بيزنات إسبانية أو ما يساوي ٦,٥ قرش مصري.. ولكنها على أية حال تذكار ظريف مـن شـحاتي المحيط الأطلنطي!

## السرقات الصغيرة

التي تحدث على ظهر السفينة ما زالت محدودة جـدا حتى الآن.. القمرات أغلبها أبوابها مفتوحـة تغـري بهـذه السرقات الصغيرة: الكتب والمجلات، الأكل، أدوات التسلية،

المياه، وخصوصا المياه بالذات.. لكن فلوس وأشـياء ثمينـة لا.. حتى الآن على الأقل!!

## فإذا جاء

الليل ألقت السفينة خطافها الضخم الهائل في الماء.. ثم وقفت في وسط المحيط طول الليل، كأنها سـيارة متسـكعة متصعلكة ليس لها جاراج يتركها فيه صـاحبها.. أو كأنهـا سيارة فرغ منها البنزين في منتصف ميدان التحرير فتركهـا صاحبها وانصرف وهو ضامن ألاّ أحد سيقترب منها، لمجرد أنه أضاء لمبة حمراء ولمبتين بيضاويتين في أعلى سـاري السفينة، إشارة إلى أن السفينة واقفة وغير متحركة، وعلـى كل السفن التي تمر قريبا منهـا أن تلاحـظ هـذه اللمبـات الحمراء والبيضاء فتبتعد السفن المتحركة عن طريق السفينة الراسية..!

# الفصل السابع

## حكايات البحر

## كنت طول

الليل مستيقظًا في سريري أقرأ كتابا حتى الصـباح.. وفي السادسة صباحا شد أذني صوت غريب يأتي من بعيـد خافتًا، أحسست للوهلة الأولى أنني أعرفـه وإن كنـت لـم أستطع بالضبط أن أتذكر صوت ماذا هو؟! فلما أرهفت أذني إليه عرفت أنه صوت: ماء يتدفق من حنفية مفتوحـة علـى آخرها، ولا أحد بجوارها يستعملها!!.. ولما لـم يكـن هـذا الموعد هو موعد فتح الماء على السفينة، فقـد قفـزت مـن سرير كالملسوع وجريت من القِمرة بملابسي الداخلية أبحث عن الحنفية المفتوحة في دورات المياه القريبة حتى وجدتها، ولم أفوت الفرصة طبعا، فغسلت وجهي ورأسي وذراعي، ثم أغلقت الحنفية وعدت إلى فراشي لأنام سعيدا، فإنني كنت قد أوشكت أن أنسى شكل الماء وهو ينـزل – طبيعيـا- مـن الحنفيات بلا قيود ولا مواعيد ولا جرادل بلاستيك!!

## ولكنني لم

أهنأ بنومي أكثر من ساعة واحدة، اسـتيقظت بعـدها على ضجة هائلة وتهليل وزيطة ونداءات وهتافات، فقمـت

من فراشي أجري مرة أخرى صاعدا إلى غرفة القيادة فـي سطح السفينة.. وهدأت أنفاسي قليلاً وأنا أعرف سبب هـذه الضجة الشديدة: السفينة (الغردقة) أخت سفينتنا (برنيس) التي كانت موجودة من قبلنا في منطقة الصيد في رحلتها الثالثـة، ومضى عليها في المحيط ٣ شهور حتى الآن، أوشـكت أن تنتهي من رحلتها، وباقٍ لها يومان أو ثلاثة أيام تستكمل فيها شحنتها من الصيد، ثم تبدأ رحلة العودة إلـى الإسـكندرية.. السفينة (الغردقة) في طريق عودتها مـن جنـوب أفريقيـا صادفتنا في طريقها، نحن في بداية رحلتنا الطويلـة، وهـم عائدون من رحلة طويلة، فاقتربت السفينتان جدا حتى كادتـا تتجاوران في المحيط الرهيب المتسع.. وخرج الكـل علـى السفينتين يلوحون ويحيون بفرحة ولهفة شديدة.. إنك رغـم قرب المسافة بين السفينتين إلا أنك لا تستطيع أن تتبـين أو تميز ملامح الوجوه بسهولة، فترفع ذراعيك الاثنـين تحيـي وتلوح بهما معا للسفينة القريبة، لا لأحد معين محدد بالذات، ولكن للسفينة نفسها، للناس الذين على السفينة الأخرى بشكل عام، للفكرة، مجرد الفكرة.. من ناحيتنا نحن الذي ما زلنا في بداية رحلتنا، نلوح بفرحة لفكرة العودة إلـى الإسـكندرية،

ونغبط (الغردقة) على أنها انتهت من رحلتها على خير وفي طريق العودة.. ومن ناحيتهم هم: يلوحون لفكرة أننا قادمون من الإسكندرية، من عنـد الأهـل والحبايـب والأصـدقاء والخلان..

كان شعوري –رغم أنني لا أعرف أحدا علـى ظهـر السفينة الغردقة- كأنني غريب وحيد في بلد أجنبي لا أعرف لغته ولا أعرف أحدا فيه، وفجأة أجد أمامي مباشـرة أعـز أصدقائي وأقربهم إلى نفسي ولكنه للأسف، مسافر في نفـس اليوم!!

قد يمضي وقت طويل علينا في المحيط قبل أن نلتقـي بسفينة مصرية أخرى، فإن المنطقة التي نصطاد فيها ليسـت ممرا بحريا للسفن العادية، وتكاد لا تطرقها إلا سفن الصـيد بالذات..

## بالأمس أرسلت

برقية إلى ابنتي (نهلة) من عرض المحيط الأطلنطي، أهنئها فيها بعيد ميلادها من علـى بعـد ٤٠٠٠ ميـل مـن

الإسكندرية.. بلا مناسبة: الكلمة الوحيدة فـي البرقيـة مـن مكاننا هنا بـ ٣٧ قرشًا..

اليوم جاء الضابط الإداري (حمدي حافظ) يوقظني من النوم في الساعة السادسة مساء ليقول لي إن القبطان يطلبني في صالون الضباط.. وفي الصالون فوجئت بلمسة رقيقة جدا من جانب أهل السفينة: فقد عرف القبطان حين عرض عليه بالأمس ضابط اللاسلكي البرقيات التي سيرسلها ليوافق عليها –بالمناسبة: لا ترسل برقية من على ظهر أي سفينة إلا بعـد اعتمادها من القبطان، حتى ولـو كانـت برقيـة شخصـية كبرقيتي.. عرف القبطان بتاريخ ميلاد ابنتـي، فكـان هـذا الاحتفال الرقيق البسيط في مظهره الذي كان له أكبر الأثـر في نفسي.. واجتمع ضـباط ومهندسـو السـفينة والقبطـان (عبد السلام داود) وكبير الضباط (عباس جـاد الله) وكبيـر المهندسين (حنا يعلم الله) حولي وحول تورتايـة شـيكولاتة كبيرة ضخمة وأكواب الكاكاو، وكنت ضيف الشرف – طبعا – في هذا الاحتفال..

لمسة رقيقة أسعدتني لمدة طويلة..

وفي نفس الليلة صادف أن كان عيد ميلاد البحار (وفا علي وفا) فأقام له زملاؤه البحارة احتفالاً وزعوا فيه أكواب الشربات، وعزف فيه (ماهر حسين) فني التبريد على العـود الذي أحضره معه على السفينة وحضر احتفال (وفا) كبيـر الضباط (عباس) بالنيابة عن القبطان..

إن أهل السفينة –لطول بعدهم عن المدينة- يبحثـون وينقبون عن أية مناسبة يحتفلون بها ويسعدون لها، تغييـرا للجو الروتيني الهادئ الراكد الذي تلبسه السفينة وهـي فـي وسط الأطلنطي على بعد ٣ أيام من أقرب شاطئ.. وحيـث تتشابه الأيام وتمر بطيئة مملة ثقيلة على الأعصاب المشدودة المتوترة نتيجة انقطاع الصلة بالبلاد والأهل والمشاكل المعلقة طول مدة الرحلة التي تصل أحيانًا إلى أكثر من ٣ شـهور.. كان الله في عونهم، فهي بالنسبة إلينا رحلة وتنتهـي ومـرة وتعدي، لكن بالنسبة إليهم قلق متكرر باستمرار؛ فهم يقضون في البحر أضعاف أضعاف ما يقضون على البر، فإن المـدة بين عودة السفينة إلى الإسكندرية ثم بدئها لرحلة جديـدة لا تزيد على ٢٠ يوما ثم تعود إلى الأطلنطي لتمضي نحـو ٣ شهور أخرى، وهكذا!!

## اليوم شهر

كامل مر علينا في الماء منذ بداية الرحلة.. شهر كامل -على الإطلاق- لم أر فيها أرضا، ولم أشـاهد فيـه التليفزيون ولم أقرأ صحيفة، ولم يزعجني صـوت جـرس التليفون ولا صـوت جـرس البـاب، ولا صـوت رئـيس التحرير!! شهر كامل لم أحلق فيه شعري، وعشرة أيام لـم أحلق ذقني.. كنت قد حلقت في القاهرة قبل بدايـة الرحلـة، ونويت ألا أحلقه مرة أخرى إلا بعد العودة إلى القاهرة، ولكن شعري طال كثيرا وأصبح يضايقني جدا، ويمثل عبئًا فـوق رأسي؛ لذا قررت أن أحلقه..

والحلاقة في السفينة شكلها غريـب جـدا.. البحـار الصغير (محمد علي عيسى) الذي يعمـل فـي قسـم فـرز الأسماك كان صبي حلاق في المحلة الكبرى، ثم هجر مهنته وجاء ليعمل بحارا، ولكنه في الوقت نفسه لم ينس أن يحضر معه على السفينة أدوات الحلاقة ليعمل حلاقًا متجولاً –كالبائع السريح- في وقت فراغه من ورديـات السـمك!! (محمـد عيسى) لو عنده محل في القـاهرة أو الإسـكندرية لكانـت تسعيرة الحلاقة عنده –شعر وذقن- شـان علـى الأكثـر،

وبالبقشيش كمان.. لكنه يحلق لنا على السفينة لمستوى الضباط والمهندسين –في مقابل علبتين سجاير كبيرتين ثمنهما ٤٦ قرش.. يعني يحلق أغلى من رشدي أباظة وأحمد مظهر، ولو أنني كنت أدفع هذا المبلغ في القاهرة لأقامت لي نقابة الحلاقين تمثالاً في ميدان عام يمر عليه الحلاقون لتحيته كل صباح وكل مساء.. ومع ذلك فقد ظللت أياما أرسل في طلب (محمد عيسى) ليحلق لي، فلا يحضر ولا يسأل عن صحة سلامتي.. وعنده حق، هو أنا حاروح فين وليس على السفينة حلاق غيره!؟ وهو يعرف جدا أنني سأكون في انتظاره وتحت أمره في أي وقت يشاء فيه هو أن يتنازل ويحضر إلي.. أنا اللي تحت أمره وليس هو اللي تحت أمري؛ لأنه هو محتكر الصنف والمتحكم في رءوس العباد على ظهر السفينة، وهو الوحيد الذي يحني له القبطان رأسه –ليحلق طبعا!!- أنا المضطر إليه، لكن هو: بناقص زبون من الـ٨٣ فردا الذين على السفينة، الذي يحلق كل واحد منهم مرتين على الأقل في خلال الرحلة الواحدة، يعني أنه لن يخسر كثيرا، ولا حتى قليلاً، إذا اتقمصت أنا ولم أحلق!!

وفي اليوم الرابع عثرت على (محمد عيسى) بعـد أن (سقت عليه) السفينة كلها تتوسط لي عنده حتى يحضر ليحلق لي، حتى جاء أخيرا وحلق لي حلاقة أقـرب إلـى حلاقـة الرصيف.. أدواته عبارة عن مقص قماش ومشـط مكسـر وماكينة ضخمة ولا ماكينة الحلاقة للخيل.. ولم يحلـق لـي ذقني لسبب بسيط جدا، هو أنه: ليست لديه فرشاة حلاقة، فقط فرشاة!! وحمدت ربنا على ذلك؛ لأن الموسي التي كانت معه كان واضحا عليه أنه يستعملها في تنظيف السمك أحيانًا!!

## تشنيعة أخرى

سمعتها عن (عباس) كبير الضباط بمناسبة كثرة تدخله في كل شيء حتى ما ليس له علاقة به وليس في اختصاصه، وعن إصراره ألا يحدث أي شيء علـى السـفينة إلا بعـد استئذانه.. التشنيعة تقول: إن أحد الضباط المهندسين زهـق من شكل شعره الذي يمشطه إلى الوراء دائمـا، فـرأى أن يفرق شعره على جنب، وفعل ذلك فعلاً.. وفـي أول مـرة يصعد إلى صالون الضباط بتسريحة شعره الجديـدة فـوجئ بـ (عباس) أمامه، وفوجئ (عباس) أيضا بشكل المهندس قد تغير فسأله في دهشة: (أللا، إنتا فرقت شعرك يـا فـلان)!؟

فاضطرب المهندس وأجاب مدافعا عن نفسه: (أصلي سـألت على سيادتك لقيتك نايم، فقلت أفرق شعري وبعـدين أبقـى أقولك)!!

وكانت قد لفتت نظري في أول يوم لي على السـفينة شخصية كبير الضباط (عباس السيد جاد الله) (٣٧ سـنة).. أحسست للوهلة الأولى أن فيها شيئًا غريبا، قطعا سيظهر لي مع الأيام.. فهو فخور بنفسه جدا، سعيد بخبرته البحرية التي لا يمل هو نفسه من الكلام عنها والتفاخر بها، وادعائه بأنـه الكل في الكل، وأنه الوحيد اللي بيفهم، وأن كل النـاس مـا عداه –وما عدا القبطان إذا كـان القبطـان موجـودا!!- لا يفهمون شيئًا.. له ضحكة عالية مجلجلة متقطعة كأنها طلقات مدفع رشاش انطلق غلط في يد عسكري غشـيم، تسـمعها السفينة كلها كأنها آتية من مكبر صوت مفتوح على الآخر.. وحين نسمع صوت ضحكة (عباس) من أي مكان نعرف أنه أطلق نكتة جنسية مكشوفة يضحك لها هو نفسه أكثـر ممـا يضحك لها الذين يحكيها لهم، كأنه هو لم يسمعها من قبل!!

وقد قال (عباس) لضباط السفينة فـي بدايـة رحلتنـا معهم: (أهو كل ما أشوف الصحفيين قدامي مش حايسـمعوا

مني غير نكت أبيحة وحكايات أبيحة، أما أشوف حـايعرفوا يكتبوا عني إيه..!! وفعلاً، كان حديث (عباس) الوحيد أمامنا عن مغامراته وغزواته النسائية التي حدثت له فـي بيـوت الدعارة في نابولي ومرسيليا وجنوا، التي يقول (عبـاس) إن قبضة يده تركت آثارا على جدرانها!! ولم يكـن يمـل مـن ترديد نكاته الجنسية الصارخة التي كان يبـدو واضـحا أن أغلبها مؤلف وقت روايته لها – من باب التأليف الفوري-.. وعن نفسه يقول (عباس) إنه حين يذهب لزيارة قريته فـإن أخواله وأعمامه يقفلون بيوتهم في وجهه ولا يسمحون لبناتهم بالخروج طالما (عباس) موجود في القرية؛ لأنهم يعرفون أنه لا يتورع عن شيء!! ويحكي أيضا عن مغامراته مع بوليس الآداب في الإسكندرية الذي كان معتادا على مهاجمة الشـقق التي كان يسكن فيها (عباس) وهو أعزب، و.. و.. إلى آخر هذا الكلام الذي كنت أظنه من صنع خياله وحده، لـولا مـا رأيته بعيني حين التقينا بعد ذلك –في رحلة بعد هذه الرحلة- أنا و(عباس) في أحد مواني إسبانيا وشهدت بنفسي مغامراته مع بنات الليل هناك، وكيف أنه – للغرابة فعلاً- يأخذ منهن

أكثر مما يعطي: سهرات مجانية وولاعات ذهبية، بل ونقودا أيضا!!

وكانت أول مرة لفتت نظري فيها محاولـة (عبـاس) فرض سلطانه –بحق أو بغير حق- على كل فرد في السفينة حين طلب –بعد بداية الرحلة بيومين فقط- أن نعقد اجتماعـا أنا وزميلي المصور (عبد المنعم) و(عباس) والقبطان لتنظيم عملنا الصحفي على السفينة (!!) وطلب (عباس) فـي هـذا الاجتماع منا ألا نتحرك خطوة واحدة على السفينة أو نـتكلم مع أحد أو نصور شيئًا –أو أحدا!!- إلا بعد استئذان (عباس) وفي وجوده وتحت إشرافه هو شخصيا!!.. وكانـت حجتـه الغريبة –والظريف أيضا- في ذلك الوقت هي التـي لفتـت نظري إليه، فقد قال: إنه يفعل ذلك لمصلحتنا (خوفًا مـن أن يشتمنا البحارة أو يقلوا أدبهم علينا أو يضربونا بالسكاكين)!! وضحكت في داخلي من صديقنا الذي يتصور أننا هبل وسذج وجايين من كركر مثلاً.. ولم نعارضه، ولكننا نزلنـا إلـى البحارة –بدونه ودون أن يعلم هو- واختلطنا بهـم وسـهرنا معهم وعرفناهم على طبيعـتهم أكثـر ممـا عـرفهم هـو، وأصبحوا أصدقائي وأصدقاء (عبد المنعم) ولم تظهر سكاكين

ولا خناجر ولا سيوف ولا طبنجات ولا مدافع رشاشة، ولم يشتمنا واحد منهم، بالعكس، وجدنا فيهم أخلاقًا وأدبا وتهذيبا لم نجده في بعض كبار الضباط!!.. ولما رأى (عباس) أننا استطعنا الوصول إلى البحارة بسهولة رغم تعليماته لجأ إلى طريق آخر: فنبه على البحارة أنفسهم بألا يتصل أحد منهم بنا، مهددا إياهم بالويل والثبور وعظائم الأمور!! ولكننا رغم ذلك أيضا كنا نتلقى دعواتهم كل ليلة للسهر معهم.. وبعد أسبوعين فقط من بدء الرحلة كنا نعرفهم واحدا واحدا بالاسم، ويعرفونني جميعا!! وأثار ذلك (عباس) فقال لي خلال مناقشة بيني وبينه كان القبطان (داود) موجودا خلالها إنه – أي: عباس- ككبير ضباط السفينة له سلطات مطلقة على كل من فيها، حتى علينا نحن الصحفيين، وأن من هذه السلطات أن يفتش على نوتة مذكراتي التي أكتبها عن الرحلة، ويقرأ ما فيها في أي وقت يشاء!!.. وهنا وجدت نفسي مضطرا إلى أن أذكره بأنه يبدو أن طول بقائه في البحر مدة طويلة قد أنساه نفسه وحدود سلطاته، وأنه إذا كان يستطيع أن يخيف البحارة بشراسته وفظاعته وتهجمه، فليس كل من ركب السفينة بحارا تخيفه شراسة عباس، وأنني –ببساطة جدا- إذا

كان هو شخصيا يتصور أن ذلك صحيح، فإنني سأنشره على لسانه في موضوعاتي عن الرحلة حتى يقرأه المسئولون في الشركة وفي مؤسسة الثروة المائية التي تتبعها الشركة، وفي وزارة التموين التي تتبعها المؤسسة التي تتبعها الشركة!! فإذا أقر المسئولون وجهة نظره كان بها، أما إذا لم يقروها فاللهم إني قد بلغنا، والتصرف بعد ذلك متروك لهم!!

ولم يجد (عباس) بعد ذلك أمامه إلاّ أن يهددني –في حضور القبطان (داود) أيضا- بأنني إذا نشرت في موضوعاتي شيئًا عنه لا يعجبه، فإنني سأجد في اليوم التالي من ينتظرني على باب بيتي في القاهرة ليضربني علقة ترقدني شهرا في المستشفى!!

فيا أيها السادة القراء: إذا انقطعت عن الكتابة في المجلة في الأسبوع القادم، فاعلموا أنني قد وقعت بين أنياب (عباس جاد الله)، وابحثوا عني في مستشفيات القاهرة!!

## حكايات البحر

الظريفة أو المثيرة هي حديث كل سهرة على السفينة، فإن عليها ضباطًا ومهندسين يعملون معا على نفس السفينة

لأول مرة، وفيها ضباط ومهندسون، هذه الرحلة هي بداية عملهم في البحر على الإطلاق.. وعليها أيضا اثنان سميعة لا يملان من سماع حكايات البحر وتسجيل الطريف والمثير منها، هما أنا وزميلي المصور (عبد المنعم)..

مثلاً، وهذه سمعتها من المهندس (ثروت أسعد) مساعد كبير مهندسي السفينة، الذي قال لي: إن الشخص الذي ينزل إلى البر بعد رحلة طويلة في البحر، يشعر وهو يمشي على الأرض بأن الأرض تتمايل من تحته كما كانت السفينة تفعل، ويمشي في الشوارع مخضوضا من الناس الكثيرين والزحمة التي نسي شكلها وطريقة اختراقها.. ويمشي –على الأرض- مسافة قصيرة جدا ويتعب؛ لأنه على السفينة تكون المشاوير التي يمشيها بسيطة جدا ومحدودة: ما بين القمرة التي ينام فيها وصالون الطعام ومكان عمله.. وكلها على بعد أمتار تعد على أصابع اليد الواحدة..

وحكاية سمعتها من (حمدي حافظ) الضابط الإداري، عن حسن التصرف والشجاعة وسرعة البت في مواجهة المآزق في البحر.. فقد تجاوزت السفينتان (الغردقة) و(برنيس) في وسط المحيط في رحلة سابقة، وكانت

(الغردقة) متجهة إلى منطقة الصيد وعليها بحار اسمه (بندق) مريض جدا ومطلوب نقله إلى المستشفى فورا، وعليها أيضا خبير دانمركي اسمه (كرو) انتهت مدة عمله على (الغردقة) ومفروض أن يعود إلى بلاده، في الوقت الذي كانـت فيـه (برنيس) قد أنهت رحلتها ومتجهة إلى ميناء (لاس بالمـاس) في جزر الكناريا حيث يوجد مستشفى.. هذا بالإضافة إلى أن على (برنيس) أيضا طبيب سيرعى (بندق) المـريض حتـى يصل إلى المستشفى.. ورغم أن الأطلنطي كان هائجـا فـي ذلك الوقت إلى أنه كان من الضروري نقل البحار المـريض من (الغردقة) إلى (برنيس)، فأنزلت (الغردقة) قاربـا مـن قوارب النجاة نزل فيه (بندق) المريض، والخبير الدانمركي، و(عباس) كبير الضباط، و(إبراهيم شحاتة) باشريس البحارة، و٦ آخرون من البحارة أيضا للتجديف.. وحتـى لا يضـيع القارب مع أمواج الأطلنطـي الهائجـة، ربطتـه السـفينة (الغردقة) –التي نزل منها- بحبل قوي طويل ظلت ترخيـه للقارب شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى (برنيس) على بعـد قليـل منها، وحتى تسحب (الغردقة) قاربها بالحبل نفسه بعد مهمـة القارب وتوصيل من عليه إلى السفينة الأخرى.. ولما اقترب

القارب من (برنيس) أرادت هي أن توفر على من فيه العبء بالاقتراب منه قليلاً، ولكن كان نتيجة هذا الاقتراب أن دخلت السفينة بمقدمتها فوق الحبل الذي يربط القارب بسفينته، وهي ما زالت مندفعة إلى الأمام.. وتأزم الموقف وأصـبح يهـدد بالخطر، وبأن ينزلق القارب –الذي أصبح في هذا الوضـع مكتفًا بالحبل الذي يربطه بسفينته- تحت (برنيس) غاطسا في الماء ويغرق كل من فيه.. وأمام الخطـر الزاحـف الأكيـد صرخ الضابط (عباس) بعنف في الباشريس (إبراهيم شحاتة) بأن يقطع الحبل فورا، وعلى الفور مزق (إبـراهيم) الحبـل بخنجره، لينفصل القارب عن سفينته، مفضلين أن يقعوا تحت رحمة أمواج المحيط الهائج عن غرق مؤكد تحت (برنيس)!!

وبادرت (برنيس) بعد ذلك بإنقـاذ الموقـف والتقـاط القارب ومن فيه بسرعة قبل أن تجـرفهم أمـواج المحـيط بعيدا!!

## وحكاية أخرى

سمعتها من (عباس) نفسه، عن بحار ادعى المـرض والسفينة راسية في مينـاء (لاس بالمـاس)، حتـى يـدخل المستشفى في الميناء الظريف المغري ولا يذهب مع السفينة

للصيد.. وأراد البحار أن يختار مرضا عويصـا لا يعـالج بالأسبرين ولا بالمسكنات ويضمن لـه دخـول المستشـفى، فادعى أنه فجأة فقد السمع وأصيب بالخرس معا. وأصبح لا يتكلم ولا يسمع شيئًا!! وصدقه (عباس) فأخذه وذهب به إلى المستشفى في (لاس بالماس) ليفحصه الأطباء هناك، وحـين لاحظ البحار الاهتمام الشديد الذي أبـداه الأطبـاء الإسـبان لحالته أراد أن يستثير اهتمامهم أكثر، فتصـنع أيضـا أنـه أصيب بالتشنج وسقط على الأرض متخشـبا!! وهنـا شـك (عباس) في الموضوع كله، فمال على البحار في رقدته على الأرض وهمس في أذنه باللغة العربية التي لا يفهمها الأطباء الأسبان قائلاً: (أنا حاسندك لغاية ما تقف على حيلك، فتمشي تتطوح لغاية ما توصل عند باب الأوضة، وبعـدين تعمـل نفسك اتشنجت تاني وتترمي على الأرض جنـب البـاب)!! ونفذ البحار تعليمات (عباس).. فقام وسار وهو يتطوح حتى باب الحجرة حيث سبقه (عباس)، وقبل أن يرمي نفسه علـى الأرض مرة أخرى كان (عباس) يتلقاه بصفعتين مفـاجئتين عنيفتين على وجهه جعلتاه يصرخ ناطقًا: (آي) مـن الألـم والمفاجأة!! فسحبه (عباس) من يده وعاد به إلى السفينة، فما

دام قد سمع همس (عباس) في أذنه فهو ليس أصم، ومـا دام قد صرخ من الألم فهو ليس أخرس!! ويبقى ربنا قـد شـفاه والحمد لله..!!

ومن حكايات البحار أيضا حكاية سمعتها من (محمود سامي البرقي) ضابط ثانٍ السفينة، وقعت له وهو يعمل على سفينة البضائع المصرية (اللاذقية).. فقد كان على السفينة أن تنقل شحنة من ميناء هامبورج بألمانيا، وعنـدما بـدأ نقـل الشحنة بالأوناش من رصيف الميناء إلى سطح السفينة لاحظ عمال الشحن المصريون أنها موضوعة في صناديق كرتون كبيرة محكمة الإغلاق والربط جيدا، بحيث لم يسـتطيعوا أن يتبينوا نوع الشحنة، وماذا يوجد بداخل الصـناديق.. وأثـار ذلك فضولهم، فتعمدوا أن يجعلوا صندوقًا منها يسـقط مـن الونش بعنف على أرضية السفينة فيتحطم وينفـتح وتتبعثـر محتوياته على الأرض متناثرة في كل مكان، وكانـت هـذه المحتويات عبارة عن: باكوات أنيقة من الشيكولاتة الألمانية الضخمة ذات الشكل المغري!! انقض العمال على الشيكولاتة الألمانية المحرومين منهـا فـي البحـر.. ولمـا كـانوا لا يستطيعون أن يأخذوا منها شيئًا معهـم إلـى قمـراتهم وإلا

تعرضوا للتفتيش من ضباطهم، فقد انهالوا على الشـيكولاتة أكلاً حتى ملئوا بطونهم منهـا وهـم سـعداء ومسـتمتعون ومتلذذون!!

ولم يتم شحن باقي الشحنة في ذلك اليوم، فقد أصـيب كل العمال بإسهال شديد جدا لم يتمكنوا معه مـن مواصـلة العمل، وازدحمت بهم دورات المياه السفينة، بالدور، واحـدا بعد آخر!! فقد كانت الشحنة: شيكولاتة طبية ملينة!!

## كنت طوال

الرحلة أتساءل: ما الذي يمكن أن يغري أحدا بالعمـل على سفن الصيد هذه، لما في العمل فيها من مشـقة بالغـة، بالإضافة إلى طول مدة الرحلة طولاً مبالغًا فيه يصـل إلـى نحو ٣ شهور ونصف للرحلة الواحدة، ولم يقل في أية رحلة سابقة عن ٧٥ يوما!؟.. البحارة مرتبـاتهم بسـيطة جـدا لا تتناسب مع المجهود الكبير الذي يبذلونه كل يوم في عمليات الصيد المختلفة، فهي تتراوح بين ١٥ جنيها نـزولاً إلـى ٧ جنيهات!!.. وبالنسبة للضباط والمهندسين أيضـا المرتبـات قليلة نسبيا، فإذا استثنينا القبطان الذي يصل مرتبه إلى ١١٥ جنيها، وكبير المهندسين (حنا يعلم الله) ومرتبه ٩٣ جنيهـا،

فإن المرتبات بعد ذلك تتراوح بين ٣٨,٥ جنيه صعودا إلـى ٦٠ جنيها!! ويكفي الشحططة والبعد عن الأهـل والمدينـة وعدم الإطمئنان إلى أخبارهم مدة طويلة.. فما الذي يمكن أن يغري أحدا بأن يترك الحياد في المدينة ليقبـل علـى عمـل صعب كهذا، بمرتبات وأجور بسيطة –على الأقـل بالنسـبة للبحارة- كهذه!؟

وأجاب القبطان (داود) على تساؤلي بأن هناك ميزتين أخريين لم أكن أعرفهما، الأولى هي أن كل من على السفينة، بالإضافة إلى أن الشركة تتحمل كل نفقات الطعـام بالنسـبة إليهم أثناء الرحلة –وذلك ليس معمولاً به في السفن الحربيـة مثلاً- فإنه يصرف لهم ٣٠% من مرتبـاتهم زيـادة كـأجر إضافي عند خروج السفينة إلى البحر.. أما الميـزة الثانيـة، وهي الأهم، فهي أن القيمة التي تباع بها شـحنة السـفينة – وهي تصل عادة إلى نحو ٧٠ ألف جنيه- يخصـص منهـا نسبة ٨,٥% -نحو ٦٣٧٥ جنيها- لتوزيعه، بنسـب معينـة محددة معروفة، على كل أفراد السفينة ابتداء مـن القبطـان حتى أصغر البحارة.. وهذا المبلغ يقسم إلـى ١٠٠ جـزء، يسمى كل جزء بنط، وكل بنط يساوي ٦٤ جنيها.. فيحصـل

القطبان على ٤,٢ بنط، وكبير المهندسين على أربعة أبنـاط، وكبير الضباط على أربعة أبناط إلا ربعا، والمهندس الثـاني على بنطين وربع، ومهندس الكهرباء على بنطـين فقـط.. وهكذا نزولاً بالتدريج حتى يحصل كل واحد من البحارة على بنط واحد تقريبا.

## وبمناسبة الأكل

على السفينة.. ففي الحقيقة أن الأكل يعتبـر ممتـازا، سواء من ناحية النوع أو من ناحية الكمية.. فبالسطح مطـبخ ضخم مجهز يقدم وجبات الغداء والعشاء مطبوخة وسـاخنة كل يوم.. وجبات كاملة وأصناف أقل ما يمكن أن يقال فيهـا أنها لا تقل عما نأكله في بيوتنا كل يوم، إن لم تزد أحيانًـا: أرز ومكرونة وخضار ولحم وفراخ وسمك، وفتـة بـالعيش الفينو!! طبعا لم يكن يسري علينا نظام منع اللحم ٣ أيام فـي الأسبوع.. فقد كان اللحم يقدم لنا ٦ أيام في الأسـبوع حتـى زهدناه ومللناه، وفي أواخر الرحلة كنا نتركه ولا نأكله!! أما صنف الحلو فكان: فاكهة الموسم وقت مغادرتنا للإسـكندرية في أول مايو، وكانت البرتقال، فلما استهلكنا رصيد البرتقال بعد أسبوعين في البحر تغير صنف الحلو فأصبح المطبخ –

أو (الوجاء) بلغة أهل البحر- يقدم لنا تورتـة أو جـاتوه أو جيلي أو كستر أو أرز باللبن أو كومبوت أو شربات.

والإفطار دائما يتكون من أصناف متعـددة.. عـدها الباشمهندس (حنا يعلم الله) مرة على الإفطـار فوجـدها ١١ صنفًا، فثار على هذا الإسراف والتبذير، وأقسم أن المربى لم تدخل بيته منذ سنوات، وأنه لا يذكر آخر مـرة أكـل فيهـا الزبد؛ لأن ذلك كان منذ زمن بعيد!! ولعل ثورته هذه علـى الإسراف كانت هي السبب في أنه كان يأخذ معه وهو قـايم من على المائدة طبق المربى وطبق الزبدة ليضـعهما فـي ثلاجته الخاصة في قمرته!!

## ثروت.. المهندس

الثاني للسفينة.. احتفلنا بعيد ميلاده اليوم.. كان احتفالاً دمه خفيف: جردل ماء دلقنا فيه زجاجات الشربات، ووضع البحار (ماركو بولو) ذراعه في جردل الشربات لتقليبه، ثـم شربنا جميعا -من الجردل- في صحة ثروت وكل سنة وهو طيب!!.. وعزق لنا فني التبريد الشاب (ماهر حسين) علـى العود المهكع اللي جايبه معاه على السفينة للدفاع عن نفسه به والله أعلم، عزق فينا -على فكرة: كلمة (عزق) هنا صحيحة

وليست غلطة مطبعية!!-.. (ماهر) كان يعلـم أننـا مـش حانكسفه؛ لأنه أولاً شاب طيب ومهذب، وثانيـا لأننـا فـي عرض الأطلنطي وهو مستفرد بينا: حانروح منه فين؟ وإننا –أيضا- مضطرون إلى تشجيعه بحكم الزمالة في الأزمة – أقصد في السفينة!!- وفرشنا بطانية كبيرة على الأرض فـي العيادة، والتففنا جميعا حول تورتاية كبيرة صنعها عم (علي البنا) باشطباخ السفينة.. قعدنا على الأرض، فليس في العيادة غير كرسيين فقط، ولما لم تكن هناك أطباق صغيرة فقد أخذ كل منا نصيبه من التورتة في كف يده وأكله كـده، بـدون شوكة.. وبحثنا في السفينة حتى عثرنا على زجاجـة بيـرة واحدة شربها (ثروت) وحده على اعتبار أنه هـو المحتفـى به.. جاءت قعدة الباشمهندس (يعلم الله) إلى جـانبي، فنظـر بعينه الصافية إلى قطعة التورتة التي في يدي وابتسم بحسرة شديدة وهو يقول لي: (تعرف يا أستاذ حسين إن الحتة بتعاتك طلعت أكبر شوية من الحتة بتاعتي)!! بعد دقائق قليلة كنـت أنحني على حاجز السفينة وأفرغ من بطني قطعـة التورتـة التي أكلتها كلها!!

مفعوله أكيد الباشمهندس (يعلم الله)!!

## أكملنا اليوم

الـ ١٠٠ طن الثانية من الصيد.. يعني ثلث الشحنة المطلوبة وصل، وباقٍ الثلثان، وربنا يسهل ويعجل بالباقي.. فكل طن سمك زيادة يقترب بنا خطوة من رحلة العودة إلى الإسكندرية.

وأخذنا الحماس احتفالاً بالـ ١٠٠ طن الثانية، فقضينا سهرة الليلة حتى قرب الفجر في صيد سمك (اللوفار) كبير الحجم الذي يكون قريبا من سطح الماء أثناء الليل والذي تزن السمكة منه أكثر من ٥ كيلو جرامات، اصطدناه بالسنانير اليدوية: حبل متين من خيوط النايلون في آخره سنارة من الصلب.. (عبد المعبود) أخصائي الأسماك و(عبد الوهاب) أخصائي التبريد و(جاد) أخصائي الصيد وزميلي المصور (عبد المنعم) و(ماركو بولو) البحار والباشمهندس (حنا يعلم الله) و(زكريا) فني الديزل و(بهجت) الباحث و(عم عبده) الطباخ و(الوكيل) البحار، وقفوا جميعا على حاجز السفينة وكل منهم سنارته في يده يحاول أن يتفوق على الآخرين في عدد السمك (اللوفار) الذي يصطاده.. للغرابة الشديدة: الشخص الوحيد في المجموعة

الذي ليس له علاقة بالصيد إطلاقًـا كـان أكثـرهم توفيقًـا ونجاحا: المصور (عبد المنعم طاهر) اصطاد وحده أكثر من ٣٥ سمكة.. (زكريا) و(عبـد المعبـود) و(مـاركو بولـو) و(الوكيل) و(جاد) كانوا موفقين.. أما (عبد الوهاب) مهندس التبريد فكان فاعل خير بالنسبة للسمك!! وعن الباشـمهندس (يعلم الله) فيبدو أنه كان لديه في ذهنه مشروع لتغذية أسماك المحيط بواسطة الطعم الذي يلقيه في سنارته، فلم يفـتح الله عليه بسمكة واحدة، فلما غُلُب ولم يصطد شيئًا صار ينتظـر أن تغمز سنارة أي واحد من الواقفين حولـه ليجـري إليـه ويسحبها معه –من باب (وتعاونوا)- وهو يصيح بي: (شايف يا أستاذ حسين.. سجل دي عندك)!!

وانتهينا من معركة صيد (اللوفار) قرب الفجر، بعد أن اصطادنا ١٨٠ سمكة ضخمة الحجم: خطوة صغيرة تقتـرب بنا من الإسكندرية!!

# الفصل الثامن

## (جرينك)

## تحاول الانتحار..

## فإذا جاء

الليل والسفينة راسية والبحر هادئ ساكن والعاصفة غائبة، فكأن السفينة فندق عائم.. لا تكاد تشعر بأنك في سفينة إلا من اهتزازها –الخفيف جدا غير الملحوظ- بين الحين والآخر، ومن صوت زن مولد الكهرباء الذي يضيء السفينة ليلاً ونهارا باستمرار.. هي كالفندق الفخم التأسيس والأثاث، الفقير الإمكانيات: ليس هناك أحد يخدمك اللهم إلا السفرجي وقت الطعام.. وفي الوقت الذي لا تجد فيه أبسط الطلبات، كما الشرب مثلاً، تجد أشياء نادرة في المحيط، كالفراخ والجيلاتي والجاتوهات والحلوى والجيلي.. الفرق الوحيد بين السفينة وبين الفندق هو أنك في السفينة محاصر بالماء من جميع الجهات، فلا تستطيع أن تغادر السفينة ولو خطوة واحدة أو لدقيقة واحدة تتمشى فيها خارجها أو حولها.. كأننا في معتقل عائم محكوم علينا فيه بالسجن لمدة ٣ شهور متصلة!!

أعتقد أن (برناردشو) كان هو الذي قال: (الفرق بين السجن والسفينة هو أن السجن غير معرض للغرق)!!

## هل جربت

مرة أن يجعلك القدر لعبته وتسليته لمدة يوم كامـل!؟ هل جربت أن يعاندك القدر وينزل بكل ثقله وهزاره السخيف على أعصابك حتى يجعلك على شفا حفرة من الانهيار، ثـم يفرج عنك قبل أن تنهار تماما!؟ هل جربت أن يطبق أحـد بيديه معا على عنقك ويخنقك حتى تبدأ تشعر بأن روحك قـد بدأت تطلع في إيده، ثم يرفع يديه عنك في اللحظة الأخيرة!؟ هل جرب هذه المشاعر كلها مجتمعة!؟

نحن –أهل سفينة (برنيس)- جربناها جميعا اليوم، فقد جعلنا القدر اليوم لعبته وتسليته طول النهار.. ثلاث مـرات في يوم واحد تطبق علينا الكارثة من كل جانب وتحاصـرنا وتضغط على أنفاسنا حتى لنشعر أن لا مفر لنا منها، ثم فـي اللحظة الأخيرة، تمر الكارثة من أمـام أعينـنـا المتصـلبة المتجمدة، لو كانت قد ظلت لحظة أو تأخرت ثانيـة واحـدة لرحنا بلاش في وسط المحيط الهائل الرهيب الغامض الـذي أعلن غضبه علينا اليوم بطوله..

وقد بدأت كوارث اليوم بدري، منذ السادسة صـباحا.. في ذلك الوقت المبكر كانت السفينة قد بدأت الصيد منذ نحو

ساعة، والشبكة العملاقة المربوطة خلف السفينة بسلكين من الصلب القوي المجدول تجري وراء السفينة زاحفـة علـى أرض قاع المحيط تغترف من أسماكه القريبة مـن القـاع.. وفجأة، دون سابق إنذار، يعلو صوت فرقعة ترتج لها السفينة كلها في عنف، ويكاد توازنها أن يختل.. فقد فرقع أو انقطع في الماء واحد من السلكين الصلبين اللذين يمسكان بالشـبكة ويربطانها إلى السفينة.. وتنحرف الشبكة التي نجرها وراءنا على قاع المحيط على عمق أكثر من ٢٠٠ متر تحت سـطح الماء، لتصبح كلها مشدودة بسلك واحد فقط قطعا لن يقـوى على الاحتفاظ بالشبكة طويلاً، فما بالك بإعادتها إلى سـطح السفينة.. وعلى ذلك فقد أصبحت الشبكة الوحيدة التي معنـا، الجديدة التي اشتريناها وسط المحيط منذ أقل من أسبوع واحد –وثمنها ألف جنيه كامل- في حكم المفقـود.. هكـذا قـرر (بوريا) خبير الصيد الروسي الذي معنا على السـفينة، فقـد قال: إن الشبكة قد أصبحت (كسورا) وانتهى أمرها!!

ولكن القطبان (داود) عمل بالمثل الشـعبي: (ضـربوا الأعور على عينه، قال لهم: خسرانة خسـرانة)، وبمـا أن الشبكة خسرانة خسرانة أو ضايعة ضايعة، فلا بـأس مـن

محاولة يائسة لاستعادتها يستعرض فيها حرفنتـه وأسـتذته كرجل بحر قديم، و(يا صابت، يا اتنين عور).. وفعـلاً بـدأ محاولة ناعمة هادئة لجر الشبكة من المـاء بشـويش جـدا وبالراحة جدا، كأنه يربت عليها ويهدئها، ودار بالسفينة كلها حول نفسها دورة بطيئة هادئة كاملة، حـول الشـبكة التـي استقرت بكل ثقلها في قاع المحيط لا يربطهـا بالسـفينة إلا حبل وحيد من الصلب المجدول.. وخيب الله ظـن الخبيـر الأجنبي (بوريا) وبدأت الشبكة تستجيب أمام الشـد الخفيـف الهادئ، وتعوم صاعدة مع الماء وراء السفينة، حتـى بـدت تباشيرها تقترب من سطح الماء فعلاً.. وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هي عمل محاولة أخرى – شديدة الخطورة- لـربط السلك الصلب المقطوع بالشبكة من جديد، ولو ربطًا مؤقتًـا؛ حتى يمكن سحب الشبكة كلها إلى سطح السـفينة وإصـلاح السلك المقطوع إصلاحا كاملاً.

ودون انتظار لتعليمات القبطان، قفز بحـار الصـيد (محمود الطير) كبهلوانات السيرك على السلك الصلب الواحد المربوط به الشبكة، وراح يحاول ربطهـا بالسـلك الآخـر المقطوع بينما القبطان (داود) يصيح فيه مذعورا مرعوبا وقد

أخذه الفزع: (ارجع يا طير.. ارجع يا مجنون.. ارجع باقول لك).. و(الطير) ولا هنا، يمشي على السلك المشـدود فـوق سطح المحيط بين السفينة والشبكة كبهلوان محتـرف، ولـو اختل توازنه أو انزلقت قدمه لوصل إلى قاع الأطلنطي فـي ثوان قبل أن يستطيع أحد أن يفعل أي شيء، ولأصبح فـي غمضة عـين غـذاء شـهيا لأسـماك المحـيط المفترسـة المتوحشة!!

ولكن (الطير) نجح فعلاً في إعادة توصـيل الشـبكة بسلكها الصلب المقطوع، وانتهت مهمته الخطرة التي تطوع لها دون أن يطلب منه أحد ذلك، وبدأ في العودة إلى سـطح السفينة، لكنه ما كاد يطمئن إلى أنه وضع قدمه على سطحها الحديدي الأملس المنزلق، حتى فقد حذره واحتراسه فانزلقت قدمه واختل توازنه، وانقلب رأسا على عقب.. سـقط علـى كتفه بعنف على سطح السفينة انكسـرت ذراعـه اليسـرى وتمزقت عضلات كتفه.

وهكذا انتهى العمل البطولي الذي قـام بـه (محمـود الطير).. قد أنقذ الشبكة من الضياع فـي المحـيط، ولكنـه أصاب نفسه وكاد يضيع نفسه بسـببها.. وذكرتنـي حادثـة

(محمود الطير) – والقياس مع الفارق طبعا - برواد الفضاء السوفييت الذين صعدوا إلى الفضـاء ومشـوا فيـه دون أن يصابوا بسوء، ثم ماتوا في حادثة طائرة عادية صغيرة!!

ولم نكد نلتقط أنفاسنا ونهدأ قليلا بعد حادثة (الطيـر) ونطمئن عليه بين أيدي الطبيب (رفيق) حتى جاءت الكارثـة الثانية.. ولست أدري بالضبط ما هي حكايتنا مع سفن الصيد البولندية أو حكاية سفن الصيد البولندية معنا.. فقرب الظهـر كانت السفينة البولندية (جرينك) تأتي من بعيد مـن الاتجـاه المقابل لنا، هي في طريقها ونحن في طريقنا، والمحيط واسع يتسع من السفن لألاف تسير كلها متوازية جنبا إلى جنب دون أن يحدث شيء.. إلا أن السفينة (كرينك) ظلت تسير عاديـة في طريقها بعيدة عنا حتى اقتربت منا جدا، وفجأة، ودون أية مقدمات، غيرت اتجاهها لتضع نفسها أمامنا بالعرض، بـلا مناسبة، تماما كأنها تقطع علينا الطريق، وكأنهـا تتعمـد أن تجعلنا نصطدم بها لسبب لا ندريه!!. وتتدربك الدنيا فجأة في غرفة قيادتنا التي كانت ساكنة هادئة منذ لحظـات، ويعلـو صوت القبطان (داود) صارخًا في (سامي البرقي) الضـابط الثاني الذي يمسك بعجلة القيادة: (ستوب أنجن –الضـومان

١٥ شمال- ٢٠ شمال – ٢٥ شمال – سقالا لابانداـ –شـمال للآخر) ومحاولاً تفادي الاصطدام بالسـفينة المجنونـة، ثـم يصرخ في أقرب واحد إليه، وكان هذا الواحد هو أنا: أستاذ حسين اضرب سرينة الإنذار على طول ما تبطلش، اضرب دوغري وما تشيلش إيدك من عليها)!! ويعود ليصرخ فـي (سامي البرقي): (سلو استيرن، هاف استيرن، فول استرين) يريد أن ترجع سفينتنا بظهرها إلى الوراء حتى تبتعد بقـدر الإمكان عن المصيبة التي وضعت نفسها في طريقنـا كمـن تحاول الانتحار أو تريد أن تحدث لنا كارثة معا.. فلو حدث بيننا اصطدام في وسط الأطلنطي هكذا، لغرقت السفينتان معا في لحظات!!

وتنتبه فجأة السفينة (جرينك) علـى صـوت سـارينة الإنذار، فتغير اتجاهها مرة واحدة وبعنف، لتدور حول نفسها نصف دورة كاملة في الماء لتعكس فيها اتجاهها لتصبح فـي الاتجاه المضاد تماما، وتبتعد عن طريقنا ببرود دون حتـى كلمة واحدة ولو باللاسلكي، تعتذر فيها، أو على الأقل تبـرر فيها ما حدث!!

في لحظة مـن اللحظـات تمنيـت – كصـحفي- أن تصطدم السفينتان، حتى أمر بهذه التجربة النادرة التي ينـدر أن يمر بها صحفي، وأعيشها.. وفي اللحظة التالية تمنيت – كإنسان عادي هذه المرة، وكشاب لسه يستحمل كـام سـنة كمان- ألا يحدث ذلك، فإنني لم أجد نفسـي مسـتعدا بعـد للمرور بتجربة الموت غرقًا في قاع المحيط الأطلنطي!!

ونودي للصلاة من يوم الجمعة عند الظهر تماما حسب التوقيت المحلي للسفينة. وكان الناس قد صلوها فعـلاً فـي مصر منذ ٣ ساعات تماما.. ووقف البحـار (أحمـد حـافظ ناصر) إماما وخطيبا وقارئًا للقرآن الكريم.. صحيح تبهدلت قواعد اللغة العربية على يديه بهدلة كبيرة، لكـن والله كـان صوته جميلاً رغم ذلك!!

وبعد الصلاة بدأت، لأول مرة في حيـاتي، أمـارس غسيل ملابسي بنفسي، واكتشفت -الآن فقط- كم هي عملية صعبة وشاقة جدا ومتعبة للغاية، لدرجة أنني منـدهش الآن كيف تقدر عليها السيدات الرقيقـات –أو المفـروض أنهـن كذلك!!- قد استعملت رابسو بيريح ماما، وملأت يدي ثلاث مرات بالمسحوق ووضعته في الماء، ثم ضغطت الملابـس

برفق فماجابتشي نتيجة، ضغطتها بعنف فأصبحت أوسخ من الأول بكتير، والظاهر أنني ليست لدي خبرة عزوبية كافية!! ودخل الزميل المصور (عبد المنعم) علي فوجدني محتاسـا هكذا، فمات على روحه من الضحك على منظري.. وقـال لي: (إيش عرفك إنت بالحاجات دي، أصلك ما جربتش حياة العزوبية.. عنك إنت، أنا حاغسل هدومك مـع هـدومي).. وتطوع مشكورا بغسل ملابسه وملابسي معـا، وغسـلهما، فطلع الغسيل أكثر وساخة.. واتضح أن (عبد المنعم) عنـده خبرة في توسيخ الملابس أكثر مني!!

حين تطول الأيام في البحر وتتشابه، يصـبح تـاريخ اليوم لا قيمة له ولا معنى، إلا بالحدث الـذي وقـع فيـه.. وتصبح الأيام ذات الأحداث هي العلامات الكبيرة التي تحدد بواسطتها باقي التواريخ: (قبل العاصفة بيومين طلعنـا مـن إسكندرية).. (بعد مالطة بـ ٤ أيام كان الجـردل البلاسـيتك حايغرق مننا في البحر الأبـيض هـو والباحـث بتاعـه).. (عبد المعبود اتخانق مع عباس بعد ما وصلنا منقطة الصـيد بيومين).. (أول حريقة حصلت على السفينة كانت بعـد مـا استحميت أنا بيوم واحد)!!

ويصبح الاستحمام حدثًا ضمن الأحـداث والتـواريخ الهامة الواضحة في رحلة سفينة الصيد.. فالاسـتحمام لـيس شيئًا سهلاً ولا هينًا، وإنما يلزمه ماء، والماء يلزمه تصريح، والتصريح يلزمه موافقة كبير الضباط، وكبير الضباط عنـده استعداد يصرح لي بـ ١٠ أطنان سـمك ولا يصـرح لـي بجردل ماء واحد أستحم به.. وعلى ذلك فقد مر شهر كامـل منذ ذلك اليوم السعيد الذي سمح لي فيه (عباس) بجردل ماء زيادة لكي أستحم به، ولم أجد في نفسي الشجاعة طوال هـذا الشهر لأن أطلب ذلك الطلب مرة أخرى؛ حتى لا يشنع علي ويدور يبكبك في السفينة كلهـا بـأنني أطالـب بامتيـازات شخصية!! في الوقت الذي أرى بنفسي فيه أنه حتـى علـى مائدة الأكل لا يوضع ماء للشرب.. لكنني أخيرا اسـتجمعت شجاعتي اليوم – ويعني حايحصل إيه أكتر من اللي حاصل- وقلت لعباس وأنا أضع على فمي ابتسـامة كبيـرة واسـعة متملقة، بأنه قد مضى شهر كامل منذ أن اسـتحممت آخـر مرة: (تصور يا قبطان عباس)!! وفهم (عباس) مـا أقصـده طبعا، وبكبرياء الذي يمنح، نادى على (عطية)، أحد البحارة، وقال له: خليهم في الوجاء (المطبخ) يسـخنوا شـوية ميـة

للأستاذ حسين علشان يستحمى!! هايل، وكمان مية سـخنة!؟ ده إيه الكرم والرضا السامي ده كلـه!؟.. وجـاءت الميـاه الساخنة من المطبخ، وليتها ما جاءت، فقد جاءت في الحلـة الضخمة التي يطبخون فيها الخضـار، واستخسـر الطبـاخ (محمود الحاج أحمد) أن يغسل الحلة قبل أن يسخن فيها الماء لي، فجاءت المياه الساخنة تطفو على سطحها كتل صـغيرة من السمن ومختلطة بها بقايا من خضار وأكل اليوم السابق!!

ومع ذلك: برضه استحميت!!

من بين أهل السفينة الـ ٨٣ يوجد ٢٩ ضابطًا.. مـن هؤلاء الضباط ٦ يعتبرون ضيوفًا، هم: أنا وزميلي المصور (عبد المنعم) والخبراء الأجانب الأربعـة.. أكبـر الضـباط الـ٢٩ عمرا هو الباشمهندس (حنا يعلم الله) كبير المهندسين وعمره ٥٧ سنة، يليه الضابط الرابع (أحمد الصحن) وعمره ٤٦ سنة، فالقبطان (داود) وعمره ٣٩ سنة، فكبير الضـباط (عباس) وعمره ٣٨ سنة، ثم أنا و(عبد المنعم طاهر) وكلانا عمره ٣٥ سنة.. نزولاً بعد ذلك حتى نصل إلى آخر قائمـة الضباط لنجد أن أصغرهم هو المهندس (ناجي نور) وعمره

أقل من ٢٢ سنة، وقبله مباشرة الضابط الثاني (محمود سامي البرقي) ٢٣ سنة..

وقد لفتت نظري منذ بداية الرحلة حكاية الأعمار هـذه حين أعطاني الضابط الإداري (حمدي حافظ) قائمة بأسـماء ووظائف وتواريخ ميلاد طاقم السفينة جميعهم.. وكان الشيء الذي لفت نظري أكثر هو: كيف يحـدث أن يكـون عمـر الضابط الرابع (أحمد الصحن) يقارب الخمسين ليكون أكثـر من ضعف عمر الضباط الثاني الذي لم يـزد كثيـرا عـن العشرين، وأكبر من عمر كبير الضباط، بـل وأكبـر مـن القبطان نفسه!!

ولكنني حين التقيت (بأحمد الصحن) وعرفت قصـته أكبرت فيه كفاحه وإصراره، وإحساسه بأن على الإنسان أن يظل في الصورة ويظل يعمل مادام قادرا على أن يعمـل.. فقد بدأ (أحمد الصحن) حياته في العمل مبكرا جـدا بعـد أن ترك الدراسة وعمره ١٥ سنة، وتطوع في السلاح البحـري بحارا صغيرا، وظل في البحر وفي السـلاح البحـري ٣١ سنة، تدرج خلالها من بحار صغير حتى وصل إلـى رتبـة ملازم أول، وأنجب ٤ أبناء: ولد وبنت في الثانوية العامـة،

وبنت وولد آخرين في المدارس الإعدادية.. ومنـذ عـامين استغنى السلاح البحري عن خدمات (الصحن) وأحاله إلـى المعاش وعمره ٤٤ سنة فقط.. ولم يستسلم (الصحن) لقعـدة البيت ولا لدخله الذي هبط كثيرا بعد إحالته إلـى المعـاش، وبسرعة عثر على طريقة، فعاد تلميذًا من جديد وهو في هذا العمر، وذاكر ليحصل بعد أقل من سنة واحدة علـى شـهادة ضابط أعالي البحار، وجاء ليعمل على سفينة الصيد ضابطًا رابعا دون أن يشعر بأي حرج من أن كل الضـباط الـذين يفوقونه رتبة على السفينة أصغر منه سنًا بكثير، بل وبعضهم (في سن أولاده)!! وهكذا الشجاعة الواقعية البسيطة السـهلة في مواجهة الحياة، و(ما عيب إلا العيب) على رأي المثـل.. وقد استطاع (الصحن) بروحه المرحة وأخلاقـه وإخلاصـه واجتهاده الواضح أن يحصل على إعجـاب القبطـان (داود) وثقته، فكتب في تقريره في نهايـة الرحلـة يطلـب ترقيـة (الصحن) إلى رتبة ضابط ثالث، ورقي (الصحن) إلى هـذه الرتبة فعلاً في الرحلة التالية للسفينة، وفي الرحلـة التاليـة نفسها حدثت ظروف جعلت كبير ضباط السفينة يتخلف فـي ميناء (لاس بالماس) بجزر الكناريا، فرقي إلى مكانه الضابط

الثاني (أحمد عزب حبيش) ورقي (أحمد الصـحن) ليكـون الضباط الثاني للسفينة (برنيس).. فيكون قـد حصـل علـى ترقيتين في رحلة وفي أقل من شهر واحد.. ولكـل مجتهـد نصيب..

الساعة الثانية صباحا وكل شيء هادئ تمامـا علـى ظهر السفينة.. السفينة راسية.. ملقية بخطافهـا فـي وسـط المحيط اللانهائي.. الأضواء التي تعلـن أن السـفينة واقفـة لا تسير مضاءة في أعلى الصواري.. والسفينة نفسها راسية كقصر صغير مضـيء وسـط صـحراء الأمـواج غيـر المحدودة.. السكون عليها تام.. ليس هناك إنسان واحد يبـدو على سطحها ولا من بعيد.. الكل نيـام.. فالسـاعة الثانيـة صباحا، وبعد ساعتين فقط يبدأ يوم صيد جديد وشاق..

صالون الضباط يكاد يكون هو المكان الوحيد الذي فيه حياة في السفينة النائمة.. وحدي في الصالون أجلـس إلـى المائدة المستطيلة الطويلة التي نتناول عليها طعامنا.. أوراقي مفرودة أمامي.. أكتب منـذ سـاعتين مسـتمتعا بالهـدوء والوحدة.. وقع أقدام هادئة على السـلم الخشـبي الـداخلي الصاعد من قلب السفينة حيث قمرات النوم إلى باب الصالون

حيث أجلس.. باشريس البحارة (إبراهيم شحاتة) يطل برأسه من الباب.. يحييني ويدخل.. أرد تحيته ولا أدعوه.. باكتب، مش فاضي، وإبراهيم رغاي ولا أريـده أن يقطـع تسلسـل أفكاري المنطلقة في هذه اللحظات.. يحوم حولي قلـيلاً فـي سكون، ثم يدعو نفسه للجلوس.. يسحب كرسيا إلى جـواري ويجلس.. يبدأ يشاغلني بأسئلته.. أرد عليه في اقتضاب وأنـا مستمر في الكتابة.. يريد أن يطمئن: هل صورته ستنشر في المجلة أم لا؟.. طمأنته.. لحظات قصيرة تمر ثم يبـدأ نـور اللمبات القليلة المضاءة في الصالون يـرتعش ويتـراقص.. يضعف ويزيد.. ثم تنطفئ وتضيء وتنطفئ وتضيء.. ثـم تنطفئ تماما.. تروح السفينة كلها في ظلام دامس.. أصوات تأتي خافتة من مكان ما في قلب السفينة البعيد عنـا وكأنهـا أصوات مدفع رشاش مكتوم.. هـرج ووقـع أقـدام قليلـة متخبطة، ثم..

فجأة: ينفجر الموقف على سطح السفينة..

المهندس النوبتشي (رضا) يخرج جاريا مسرعا مـن غرفة الماكينات وهو يصرخ مذعورا: (حريقة.. حريقة فـي عنبر الماكينات.. صحوا القبطان.. صحوا القبطان..)

وفي ثوان، تشتعل الحياة كلها كلها على ظهر السـفينة النائمة.. الباشريس (إبراهيم شحاتة) يقفز مـن جـانبي فـي الظلام وهو يتخبط ويصطدم ويتعثر في كراسي الصـالون.. عشرات الأشباح تظهر فجأة على سطح السفينة المظلم كأنها كانت تنتظر هذه الإشارة: بالبيجامات وبنطلونات البيجامـات وبالشورتات وبالصدور العارية وحفـاة.. كلهـم منطلقـون بأقصى سرعة نحو مصدر صـراخ المهنـدس المفـزوع.. القبطان يمرق من جانبي في الظلام من أمام باب الصـالون وهو يزرر أزرار قميصه المفتوح جاريا حافيا إلـى غرفـة القيادة بأعلى السفينة.. كبير الضباط (عباس) يظهر أمام باب الصالون بحجمه الضخم عاريا كما ولدته أمه، ثم ينتبه إلـى نفسه فيعود جاريا إلى قمرته ليرتدي شيئًا.. سرينة الإنـذار تعوي فجأة بصوتها المزعج المخيف يشق الظـلام الـدامس الذي غرقت فيه السفينة، لتوقظ من بحارتها من لم يسـتيقظ على كل هذه الضجة، ولتنذر السفن المجـاورة بـأن شـيئًا خطيرا قد حدث على سفينتنا، حتى تخف إلـى نجـدتنا مـع الحرص على عدم الاصطدام بنا في الظلام الدامس الذي خيم

على سطح الأطلنطي بعد أن أصبحت سفينتنا مطفأة الأنـوار تماما.

شبان السفينة من البحـارة والضـباط والمهندسـين انطلقوا غير هيابين يقتحمون سلالم عنبر الماكينـات حيـث الحريق وهم يحملون المضخات الحمراء يطلقـون سـائلها الرغوي، يشقون لأنفسهم طريقًا وسط الحريق.. الباشمهندس العجوز (حنا يعلم الله) الذي لا شـك نسـى مواجهـة هـذه المواقف من طول بعده عن ركوب السفينة، يقف بببجامتـه على ظهر السفينة في مكان آمن بعيد بقدر الإمكان عن مكان الحريق وهو صامت كالمذهول.. ثم بعد لحظات طويلة يفتح الله عليه فيرتفع صوته متخاذلاً بالجملة الوحيدة التي لم أكـن أتوقع منه غيرها: (شوفو لنا المهندس ثروت).. يرد عليه من وسط الظلام بجفاء: (ثروت جوه عند الحريقة من بدري)..

وأغير موقعي من الصالون لأصعد إلى غرفة القيـادة المظلمة وأقف فيها إلى جوار القبطان في الظلام أرقب كـل شيء من أعلى مكان في السفينة.. ألف فكرة وألـف سـؤال يمر على ذهني دون أن يتوقف لينتظر الإجابة: أين المصور (عبد المنعم)!؟ هل استيقظ وذهب إلى مكان الحريق؟.. لم أر

فلاش كاميراته يلمع في الظلام.. هل هو ما زال نائما رغم كل هذه الضجة؟ أم هو في مكان الحريق ولكنه خجلان من أن يصور في هذا الوقت الحرج؟.. القمر بدر وضوءه مكتمل صحيح، ولكن كيف يكون الغرق قرب الفجر هكذا!؟ الواحد حايلقيها من الأمواج والا من الماء المثلج والا من الظلام النسبي والا من السمك المتوحش؟! والا من أنني لا أعرف العوم أصلاً؟!!.. هل تنفجر السفينة؟ وكم تستغرق وقتًا لتغرق كلها!؟.. وهل يكون هناك وقت للصعود في زوارق النجاة السانجة ذات المجاديف ثم تنزل بنا إلى المحيط ونلحق ننطلق بها بعيدا عن السفينة قبل أن تنفجر؟.. هل أحتاج إلى شيء ضروري من أدواتي الموجودة في قمرتي أو في حقائبي آخذه معي إذا احتاج الأمر إلى النزول في قوارب النجاة؟.. هل سنحتاج إلى جوازات السفر، هل نترك الكاميرات والأفلام التي شقينا من أجل تصويرها شهرا كاملاً في المحيط؟.. ونوتة مذكراتي عن الرحلة التي تركتها على مائدة الصالون، هل لو أخذتها معي لا تبتل بالماء، أو لو تركتها أستطيع أن أتذكر كل شيء عن الرحلة بالتفاصيل الدقيقة المكتوبة فيها؟.. هل تقدر النجاة أصلاً لقوارب

النجاة؟.. أقرب شاطئ إلينا هو جمهورية (السنغال) وأقـرب ميناء هو ميناء (داكار) على بعد ٢٤ ساعة بسرعة السـفينة وعلى بعد مليون سنة بسـرعة القـوارب ذات المجـاديف المجهزة بها السفينة في الثلث الأخير من القـرن العشـرين وهناك ناس وصلوا إلى القمر فعلاً ووضعوا أقدامهم عليه!!.

كيف أضمن أن يوجد زميلي المصور (عبد المـنعم) معي في نفس قارب النجاة؟.. هل لابـد أن تنتهـي رحلتنـا بمأساة حتى يتكامل شكل العمـل الصـحفي المثيـر الـذي بدأناه؟.. صورتي وصورة (عبد المنعم طاهر) وكلانا يبتسم، على عمودين في مجلة (الإذاعة والتليفزيون) فـي صـفحة رئيس التحرير وهو ينعي القراء اثنين مـن أنشـط وألمـع محرري ومصوري مجلة الإذاعة – لم يكتشف ذلك إلا بعـد مصرعنا!!- فُقِدا أثناء تأديتهما لواجبهمـا الصـحفي علـى السفينة (برنيس) في قلب المحيط الأطلنطي.. كل الصـفات الحميدة التي كانت ولم تكن فينا ستذكر في حفل تأبيننا الـذي –قطعا- ستقيمه لنا نقابة الصحفيين في القاهرة، ويتعاقب فيه الخطباء –وأغلبهم لم يعرفونا شخصيا، ولا حتـى بالشـبه- يعددون أمجادنا التي لم تحدث، ثم يقررون تخليـد ذكرانـا

بإطلاق اسمي على ترابزين سلم النقابة واسم (عبـد المـنعم طاهر) على دورة المياه بها.. وزوجتي ترتدي السواد علـي لمدة أربعين يوما، ثم يحاول أهلها وأصدقاؤها أن يقنعوها بأن تستبدل به الملون لأن: الحزن شيء في القلب وهـي شـابة عامِلة وشخصية عامة، لكنها ترفض رفضا باتا مناقشة هـذا الأمر، وتصر على الاستمرار في ارتداء السواد؛ لأنها تبـدو فيه أكثر جمالاً وأكثر فتنة وأكثر بياضا.. و.. و..

## وتمر لحظات

طوال قبل أن يبدأ الذين اقتحمـوا عنبـر الماكينـات المشتعل في الخروج منه واحدا بعد الآخر في الظلام الدامس وهم يسعلون بشدة.. ومعهم تأتي أخبار الحريق داخل العنبر:

تم إطفاء الحريق، ولكن بعد أن التهم في طريقه لوحة توزيع الكهرباء الرئيسية التي تغذي كل مكان فـي السـفينة بالكهرباء.. وذلك معناه أو شرحه باختصار أن كـل شـيء يعمل بالكهرباء على ظهر السفينة سوف يتعطل.. وأن على السفينة أن تتجه بأقصى سرعة لها إلى (داكار) أقرب ميناء، فتصله بعد ٢٤ ساعة حتى يمكن إنقاذ ما يمكن إنقـاذه مـن شحنتها من السمك التي تبلغ قيمتها الآن نحو ٢٥ ألف جنيه،

تعبنا من أجلها شهرا كاملاً ويوما.. وفي (داكار) تبقى أربعة أيام على الأقل حتى يتم إصلاح لوحـة التوزيـع الرئيسـية المحترقة، ويمكن للسفينة أن تعود إلى مواصلة الصيد..

ولكن القبطان (عبد السلام داود) يرفض هـذا الحـل ويرسل في طلب مهندس الكهرباء الصغير (ناجي نور) -٢٢ سنة إلا شوية- ليناقش معـه كـل الاحتمـالات.. (نـاجي) الصامت الهادئ- في وجود القبطان فقط، الجـن المصـور بعيدا عنه- يعرض بصوته الخافت حلاً هادئًا بسـيطًا غيـر عصبي يوافق عليه القبطان على الفور ويعده بمكافـأة لـو أنجزه.. بعد نصف ساعة تعود الأنوار –فقط- إلى السـفينة من مولد الكهرباء الاحتيـاطي مؤقتًـا.. وعلـى الأضـواء المنبعثة من البطاريات اليدوية يتكاتل كل شبان السفينة مـن المهندسين على اختلاف تخصصاتهم خلـف (نـاجي) فـي معركة شبابية يريد الشباب فيها أن يثبت وجوده، ويثبت أنـه إلى جانب الهاس الشديد الذي يكونـون عليـه فـي أوقـات فراغهم، يوجد أيضا جد شديد وعلم أكيـد وقـت اللـزوم.. المهندسون ثروت وفهمي وفخـر ورضـا وعبـد الوهـاب والجعفراوي، حتى الباشمهندس العجوز، جميعهم تحولوا إلى

صبيان ومساعدين لـ (ناجي) وهو ينتقل أمام وخلف لوحـة التوزيع المحترقة يلغيها ويعزلها لكي تعمل اللوحات الفرعية وحدها بدون لوحة عمومية رئيسية، كلهم يتبعـون تعليماتِـه وينفذون أوامره بسرعة وبدون كلام.. هذا يناوله مفكًا وهـذا يناوله سلكًا وذاك يفك صامولة أو يربط مسمارا.. والأيـدي العديدة كلها تساعد وتتعاون في سرعة وصمت وسكون..

## وبعد أربع

ساعات.. في الثامنة صباحا.. كان كل شـيء علـى السفينة قد عاد على ما يرام.. استطاع (ناجي) الصـغير أن يعيد الكهرباء إلى السفينة الصغيرة، التي راحت مـن جديـد تلقي شباكها في مياه الأطلنطي تنتزع من أحشائه السـمك.. وعاد القبطان (داود) يصيح في الميكروفون من موقعه فـي غرفة القيادة:

- ألسطة طقم الصيد؟ كله جاهز؟ الكهربـائي يشـغل الونش.. ماينا الشبكة..!

# الفصل التاسع

## العبقري

## وجردل المعلومات..!

## حكى لي

عباس كبير الضباط كيف استيقظ فجر أمـس سـاعة الحريق.. فقال: إنه كان نائما عاريا تماما حين سمع همسـا في أذنه كأنه يحلم: (قبطان عباس.. قبطان عباس.. قـوم.. فيه حريقة في السفينة)!! وانتبه (عباس) من نومه مـذعورا على كلمة (حريقة)، ليتبين أن الصوت كان صوت (حمـدي حافظ) الضابط الإداري، وأن (حمدي) قـال الكلمتـين دول وفص ملح وداب!.. وهب (عباس) مـذعورا، وحـاول أن يضيء نور أباجورة السرير فلم تُضأ لأن الكهرباء كانت قد انقطعت عن السفينة كلها.. وأنصت فلم يسمع صـوتًا علـى الإطلاق؛ لأن الجميع كانوا في مكان الحريـق عنـد عنبـر الماكينات في مؤخرة السفينة.. فازداد ذعره وظن أن السفينة قد بدأت تغرق بالفعل وأن الناس قد نزلوا في قوارب النجـاة إلى المحيط، وأن (حمدي حافظ) – مشكورا- تذكر (عباس) في آخر لحظة فعاد لينبهه.. فقفز من سريره جريا عاريا كما ولدته أمه متجها إلى أقرب باب يؤدي إلى البحـر مباشـرة ليقفز منه إلى الماء.. لكنه حين وصل أمام صالون الضـباط رأى القبطان أمامه في الظلام يجري إلى غرفة القيادة وهـو

يزرر قميصه، فتذكر (عباس) أنه لا يرتـدي شـيئًا علـى الإطلاق، فعاد إلى قمرته المظلمة ليلبس بنطلونه وفوقه (بول أوفر) على اللحم.. وفي هذه اللحظات كان قد استيقظ تمامـا وتنبه وعاد إلى نفسه، فتمالك، وصعد إلى غرفة القيادة بهدوء ليمارس مهمته: كبيرا للضباط!!

## وبمناسبة كبير

الضباط.. فإن (عباس) له طريقة غريبـة جـدا فـي التعامل مع الناس الذي يعملون على السفينة: يجد مجموعـة من الضباط والمهندسين جالسين مبسوطين في مكان ما مـن السفينة.. أي مكان.. وهو يعتقد أنه إذا جلست مجموعة مـن العاملين على السفينة معا فلابد أنهم يتكلمون عنه و(جـايبين في سيرته) ويغتابونه وينتقدونه؛ لذا فهو يحـاول دوغـري فركشة هذه المجموعة وتبويظ القعدة مثل فتـوات الأفـراح، فيتلكك على أي سبب ويتحجج بأي حجة ليطب على الشـلة اللي قاعدة ويشخط فيهم، ويقومون ويجعلهم يتفرقون.. ثم بعد ذلك يذهب إلى الضباط وحدهم على جنب ليقول لهم: (طبعا إنتوا عارفين إني ماكنش قصدي عليكم، أنا قصـدي علـى المهندسين)!! ويأخذ المهندسين وحدهم على جنب ليقول لهم:

(طبعا إنتوا فاهمين إني مش ممكن أكون بأقصدكم إنتم، أنا قصدي على الضباط)!!.. طريقة غريبة تعلمها لا شك من المراكب الصغيرة التي عمل عليها بعد تحوله من ضابط لاسلكي إلى ضابط بحري..

المهم، عمل هذه اللعبة مرة مع شلة كان زميلي المصور (عبد المنعم طاهر) يجلس معها، وفوجئ (عبد المنعم) بطريقة (عباس) الفظة الجارحة فبهت لها وارتج عليه، ولم يستطع أن يتكلم وقتها، لكنه ثار ثورة عارمة بعدها وأصر على أن ينزل من السفينة –وكنا في وسط المحيط- ويعود على السفينة (الغردقة) التي كانت قريبة من موقعنا وأنهت صيدها وتتأهب للعودة إلى الإسكندرية.. ورغم اعتذار (عباس) بطريقته المعهودة: (مكانشي قصده عبد المنعم)، إلا أنني أيدت (عبد المنعم) في موقفه ووافقت على عودته.

وفي الوقت نفسه وجدت أنه من الضروري أن أبقى أنا على (برنيس) إلى نهاية الرحلة؛ حتى لا نترك السفينة معا فنكون نحن الخاسرين.. فحتى لو عاقب المسئولون في الشركة (عباس) بخصم أي عدد من الأيام، أما نحن فسوف

نخسر الرحلة كلها –كعمل صحفي بدأناه- لو نزلنا معا من السفينة.. ورفض (عبد المنعم) أن يترك السفينة بدوني وفضل أن يبقى معي، لكنه بدا متحفزا لـ (عباس) ينتظر منه خطأ آخر حتى ينفجر فيه ويخلص القديم والجديد معا.. حتى حدث ذات مساء أن كنت أجلس أنا والقبطان (داود) في أعلى السفينة، وعلى مرمي البصر منا كانت مجموعة من الضباط –من بينها (عبد المنعم) والطبيب- يجلسون عند مقدمة السفينة بعد انتهاء الصيد، يدردشون ويسمرون ويضحكون.. وجاء (عباس) إلى جوارنا وشاهد هذا المنظر، وكالمعتاد ضايقه أن يجلس الضباط معا، فنادى على باشريس البحارة (إبراهيم شحاتة) وأمره بصوت عال –لكي نسمعه أنا والقبطان- بأن: (يروح يقوم (الناس) اللي قاعدين هناك دول.. ويسحب الكرسي من تحت الأفندي اللي قاعد عليه ده، ويقول لهم عباس بيقول لكم دي مش قهوة بلدي)!!.. ووجدت نفس دون أن أشعر أشخط في (إبراهيم شحاتة): (إستنى يا إبراهيم، ما تروحشي).. ثم أوجه كلامي للقبطان (داود): (إذا كان ولا بد من الغلاسة وتهزأ الناس بالشكل ده، يبقى تستنوا لما أنادي على عبد المنعم ييجي هنا، وبعدين عندكم ضباطكم

غلسوا عليهم زي ما أنتم عايزين.. علشان إبراهيم شحاتة لو راح وقاللهم كدة وعبد المنعم قاعـد ويـاهم، فعبـد المـنعم حايشتمه وحايشتم اللي باعته)!!..

وتراجع (عباس) بسرعة متعللاً بأنه يريـد أن تقـوم الشلة؛ لأنهم يحدثون ضجة بضحكهم، وهنـاك نـاس علـى السفينة نايمين!!.. ولم تكن هناك ضجة مـا إلا إذا اعتبرنـا الضحك العادي ضجة تـوقظ النـائمين، ونسـي (عبـاس) ضحكته المجلجلة التي تشبع المدفع الرشاش التي يطلقها في أي وقت فتوقظ النائمين في السفن المجـاورة، ولـيس فـي سفينتنا فقط، ونسي سرينة الإنذار المرعبة التي يطلقها فـي الخامسة صباح كل يوم؛ ليوقظ أفراد وردية الصيد وعـددهم ثمانية فقط، فتقلق السفينة كلها وتوقظها من عز النوم.. ولكن هذا هو منطق عباس!!

## أول سرقة

تحدث معي منذ بداية الرحلة، ويبدو أن نـومي كـان ثقيلاً في الليلة الماضية؛ لأنني استيقظت في الصباح لأجد أن جردل الماء الذي أخفيه بين الحقائب بجوار سريري: موجود صحيح، لكنه ليس فيه نقطة ماء واحدة!!.. شخص ما – الله

لا يسامحه- سطا على قمرتي وأنا نائم واقتبس الماء الذي في الجردل وترك الجردل خاويا بدون ماء!!

وأبلغت القبطان، وأبلغت كبير الضباط، وأبلغت كل السلطات المسئولة وغير المسئولة على السفينة، ولكنهم جميعا إفتكروني باهزر.. فاعتصمت في قمرتي طوال النهار لم أخرج منها، حتى هرب لي (حمدي حافظ) الضابط الإداري في المساء زجاجة ماء مليئة حتى نصفها فقط، فتشطفت، ثم خرجت للعشاء!!

أشك في (عبد الوهاب فرغلي) أخصائي التبريد أو (محسن النوبي) أخصائي الملاحة، فهما المتخصصان في سرقة المياه من القمرات.. منهم لله سوا!!

المهم: بعد العشاء وجدت الباشمهندس (حنا يعلم الله) ثائرا وغاضبا ومتنرفز وزعلان جدا وماشي في السفينة يكلم نفسه: (إسراف، تبذير، سفه، فلوس بتضيع في الأرض وبتترمي في البحر)!!.. وأصل الحكاية إن الباشمهندس (يعلم الله) لاحظ أن الضباط والمهندسين والبحارة يدخنون كثيرا أثناء الرحلة.. ولم تكن هذه هي المشكلة التي تضايق الباشمهندس في حد ذاتها، ولكن الذي يضايقه في الموضوع

أن الذين يدخنون يطفئون السيجارة وما زال باقيا منها ربعها، وهكذا تمتلئ طقاطيق السجاير في السفينة بأعقاب السـجاير الطويلة، ثم يأتي السفرجي ليفـرغ الطقـاقيق فـي البحـر، ويضايق الباشمهندس أن تلقى هذه (الثروة) من الأعقاب فـي البحر في الوقت الذي يباع فيه الكيلو، من أعقاب السـجائر للمعلمين (بتوع السـبارس) عنـد عمـود السـواري فـي الإسكندرية ب٨٠ قرش للكيلو!!

## منذ عدة

أيام جلست أدردش مع القبطان (داود) وجاءت مناسبة الأطفال فقال لـي: إن لديـه ٣ أبنـاء: (محمـد) و(هالـة) و(علاء).. ثم تغير الموضوع وتكلمنـا فـي موضـوعات أخرى.. وفي اليوم التالي فاجأني القبطـان (داود) بمفاجـأة مدهشة، فقد قال لي وهو يبتسم: (تعرف إني نسيت أقول لك امبارح على حاجة؟) قلت له: (ملحوقة) ما احنـا لسـه مـع بعض، خير؟!) فأجاب في خجل: (أبدا، خير، بـس نسـيت أقول لك إن عندي بنت رابعة اتولدت قبل ما آجـي الرحلـة دي بكام يوم بس، علشان كدة كنت ناسيها)!!.. وضحكت من أعماقي جدا على الرجل الذي أنساه الانهماك في الصيد عدد

أولاده، وقلت له: (على أية حال هي اسمها إيـه؟).. فقـال والخجل ما زال يتملكه: (في الحقيقة مش فـاكر، وده اللـي مخليني متضايق أكتر)!!.. وجلس القبطـان فكتـب برقيـة لزوجته في الإسكندرية يقول لها فيها: (هي اسمها إيه؟) وبعد يومين جاءته برقية من زوجته بالإسـكندرية تسـأله فيهـا مندهشة: (هي مين؟) وكان هو في تلك الأثناء قد تذكر اسـم مولودته، فرد على زوجته ببرقية من كلمة واحـدة قـائلاً: (هناء)!! فردت الزوجة على برقية زوجها ببرقية ظريفة من كلمتين أيضا، خيل إلي أن الست كانت تخبط كفًا على كـف وهي ترسلها، تقول فيها: (اسمها هناء)!!

كان الله في عون الناس الذين يعملون في البحر!!

## السفينة رأس

بناس التي كانت قد دخلت الإسكندرية قبل بدء رحلتنا نحن بليلة واحدة، لحقت بنا الآن في منطقـة الصـيد لتبـدأ رحلتها الرابعة هي الأخرى، بينما نحن قد تجاوزنا نصـف الكمية المقرر أن نصطادها وأوشـكت رحلتنـا أن تنتهـي قريبا.. أمس الأول اقتربت السفينة (رأس بناس) منا وأنزلت أحد قواربها وفيه كمية من البطاطس يحتاجها مطبخ سفينتنا،

وفيه أيضا أفلام السينما التي عند (رأس بنـاس) لتسـتبدلها بالأفلام التي لدينا، كنوع من التغيير.. وهكذا شاهد بحارتنـا بالأمس فيلما جديدا لم يشاهدوه من قبل –على الأقـل علـى السفينة (برنيس)!!- وهو فيلم (الزوجة العذراء) لفاتن حمامة وأحمد مظهر وعماد حمدي.. ولأن البحارة لم يكونـوا قـد رأوه من قبل فإنهم شاهدوا الفيلم في سكون تام.. ثم شـاهدوا الليلة أيضا فيلما جديدا آخر –بالنسبة إليهم كذلك- هو فـيلم (هدى) للبنى عبد العزيز وعماد حمدي.. الغريب أن الفيلمين كئيبان ومثيران للحزن والكآبة والانقباض، ولست أدري من هو العبقري الذي اختار هذه الأفلام الحزينة الكئيبة القاتمـة ليتحف بها بحارة سفن الصيد الذين يمتص العمل الشاق ١٦ ساعة من جهدهم طول اليوم ويتركهم فـي حالـة إرهـاق جسماني وعصبي شديدين لا يحتملان أية زيادة أخرى بهـذه الأفلام القاتمة.. إن البحر لا يحتاج إلا لأفلام مرحة ضاحكة استعراضية راقصة متفائلة، تعيـد إلـى البحـارة مـرحهم وابتسامتهم وضحكهم، فهم مش ناقصين وجع قلب ولا بكـاء ونواح وأنين بعد المجهود الشاق الذي يبذلونه طول اليـوم.. ومن الضروري أيضا أن تستبدل الأفلام على كل سفينة بعد

كل رحلة، فلا يشاهد العاملون على السفينة نفس الأفلام عدة مرات في كل رحلة حتى حفظوها وأصبحوا على استعداد لأداء امتحان فيها!!

## كنا مجموعة

من الضباط و(منعم) وأنا واقفين ندردش في صالون الضباط بعد الإفطار، حين سأل (عبد المنعم) فجأة صديقنا الباحث (بهجت): (بهجت.. أنت بتلبس جزم مقاس كام!؟) فيرد الباحث بجد جدا: (مقاس ٤١ وشوية)، فيلقي (عبد المنعم بعقب سيجارته أمام قدم الباحث وهو يقول له بجد جدا هو الآخر: (طيب دوس على دي)!!

وصديقنا الباحث (بهجت بارح حبشي) الذي تحول اسمه على لسان الزملاء بعد بداية رحلة السفينة بأيام قليلة إلى (بهجت قارح حبشي)، ثم نسوا اسمه تماما وأصبحوا لا ينادونه أو يتكلمون عنه إلا باسم: (الباحث) فقط: (الباحث راح.. الباحث جه.. تعالى يا باحث روح يا باحث)!!.. صديقنا الباحث هذا واحد من عدد من خريجي كلية العلوم بالإسكندرية وزعتهم شركة مصايد أعالي البحار على سفن الصيد التابعة لها، ليرافقوها في رحلاتها للقيام بأبحاث عن

مياه وأسماك المحيط الأطلنطي، عسى أن تستفيد سفن الصيد مستقبلاً من هذه الأبحاث.. ولكن الـذي حـدث أن صـديقنا (الباحث) أراد أن يبدو أمامنا في صورة (عالم)، فأطلق ذقنه طويلة كثيفة ونكس شعره، فأصبح شكله شكل العلماء الـذين كنا نرى صورهم في الكتب العلمية بتاعة ابتدائي، ودائما في جيبه مشط صغير يخرجه بين حين وآخر ليمشط بـه ذقنـه الطويلة التي كان واضحا أنه سعيد وفرحان بها جدا..

ثم استطرد في أخذ (بوظات) العلماء، وعلى اعتبار أن التصرفات الشاذة الغريبة هي طابع العلمـاء –العبـاقرة بالذات- فقد كان صديقنا (الباحث) يخرج علينا كل يوم بوجه جديد: فهو يوما مبتسم، ويوما مكشر.. يوما يعاملنا باحتقـار واشمئزاز شديدين جدا، ويتعالى على أهل السـفينة كلهـم، ويوما بسيطًا رقيقًا هادئًا متواضعا تواضع العظماء، ويومـا عصبيا شديد العصبية ويتكلم كلاما غريبا غير مفهوم.. حتى بدأ يهتز عصبيا فعلاً في أواخر الرحلـة ويعتقـد أن هنـاك مؤامرة تدبر لاغتياله، أو على الأقل لخطفه.. ذات ليلة كنت أسهر وحدي أكتب في صالون الضباط، وفي الرابعة صباحا انتهيت من الكتابة فنزلت متجها إلى قمرتي التي تفصل بينها

وبين قمرة الباحث قمرة واحدة.. وفي طريقي وجدت الباحث يطل برأسه من باب قمرته عاريا إلا من بنطلـون بيجامتـه وهو مذعور ذعرا شديدا وقد بدا عليه الرعب واضحا حقيقيا، وما إن وجدني أمامه حتى استنجد بي صائحا بلهفة وجـزع شديدين: (الحقني يا أستاذ حسين) فذعرت أنا الآخر وظننـت أن شيئًا رهيبا قطعا قد حدث له، فقلت له: (مالك يـا باحـث واقف كده ليه؟ فيه حاجة حصلت؟).. وعرفت مـن كلامـه وسط أنفاسه اللاهثة المذعورة وعينيه الزائغتين المرعـوبتين أن: (اثنين من جواسيس حلف شمال الأطلنطي قد تسللا إلى السفينة بقصد خطفه للاستفادة من معلوماته عن السمك وعن درجة حرارة المياه في المحيط، والاسـتيلاء علـى جـردل المعلومات اللي معاه.. وأن واحدا من الجاسوسـين اللـذين اقتحما قمرته، كان يمسك في يده خنجرا، والثاني كان يمسك في يده رغيف فينو كبير)!!

ومنذ أيام، حين اقتربت منا فـي عـرض المحـيط السفينة (رأس بناس) زميلة سفينتنا (بـرنيس) وتتبـع نفـس الشركة، تقدم الباحث إلى القبطان (داود) يطلب منه –حرصا على مستقبل البحث العلمي في مصر- أن يسمح له بالبقـاء

في المحيط الأطلنطي سنة كاملة على الأقل ليواصـل فيهـا أبحاثه متنقلاً بين سفن الصيد الثلاث: السفينة التـي يكـون عليها إذا أتمت صيدها وأوشكت على العودة إلى الإسكندرية تتركه للسفينة الأخرى التي تكون قادمة إلى المحـيط لتبـدأ رحلتها.. وفي حالة ما إذا لم تكن هناك سفن مصرية موجودة فعلاً في المحيط إلى جوارنا، حين ننتهي من صـدينا فإننـا نربطه بطوق نجاة ومعه أكل يكفيه مدة كافية وننزله بطـرق النجاة لينتظر –طافيا فوق سطح الماء- حتى تصـل سـفينة أخرى بعد عدة أيام وأسابيع، على أن نضع على رأسه علما صغيرا لكي تعرف السفن الأجنبية جنسيته، وعلشان ما حدش ياخده!!.. ولم يمانع القبطان (داود) في ذلك، ولكنه اشـترط عليه أولاً وقبل كل شيء ألا ينزل من (برنيس) إلـى (رأس بناس) إلا إذا حلق ذقنه الكبيرة الكثيفة.. ووافـق (الباحـث) وأوشك فعلاً أن يحلق ذقنه الهائلة الفاخرة لـولا أن حـدث خلاف في وجهات النظر بينه وبين القبطان في آخر لحظـة، فقد اشترط الباحث أن يأخذ معه جـردل المعلومـات الـذي يحصل بواسطته على العينات من مـاء المحـيط.. ولكـن القبطان رفض ذلك؛ لأن الجردل عهدة لكن الباحـث نفسـه

ليس عهدة!!.. واعتصم الباحث بالجردل وأصر عليه ورفض النزول من غيره!!

ولم ينزل (الباحث)، وبقـي هـو والجـردل علـى سفينتنا!!

## كان حظنا

اليوم في الصيد موفقًا، خصوصا في الشبكة الأخيرة التي بلغت حصيلتها نحو ١٤ طنًا، فأنهت بذلك الـ ١٠٠ طن الثالثة في ٤ أو ٥ أيام على الأكثر، ولكن الحـظ (عصـلج) معنا فطالت المدة إلى ٨ أيام في عمل مستمر ١٦ ساعة كل يوم من الفجر حتى الثامنة مساء..

وبعث انتهاء الـ ١٠٠ طن الثالثة جوا من السـعادة والتفاؤل والمرح على السفينة التـي مـرت بعـدة أزمـات وظروف صعبة بالأمس، لدرجة أنني كنت نائما وقت خروج الشبكة الأخيرة، فأصر القبطان (داود) علـى إيقـاظي لأرى بنفسي الشبكة المليئة المكدسة..

ونزلت مع القبطان إلى عنبر فرز الأسـماك لكـي نشهد معا حصيلة الشبكة الضخمة.. وكان ضمن الحصـيلة (قرشًا) أزرق ضخما رهيبا بشع الشكل يبلـغ طولـه نحـو

مترين، يسمونه (القرش الأزرق أو قرن).. رأيته مجمدا في الثلاجة فخفت منه، فكيف لو كنت أسبح في البحر وفوجئـت به إلى جواري مثلاً!!.. وخرج مع الشبكة أيضـا أخطبـوط صغير نسبيا، ضخم بالنسبة لنا – أو لي أنا على الأقل، الذي لم أشهد أخطبوطًا حقيقيا من قبل، اللهم إلا في أفلام طرزان – شكله مخيف ومرعب وله أذرع عديدة بكل واحد منها عدد كبير من شفاطات الهواء هي التي يمسك بها أو يقبض بهـا على السمك الكثير الذي يستحوذ عليه في أذرعته، ثم يناوله إلى فمه الذي يقع في وسط بطنه.. وقد أمسك البحار (ماركو بولو) أو (إبراهيم أحمد محمود) بالأخطبوط وأخرجـه مـن الشبكة وهو ما يزال حيا، وأمسكه من ظهره وضغط عليـه بطريقة خاصة جعلت الأخطبوط الرهيب مشلولاً غير قـادر على الحركة، ووضع (ماركو بولو) فمه على فم الأخطبـوط كأنه يقبله، ولكنه عضه في بطنه- (ماركو بولو) هو الـذي عض الأخطبوط ولسي العكس- فمزق بطنه.. ثم مد أصابعه في بطن الأخطبوط وأخرج منها – بعـد مجهـود- أسـنان الأخطبوط التي يمزق بها فريسته، وهي عبارة عـن أربعـة أسلحة حادة جدا تفترق وتلتقي وتتداخل في نقطـة مركزيـة

واحدة، فتقطع ما يدخل بينها.. وكان شكل الأخطبوط بشعا سواء وهو حي أو وهو ممزق، لدرجة أنني قرفت منه وهو هكذا، فكيف به وهو مطبوخ!!.. نعم فإن القطبان (داود) أمر بأن يجهز الأخطبوط ويطبخ ليقدم له على العشاء!!.. ودعاني للعشاء معه فهربت طبعا، ولكنه أرسل لي طبقًا كبيرا لم أستطع أن أمد يدي فيه، فتركته للزملاء الضباط والمهندسين الذي تخاطفوه وانهالوا عليه التهاما حتى مسحوا الطبق في لحظات!!

وكان من ضمن الأسماك الغريبة التي حفلت بها شبكتنا الأخيرة اليوم سمكة كبيرة الحجم جدا اسمها سمكة (المحراث)، وهي أشبه بدائرة كبيرة قطرها لا يقل عن متر ونصف المتر ولها ما يشبه جناحين في جسمها، ولها أيضا جهاز تنفسي كامل لأنثى آدمية، وذيل طوله متران عبارة عن كرباج قوي جدا مليء بالبثور الشوكية الشبيهة بحبات الحمص.. تدافع سمكة المحراث هذه عن نفسها بذيلها الرهيب القوي الذي ضربة واحدة منه ممكن أن تقسم شخصا قويا إلى نصفين وتقتله على الفور!!

وبالمناسبة، فحين يحدث وتخرج الشبكة بكمية أكبـر من المعتاد من الأسماك، فإن على جميع من في السـفينة أن ينزلوا إلى عنبر فرز الأسماك ليشتركوا في فرزها وتعبئتهـا وتغليفها، لا يستثنى من ذلك أحد، حتى الضباط والمهندسون والطبيب.. وكان طبيبنا السمين القصير الظريـف الـدكتور (رفيق) عند بداية الرحلة ممتنعا عن ذلك علـى اعتبـار أن كرامة المهنة كطبيب تمنعه من أن يشتغل (فـراز سـمك)!! لكنني بسطت له الأمر وهونته عليه، واشتركت مع القبطـان في إقناعه بأن المسألة تسلية وتعاون أكثر منهـا أي شـيء آخر، وأنه إذا كان الضباط والمهندسون يساعدون في ذلـك فإن الطبيب قطعا ليس أفضل منهم.. حتى اقتنع أخيرا، فنزل اليوم إلى عنبر فرز الأسماك لأول مرة منذ بدايـة الرحلـة وساعد في تجهيز الصناديق الكرتون التي يعبأ فيها السمك.. ووجد (رفيق) أن العملية سهلة وظريفة ومسلية ومافيهـاش حاجة عيب ولا حاجة، فانبسط وانفرجت أساريره وبدت على وجهه المرح السمين سعادة طفولية كبيرة..

**طيب (رفيق) ده..**

## وكعادة الفقي

لما يسعد فتيجي له سهرتين في ليلة، أو الحـظ لمـا يضرب فيضرب مرة واحدة.. رست السفينة الليلة وتوقفـت في منطقة مليئة بالأسماك (اللوفار) كبير الحجم الذي يكـون قريبا جدا من سطح الماء أثناء الليل، فيسهل صـيده باليـد بالسنارة الصاب المربوطة أو المشبوكة في حبل قوي مجدول من خيوط النايلون.. وعلى جوانب السفينة وعند مؤخرتهـا سهرت شلة الضباط والمهندسين (السهيرة) يتسـاون بصـيد (اللوفار): المصور (عبد المنعم طاهر)، الطبيـب (رفيـق)، الباحث، الأخصائي (عبد المعبود)، الضابط الإداري (حمدي حافظ)، (محمود الحاج أحمد) وعـم (عبـده)، الطبـاخون، الضابطان الصغيران تحت التمرين (جلال منير) و(محمـود سامي)، البحارة (ماركو باولو) و(محمد الوكيـل) و(علـي الراشدي) و(إبراهيم خليـل) و(مصـطفى السـيد السـيد).. وكالعادة –الغريبة- عند صـيد (اللوفـار)، تفـوق زميلـي المصور (عبد المنعم) على الجميع، فاصطاد وحده نحو ٤٠ سمكة.. واصطاد الطبيب (رفيق) ٣٢ سمكة.. وبلغ رصـيد (اللوفار) في سهرة الليلة نحو ٣٠٠ سـمكة تـزن الواحـدة خمسة كيلو جرامات على الأقل وتصل إلى ٢٠ كيلو جراما..

وبلغ وزن الكمية كلها أكثر من طن ونصف الطن.. وكان (رفيق) سعيدا جدا ومرحا كالأطفال وهو يصطاد، وكلما اصطاد سمكة صاح بأعلى صوته منغما الكلمات ويمطها بطريقة الباعة المتجولين: (صلى ع النبي)!!

وقد رفضت دائما أن أشترك في عملية صيد السمك (اللوفار) الذي يخرج من الماء حيا وهو يتلوى ألما وينزف دما نتيجة اشتباك وتمزيق الصنارة الصلب لحلقه.. فقد صعب علي جدا منظر السمك الكبير الذي يكاد يبلغ طوله طولي وهو مسجى على أرضية السفينة يتنفس ويشهق بقوة وصعوبة وبصوت مسموع بعد أن يخرج من الماء.. شبه لي إنسانًا مصابا في حادث وملقى على الرصيف، والناس تتفرج عليه وتتسلى بمشاهدته ودمه ينزف حتى يموت.. أن إنسانًا يغرق في الماء، إلا أن السمك الذي أمامي كان يغرق.. في الهواء!!

# الفصل العاشر

## فوازير إسبانية

## ولعبة البخت في وسط الأطلنطي

## شيء غريب

جدا ذلك الذي يحدث على هذه السفينة: ليس من الطبيعي ولا المعقول أن تكون السفينة نفسها أصلاً سفينة ثلاجة أو ثلاجة عائمة، وبالإضافة إلى ذلك ففيها ٤ ثلاجات أخرى كبيرة: واحدة في صالون الضباط، وأخرى في (ميس) البحارة، وثالثة في قمرة القطبان، ورابعة في قمرة كبير المهندسين، ثم تطلب ماء للشرب –حتى أثناء تناول الطعام- فيقال لك: (مفيش والله.. لا مية ساقعة ولا مية سخنة)!! ليه، مش فاهم: هو إحنا في صحراء؟.. السفينة خرجت من الإسكندرية وفي خزاناتها ١٠٠ طن مياه عذبة للشرب، وأرخص شيء في العالم هو الماء، فطن الماء في الإسكندرية يباع للسفينة بـ ١٢ قرشًا فقط، وفي إسبانيا يباع بـ ٣٠ قرشًا.. يعني الـ ١٠٠ طن اللي في السفينة لا تساوي أكثر من ١٢ جنيها.. فما الداعي -إذًا- لأن تخرج السفينة في رحلتها ومعها ١٠٠ طن ماء عذب، لتغيب شهرين في المحيط الأطلنطي، ويتعمد المسئولون في السفينة التقتير الشديد في توزيع الماء على الضباط والبحارة كأنه عملة صعبة وأكثر، مما يهدد صحة الناس الذين يعملون في

السفينة، وينتهي الأمر بأن تعود السفينة إلى الإسكندرية بعـد غيبة شهرين كاملين وفي خزانتها: ٩٠ طن ماء متبقيـة!!.. يعني أن الـ ٨٥ فردا الذين على السفينة استهلكوا ١٠ أطنان فقط في شهرين، أو ٥ أطنان في الشهر!! وإذا كان الطن في ٢٠ صفيحة ماء، فذلك معناه أننا نستهلك ١٠٠ صفيحة مـاء في الشهر، يعني أن الـ ٨٥ فردا كانوا يستهلكون في اليـوم الواحد من الماء بين شرب وتشـطيف واسـتحمام وغسـيل ملابس، وفي المطبخ أيضا لعملية الطبخ ولغسيل الأوانـي، نحو ٣ صفائح ماء وثلث يوميا.. فقط لا غير!!

حرام والله العظيم.. هذا افتراء وليس ظلما فقط!!

## جاء القبطان

(داود) يزورني في قمرتي، فوجدني جالسـا أكتـب مذكراتي عن الرحلة.. فـانتهزت الفرصـة وحادثتـه فـي موضوع الماء على السفينة وشكوت له – بلسـان البحـارة كلهم- فوعدني بتلافي ذلك فورا، ونادى على السفرجية (عم حسين) و(محمدي) وأمرهما بأن توضع زجاجات ماء للشرب في ثلاجة القبطان شخصيا، وتقدم هذه الزجاجـات المثلجـة أثناء الطعام!!

وفرحت، فقد ظننت أنني استطعت – بنفوذي!!- أن أحل المشكلة الكبرى التي تشكو منها السفينة كلها.. ولكنهـا فرحت ما تمت، فإن ذلك لم يحدث غير مرة واحدة فقط تنفيذًا لأوامر القبطان، وبعدها رجع كل شيء إلى ما كان عليه..!

## طبيب السفينة

السمين القصير الظريف (رفيق) دخل العيادة أمـس فوجد الزميل المصور (عبد المنعم طاهر) يجلس وحده فيهـا وقد وضع سماعة الطبيب على أذنيه، وأمامـه جهـاز الـ ـ (تونجر) الذي نأخذه معنا في رحلاتنا الصحفية إلى الخارج؛ لكي نشحن به بطاريات (فلاش) التصـوير، وراح (مـنعم) يتكلم في بوق سماعة الطبيب بصوت هامس، ويضحك أحيانًا ويستمع أحيانًا ويتكلم مرة أخرى!!.. فوقف (رفيق) يتفـرج عليه بدهشة شديدة جدا وهو مش فاهم (عبد المنعم) بيعمـل إيه!!.. وأخيرا لم يتمالك نفسه فسأله بذهول: (أنت بتعمل إيه يا منعم)؟ فأشار له (عبد المنعم) بيده يطلب منه أن يصـمت وهو ما زال مستمرا في همسه.. فازدادت دهشـة (رفيـق) واقترب بأذنه أكثر من السماعة وراح ينصت باهتمـام إلـى (عبد المنعم) وهو يتكلم محاولاً أن يستكشف ماذا يفعل، ثم لم

يطق صبرا فسأله مرة أخرى: (بتعمل إيه والنبي يا مـنعم؟) فقال (عبد المنعم) في بوق السماعة: (لحظـة واحـدة)، ثـم وضع يده على بوق السماعة كأنه يريد ألا يسمع الذي علـى الطرف الآخر ما يقوله، والتفت إلى (رفيق) وقال لـه فـي صبر نافذ: (ده التليفون اللاسلكي اللي بيبقـى معانـا إحنـا الصحفيين لما نكون مسافرين برة علشان نتصـل بمصـر.. وفيه واحدة من مصر بتتكلم، الظاهر غلطانة في النمـرة أو بتعاكس، إستريحت بأه يا سيدي، أسكت بأه خلينـي أعـرف أتكلم مع البنت)!!..

وعاد (عبد المنعم) يتكلم في سماعة الطبيب بصـوته الهامس و(رفيق) مستمع جدا بالحديث (اللذيذ) الـذي يـدور أمامه والسعادة تملأ وجهه الطفولي الضخم، ثم قال فجأة وهو يمد يده لـ (عبد المنعم)، (منعم، خليني أكلمها شوية والنبي.. شوية صغيرة بس)!! فزغر له (منعم) بعينه ونهره بإشـارة من يده، فأثارت هذه (الأنانية) غضب (رفيق) فصـرخ فـي (عبد المنعم) بصوت عال –علشان البنت تسمعه!!-: (طيب مادام البنت الـ.. دي غلطانة في النمرة، أوقف السـكة بـأه وهات السماعة خلينا نشوف شغلنا)!!

## كانت حكاية

الحريق الكبير الذي حدث على السفينة منذ عدة ليال تمثل بالنسبة لي أنا شخصيا، أكثر من أي واحد آخر من أهل السفينة، جرس إنذار بالخطر كان عطلان لسبب ما، فلما زال سبب العطل انطلق الجرس يعوي بلا انقطاع أو توقف، دليلاً على أن الخطر كان موجودا طول الوقت، ولكن عدم سـماع صوت جرس الإنذار كان هو في عدم تنبيهنا إلى الخطر..

وفي الحقيقة أن توقع الخطر كان في ذهني دائما منذ أول ثانية لبداية الرحلة، ومنذ الكارثة التي كـادت أن تهـبط علينا ونحن نبدأ رحلتنا مغادرين ميناء الإسكندرية، حين أفلت زمام سفينتنا (برنيس) بسبب خطأ هندسي أدى إلـى عطـل مفاجئ في الماكينات، فأوشكنا أن نصطدم بسـفينة أجنبيـة راسية في الميناء لولا ستر ربنا.. ثم جاءت تجربة أو مناورة الغرق التي أجريناها على السفينة في اليوم الثـاني للرحلـة ونحن في عرض البحر الأبيض المتوسـط قبـل أن نصـل جزيرة (مالطة).. وخرجت من هذه المناورة بأنه لو حدث – لا قدر الله- وتعرضت السفينة لأي أزمة هـددتها بـالغرق، فإنه لن ينقذنا منها ولا حتى دعاء الوالدين، الذي لـن يفيـد

قطعا من قوارب الإنقاذ عتيقة الطراز التي مطلوب منهـا أن تسير بالمجاديف في البحر الأبيض المتوسط وفـي المحـيط الأطلنطي في الثلث الأخير من القرن العشـرين، والتـي لا تزيد كثيرا على قوارب الفسحة في القناطر الخيرية أو عنـد كوبري قصر النيل، والتي –أصلاً- رفضت بإصرار حتـى أن تتحرك من مكانها من أعلى السفينة حين حاولنا إنزالهـا إلى البحر، وصمدت أمام جهود ٢٠ بحارا أشـداء حـاولوا التغلب على مقاومتها العنيدة وإنزالها إلى البحـر بواسـطة الونش الذي يعمل –أيضا- باليـد.. وحتـى لـو طـاوعتهم القوارب ونزلت إلى البحر، فإن القاربين اليتيمين الموجودين على السفينة يتسعان، بالكاد، لربع طاقم السفينة فقـط البـالغ عددهم ٨٥ فردا.. كما أنه يخيل إلي –وإلى أي بني آدم عاقل غير مكابر- أن العاصفة التي تستطيع أن تغرق سفينة طويلة عريضة حديثة مثل (برنيس) طولها ٧٦ مترا، لـن تتعـب كثيرا في إغراق مليون قارب بمجاديف في خضـم المحـيط الأطلنطي الرهيب أو البحر المتوسط الغادر الـذي لا شـك يمتلئ قاعه بعشرات من أمثال سفينتنا (برنيس) وأكبر منهـا وأتخن منها!!

## هذا عن

قوارب النجاة العتيقة ذات المجاديف، والتي تعتبـر الأصل والأساس في محاولة النجاة من السفينة إذا واجههـا خطر الغرق.. وذلك لا يمنع من أن علـى السـفينة أيضـا، قوراب نجاة أخرى (مقفولة) من أحدث طراز فعلاً، أحـدث طراز حقيقة.. ولكن وجود هذه القوارب الحديثة جدا في حد ذاته نكتة كبيرة مضحكة جدا، تموت من الضـحك.. يمكـن ليست النكتة نفسها التي تجعلك تموت من الضـحك، ولكنـه الأثر الذي يظهر على وجوه ضباط السفينة –الكبار منهم قبل الصغار- حين تسألهم عن كيفية استعمال هـذه القـوارب – الحديثة- فتجد عيونهم قد زاغت واضطربت ولعبـت يمينـًا ويسارا، وحديثهم قد عراه الارتباك، وهم يحاولون (الـدخول في عبك) وإقناعك بأنها: (حاجات ما تتشرحشي كدة وهـي مقفولة.. لازم تتشرح وهي مفتوحة.. ومش ممكن تتفـتح – حتى ولو للتجربة- لأنها لو انفتحت تبقى لازم تتقفـل تـاني طبعا.. وفي الحقيقة إحنا بصراحة كدة –ما نعرفشـي هـي بتتقفل إزاي.. وكمان نعتقد أنها مش بتقفل في مصر؛ لأنها بتحتاج إلى نوع معين من الغازات بتتملي بيه قبل ما تتقفل..

لكن المهم أن جواها في بسكويت وشيكولاته وعاب بولوبيف، شايف إزاي، عاب بولوبيف)!!.. آه، يا لقصور اللغة العربية في التعبير أحيانًا، فقد وددت لو أستطيع أن (أكتب) صـفارة الدهشة التي انطلقت من فمي ساخرة وأنا أستمع إلـى هـذا الكلام الغريب الذي لا يصدر من ناس لديهم إحساس واحـد في الألف بقيمة وشكل وخطورة المسئولية التي تصدوا للقيام بها وتحملها!!.. وهكذا، وضعوا لهم على السفينة فوازير في عاب مقفولة وقالوا لهم عنها إنها: قوارب نجـاة حديثـة لا يمكن تجربتها إلا حين يحدق الغرق فعلاً!! ومن يدري، فلعله في لحظة الغرق هذه حين يفتحون تلك القـوارب (الحديثـة) المقفولة فقد يجدون في داخلها لعبة (عفريت الستات) مثلاً!! أو يمكن يلاقوا فيها ورقـة مكتـوب عليهـا (البخـت) زي الشيكولاتة!! أو لعلهم يجدون فيها ورقة أخرى مكتوبا فيهـا: (هيه، عليكم واحد وضحكنا عليكم)!!

الأظرف من هذا وذاك – وما أكثـر (هـذا) و(ذاك) على السفينة- أن هذه القوارب مكتوب على البراميل المقفلة عليها شرح طريقة استعمال هذه القوارب باللغة: الإسبانية!!، ولم يحاول أحد أن يترجمها ويعيد كتابتها باللغة العربية حتى

يفهمها الناس (العرب) الذي يعلمون على السفينة (العربيـة)، رغم مضي أكثر من سنتين الآن على وصول سفن الصيد – ومعها هذه القوارب الفزورة- إلى مصر!!

آه، يا أمه ضحكت!!

## والمسألة على

أية حال لم تكن مجرد مسألة سوء اختيار لقـوارب نجاة ساذجة توضع كيفما اتفق على السفينة مـن بـاب سـد الخانة، كأننا رايحين نصطاد من ترعة المحمودية أمام كفـر (أبو طشت)، ولسنا ذاهبين إلى المحيط الأطلنطـي بجلالـة قدره ومقامه الضخم الرهيب، فوالله حتى لـو كنـا ذاهبـين للصيد في ترعة المحمودية لما أفادت هذه القوارب في شيء، فما أكثر ما نسمع الآن عن الصنادل واللنشـات والمعـديات التي تغرق ويبتلعها النيل –الطيب المسالم الحنون المتواضع- بمن فيها ومن عليها عند أصغر القرى على شاطئ النيـل.. ولأصحاب المعديات عذرهم في أنهم جهلة أو لأنهـم غيـر مقدرين لمسئولية الحرص على أرواح الناس، أو حتى لا يهم فقراء وغلابة وهذه هي إمكانياتهم، ما عذر شـركة كبيـرة كشركة مصايد أعالي البحار، تتبع مؤسسة كبيرة كمؤسسـة

الثروة المائية، تتبع وزارة كبيرة وزارة التمـوين!!؟.. أنـا شخصيا لا أعتقد أن هناك عذرا ممكن أن تبرر به الشركة أو المؤسسة أو الوزارة مجازفتهم بأرواح أكثر من ٢٥٠ فـردا هم عدد أطقم السفن الثلاث التي تجري وتروح وتجيء فـي المحيط الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط وهم لا يدرون أن مصيرهم ومصير عائلاتهم معلق بإشارة صغيرة واحد مـن أصابع القدر الذي قد يدفع بهم في أحضان عاصفة صـغيرة تسبب في كارثة رهيبة!!

فكما قلت: المسألة ليست مجرد مسألة إهمال أو سوء اختيار قوارب النجاة فقط، وإنما كان واضحا طـوال المـدة التي قضيناها في هذه الرحلة على السفينة (بـرنيس)، وفـي رحلتين تاليين لها، منهما واحدة علـى سـفينة شـقيقة لـ ـ (برنيس) وتماثلها تماما فـي كـل شـيء، هـي السـفينة (الغردقة).. كان واضحا على مدة الرحلة وبطول المعاشـرة والالتصاق أكثر بالسفينة وبالناس العاملين عليها، وبمعرفـة العيوب في لحظة اكتشـافها، أن المسـألة ماشـية بالبركـة وبالاتكال وبطريقة أي حاجة أو أي كلام، ويوم تحدث كارثة لا قدر الله فسيتبارى المسئولون –في الشركة وفي المؤسسـة

وفي الوزارة- في الدفاع عن أنفسهم وإلقاء الاتهامات بعيـدا عنهم، ومن يدري، فقد يتضح فـي النهايـة أننـا – نحـن الصحفيين اللذين كنا على السفينة- كنا سبب الكارثة!!

قد يكون كلامي قاسيا بعض الشيء، ولكننـي رغـم الأصدقاء الذي كسبتهم وأعتز بصداقتهم بعد ٣ رحلات على سفن الشركة، مثل جميع ضباط وبحارة السفينتين (بـرنيس) و(الغردقة)، ومثل اللواء البحري (عماد الدين مدكور) رئيس مجلس إدارته، والمهندس (عبد الحميد حسين) مدير التفتـيش الفني بها، والقبطانين (عبد السـلام داود) و(كمـال صـقر) اللذين سافرت معهما رحلاتي الثلاث، إلا أنني أضـع أمـام عيني دائما واجبي الصحفي والأمانة التي تقتضي علـي أن أنبه بشكل علني؛ لأن التنبيه في السر لا يأتي بنتيجة غالبـا، واسأل مجرب- إلى الأخطاء التي شهدتها بنفسي على سـفن الصيد، والتي أقل ما فيها أنها تهدد أرواح أكثـر مـن ٢٥٠ بحارا ومهندسا وضابطًا وقبطانًا.. ليس خسـارة كبيـرة أن تغرق السفن الثلاث نفسها كلها حتى، رغم قيمتها التي تبلـغ نحو ٣ ملايين جنيه، ولكن الخسارة الرهيبة الحقيقية فعلاً هي الكارثة الممكن أن تحدث بخسارة أرواح أكثر من ٢٥٠ شابا

من خيرة شبابنا العاملين في البحر، ومدى المصيبة القوميـة الممكن أن تحل بعائلاتهم –وبالدولـة كلهـا- مـن جـراء خسارتهم كشبان أولاً، وكخبرة بحرية كبيرة ثانيا.. وكل ذلك الخطر ممكن تلافيه بشـيء مـن الجديـة أكثـر والحسـم والإصرار على معالجة الأخطاء الموجودة الآن، وبسـرعة جدا، قبل أن تحدث كارثة نتيجة استمرار وجودها!!

اللهم إني قد أبلغت، اللهم فاشهد!!

## وصحيح أن

هناك أخطاء صغيرة يمكن التجاوز عنها، وإن كـان أبسط ما يقال فيها أنها: عيب في حقنا.. وعيـب أن تحـدث على سفينة حديثة جدا لم تنزل إلى البحر إلا منذ نحو سنتين فقط.. وعيب أصلاً أن توجد هذه الأخطاء في شركة كبيـرة جديدة عمرها كله أقل من ٣ سنوات، المفـروض أن يكـون العمل فيها خلاصة تجارب السنوات الطويلة الماضـية مـن عمل شركات القطاع العام.. فمثلاً:

العلم المصري المرفوع على سارية السفينة لكي يدل على جنسيتها: كان قديما وممزقًا ومهلهلاً بشكل لا يليق على الإطلاق بسمعة سفينة محترمة في شركة كبيـرة، ولا يليـق

بسمعة مصر.. والعلم كله لا يساوي أكثر من ريال، وبالكثير خالص ٥٠ قرشًا.. يعني حاجة ما تستاهلشي..!

صفارة السفينة المفروض أن تطلقها للتحيـة أثنـاء خروجها ودخولها من وإلى الموانئ تحية للميناء وللسفن التي تمر بها، كانت عطلانة طول الوقت، وكانت السفن تحيينا فلا نستطيع الرد على تحيتها!!.. وسمعت سـببا غريبـا عـن تعطلها، هو من غير الممكن إصلاح هـذه الصـفارة فـي مصر!! يعني صنعنا صواريخ الظافر والقاهر وعجزنا عـن إصلاح: صفارة!!

راديو السفينة الذي له توصيلات وسماعات في كـل مكان في السفينة ليتابع الناس العاملون على السفينة أخبـار مصر وأحوال مصر ويستمعون إلى صوت مصر في مكانهم هذا البعيد عن مصر بثلاثة آلاف ميل في البحر، كانت تمـر أيام لا نكاد نسمعه فيها، ليس العيب في جهاز الراديو نفسـه لا سمح الله، ولكن لأنه كان يفتح فـي أوقـات قليلـة جـدا وبسيطة جدا وبلا مواعيد.. ومر علينا يوم ٥ يونيو ونحن في وسط المحيط الأطلنطي في لهفة وترقب وأنفاسـنا محتبسـة لمعرفة ماذا تم في مصر في هذا اليوم في ذكـرى العـدوان

الغادر، ولكن الراديو لم يفتح حتى في نشرات الأخبار، ولـم يجرؤ واحد من ضباط ومهندسي السفينة أن يطلب من كبير الضباط فتحه؛ لأن (عباس) كانت وجهة نظـره أن صـوت الراديو يشغل البحارة عن أعمالهم ويعطلهم، كأنهم يكتبـون شعرا أو يؤلفون قصصا مثلاً! في الوقت الذي كنا نفاجأ فيـه بالراديو مفتوحا على آخره يذيع أغاني سنية حنفـي وتفيـدة عوضين وحديثًا للدكتور عبد الحفيظ عبد الشكور المحلاوي في الفرق بين الري الدائم وري الحياض وأثرهما في تربيـة الأطفال الذين لم يولدوا بعد!!

جهاز العرض السينمائي الموجـود فـي السـفينة، خرجت به السفينة في رحلتها الطويلة المقدر لها أن تستمر ٣ شهور وليس به غير لمبة عرض (فوتوسيل) واحدة.. وهـذه اللمبة لو احترقت –وهذا شيء يمكن أن يحدث بسهولة جـدا في أي لحظة- فستتوقف السينما وهي وسيلة التسلية والترفيه الوحيدة الموجودة علـى السـفينة، عـن العمـل تمامـا.. والمفروض أن يكون مع كل جهاز عرض على سفينة دستة لمبات على الأقل من هذا النوع كرصيد احتياطي..

شيء آخر يتعلق بالسينما على السفينة أيضا.. وهـي أن الأفلام الموجودة بها لا تتغير علـى الإطـلاق، فعـددها أربعة أفلام فقط وعرضت هي في كل رحلة مـن رحـلات السفينة إلا ربع منذ بدأت عملها وحتى رحلتنا معهـا، حتـى ذاكر الضباط والبحارة هذه الأفلام وحفظوها، ولو امتحنـوا فيها لكانت نسبة النجاح ١٠٠% وبالدرجات النهائية.. ولكنهم جميعا مازالوا يشاهدون نفس الأفلام في كل رحلة من بـاب "مكره أخاك لا بطل"، حايروحوا فين وحايعملوا إيـه غيـر كده؟ وهم لقوا قدامهم حاجة غير كدة وما عملوش!؟

والمفروض أن تتغير الأفلام السينمائية الموجـودة على سفينة في كل رحلة، حتى ولو بالإيجار مـن شـركات الإنتاج السينمائي، القطاع العام أو الخاص، ولو بالاسـتعارة من الجهات التي لديها أفلام خاصـة كهيئـة الاسـتعلامات ووزارة السياحة والثقافة الجماهيريـة بـوزارة الثقافـة أو التليفزيون العربي وغيرها من الجهات والهيئات، فإن تغيـر هذه الأفلام وتعددها له في تقديري واعتباري غرض آخـر بالإضافة إلى الترفيه عن الضباط والبحـارة علـى السـفن، سأوضحه في النقطة التالي:

فحين ترسو سفينة من سفن الصيد المصـرية علـى أحد الموانئ الأجنبية سواء في إسبانيا أو فـي دول غـرب أفريقيا –كما حدث كثيرا ويحدث الآن وسيظل يحدث دائما- فإن العرب من كل الدول العربية والمصريين المقيمين فـي هذه الدول يتسابقون إلى استقبال السفن المصرية وبحارتهـا وضباطها والترحيب بهم ودعوتي إلى بيوتهم وإلى الأنديـة العربية في هذه الموانيء –كما رأيت بنفسي في ميناء (لاس بالماس) بجزر الكناريا- ويكون هؤلاء العرب في شوق شديد جدا إلى قراءة أية كلمة عربية مطبوعة في صحيفة أو مجلة أو كتاب، وإلى سماع أية أغنية عربية مسجلة على أسطوانة أو شريط تسجيل ومشاهدة أي فيلم عربي أيـا كـان شـكله ونوعه وتاريخه وأبطاله..

وبعض سفن الصيد توافق على عرض الأفلام التـي معها في الأندية العربية هناك، وبعضها ترفض، مع أن فـي عرض هذه الأفلام على العرب المقيمين هناك وأصدقائهم من الإسبان أو الأفريقيين دعاية كبيرة لبلادنا ولمناطقنا السياحية والأثرية.. دعاية من كل نوع، مباشرة وغير مباشـرة، لـو استطعنا الاستفادة منها بـأن: أولاً – تـدعم سـفن الصـيد

المصرية وتزود بعدد كبير من الأفلام المصـرية الحديثـة المختلفة المتجددة والمتغيرة والمتنوعة باستمرار..

ثانيا – أن يكون لدى قباطنة هذه السـفن تعليمـات صريحة وواضحة بالموافقة، بل بمحاولة عرض هذه الأفلام في الأندية العربية –أو حتى في أي مكان يطلب عرضـها- ويعتبر قباطنة السفن هذه المهمة واجبـا دعائيـا قوميـا لا يتكاسلون عن تنفيذه كما يحدث أحيانًا ودون مناسـبة ودون سبب واضح.. وهذا الكلام أضعه أمام أنظار المسئولين فـي وزارة السياحة وهيئـة الاسـتعلامات ومؤسسـة السـينما المصرية ومنتجي القطاع الخاص و(سعد الدين وهبة) وكيل وزارة الثقافة، وهيئة التليفزيـون العربـي وكـل الجهـات والهيئات المعنية.

نقطة أخيرة أحب أن أذكرها فيما يتعلق بالسينما على سفن الصيد، وهي أن يختار المسئولون –سواء فـي شـركة مصايد أعالي البحار أو في الجهات المسئولة التـي سـتزود السفن بالأفلام فيما بعد- أن يختاروا بعنايـة الأفـلام التـي تعرض في هذه السفن، أن تكون أفلاما مرحـة كوميديـة أو غنائية واستعراضية، فكفى العاملين على السفن ما هم فيه من

تعب وإرهاق ومجهود مضنٍ ووجع قلب طول النهار، فـلا تختتم سهرتهم بعد ذلك بأفلام كلها حزن وانقبـاض ومثيـرة للأعصاب بما فيها من مآس وكوارث ومصـايب، كـالأفلام التي شهدتها على سفينتنا (برنيس)، مثل فيلم (هدى) للبنـى عبد العزيز، وفيلم (الزوجة العذراء) لفاتن حمامة، فالبحـارة يريدون بعد يوم عمل شاق ومتعب يهد الحيـل أن يشـاهدوا فيلما كوميديا مرحا ظريفًا يضحكون له وينسون معه متاعب عمل اليوم المنقضي ويستقبلون غدهم الجديد بنفوس منشرحة متفتحة..

## كفانا حديثًا

عن المشاكل والعيوب والأخطاء الآن، تلك المشاكل والأخطاء والعيوب التي جعلت البحارة الظرفاء يحرفون اسم الشركة صاحبة سفن الصيد من: (شـركة مصـايد أعـالي البحار) إلى (شركة (مصايب) أعالي البحار)!!

بعد انتهاء الصيد اليوم رست السـفينة أمـام مدينـة (كاب دمرار) في موريتانيا.. وعند منتصف الليـل صـعدنا شلة من ضباط السفينة إلى (البريدج)، وهـو مكـان متسـع ظريف في أعلى السفينة أمام غرفة القيادة مباشـرة، حيـث

قضينا سهرتنا هناك: الضـابط الثـاني (سـامي البرعـي) والضابط الثالث (أحمد عرب حبيش) والمصور (عبد المنعم طاهر) وأخصائي الملاحة (محسن النوبي) ومهندس الكهرباء الصغير (ناجي نوار) ومهندس التبريـد (فهمـي عجمـي) وأخصائي الأسماك (عبد المعبود النديم)، وأنا.. بعيـدا عـن عيون (عباس) كبير الضباط تحلو السهرة ويصبح الضـباط والمهندسون الشبان على طبيعتهم ومرحهم وانطلاقهم الـذي يتناسب مع أعمارهم التي لا يزيد متوسطها على ٢٦ سـنة.. (سامي البرقي) راح يغني في وجوهنا بالإنجليزية بطريقـة ترجمانات السياحة عند الهرم ودار الآثـار وأبـي الهـول و(جبت بكشيش يا خواجة).. أطلقنـا عليـه لقـب مطـرب خادمات الإبراهيمية وجليم وما وراء محطـة الرمـل!! ثـم وصلة رقص بلدي من الراقصة اللولبية (ناجي نوار) –الذي يعمل في الصباح مهندسا للكهرباء على السفينة- وهو يرتدي بنطلون وبول أوفر الرقص الشرقي.. ثم شـاركه (محسـن النوبي) في رقصة مشتركة لم يترجماها لنا لنعرف من أيـة جنسية هي، ولعل السبب في ذلك أنهما هما شخصيا لم يتفقـا على جنسيتها!!.. ثم عاد (سامي البرقي) بعد أن فشـل فـي

إقناعهما بأنه مطرب يحاول أن يقنعنا بأنه شاعر، فقرأ فينـا قصيدة (نزار قباني): (ماذا أقول له لو جاء يسألني) بطريقة جعلتنا نكره (نزار قباني) وكل من قال شعرا تسبب فـي أن نصاب بإلقاء (سامي البرقي) الألعن من دوار البحر نفسـه.. وتبعه (ناجي نوار) مرة أخرى بإلقاء نشيد مراهقي السـفينة: (الليلة بايت عندنا، لازم لازم عندنا)!!

واكتملت السهرة حين وصل كبير المهندسين (حنـا يعلم الله) والباحث (بهجت قـارح حبشـي) ومعـه جـردل المعلومات، ليفتحا الباب لمناقشة دينية ظريفة جعلـت كبيـر المهندسين ينسحب بعد فترة قليلة؛ لأنه راجـل متـدين ولا يستطيع أن يشترك في مناقشة مثل هذه الأمور مع: (شـوية عيال غجر قلالات الدين كفرة عايزين الحرق زيكم)!!

# الفصل الحادي عشر

## حين تسير السفينة على طريق مرصوف..

## وحين يأتي

الليل ومعه ظلامه الدامس الذي ينشره فوق سـطح المحيط، وترسو سفينتنا في وسط الماء بعد أن تضيء فـوق صاريها العالي الأضواء التي تعلن لكل السفن التي تمر قريبة منها أن عليها هي أن تبتعد عن (موقفنا).. فإن أية أضـواء أخرى نراها متحركة فوق سطح المحيط، فـذلك يعنـي أن هناك سفينة ما تشق طريقها إلى وجهتها غير متوقفة أثنـاء الليل، إذ ليس هناك ما يمنع أن تظل السفن سـائرة خـلال الليل، على أن تكون أكثر حرصا وحذرا وانتباهـا حتـى لا تصطدم بسفينة راسية ومتوقفة مثل سفينتنا.. وتسمى ورديـة ضباط السفينة الذين تكون نوبة عملهم أثناء الليل الـ ـ (دوج ووتش) أو (كلاب المراقبة).. لأنهم يكونون أشـبه بكـلاب الحراسة اليقظة حادة البصرة، فهم لا يهمدون لحظة واحـدة طوال الليل ولا يفكون عن التحديق بشدة في الظلام خوفًا من سفينة تكون (شيش بيش) أو مدغششة تصطدم بهـم.. أمـا وردية الضباط الذي يعملون في فترة الصباح فتسمى (وردية الموظفين)؛ لأنهم يؤدون عملاً روتينيا في وضح النهـار لا يتطلب جهدا كبيرا ولا تنبها شديدا..

ليلة أمس، كنا نسهر في غرفة قيـادة السـفينة مـع وردية (كلاب الليل) السهرانة التي يرأسها الضـابط الثـاني (محمود سامي البرقي)، حين كانت تمر على بعد عدة أميال منا سفينة أخرى لم نر منها وسط الظلام غير أضوائها فقط.. وفجأة علت في غرفة قيادتنا أصوات موريس تنادي سفينتنا، فقام (سامي البرقي) يرد عليها.. كانت الإشارات من السفينة التي تمر قريبة منها، من أحد أفراد وردية (كلاب المراقبـة) الساهرة عليها: طالب بحري أو (كاديت) أو ضـابط تحـت التمرين، سويدي الجنسية اسمه (فرانشيسكو) يتـدرب علـى السفينة الدانمركية التي تعبر المحيط عكـس اتجاهنـا فـي طريقها إلى إنجلترا.. لاحظ (فرانشيسكو) أضـواء سـفينتنا فأراد أن يسلي نفسه في وحدته، فاتصل بنا ليسـألنا: (مـن أنتم؟) فرد عليه سامي: إحنا سفينة صـيد مصـرية، فعـاد (فرانشيسكو) يسأل: (ورايحين فين؟)، أجاب سامي: (رايحين نصطاد طبعا).. وامتد بينهما الحديث –بواسـطة إشـارات المورس- نحو نصف ساعة، قـال خلالهـا (فرانشيسـكو) لسامي: إن هذه هي الرحلة الأخيرة له كـ (كاديت) أو طالب بحري أو ضابط تحت التمرين يعود بعدها إلى وطنه السويد

ليصبح ضابطًا رابعا ويبدأ حياته العملية الحقيقية في البحرية كضابط فعلاً.. وفي نهايـة الحـديث تمنـى (فرانشيسـكو) السويدي للسفينة المصرية رحلة صيد موفقة وسعيدة..

غلابة والله ناس البحر دول، سواء كانوا مصريين أو غير مصريين.. من المؤكد أنهم لا يحيون حيـاة اجتماعيـة عادية ولا طبيعية، وليست لديهم صداقات دائمة ولا علاقات ثابتة.. فالشخص الذي يقضي ٨٠% من عمره في البحر بين الماء والمساء قطعا يفقد الاهتمام بأشياء كثيرة ويصبح ملولاً عجولاً يريد أن يحصل على كل شيء –وهو علـى البـر- بسرعة وقوام قوام.. ولا وقت لديه لتكوين صداقات وطيـدة ولا ارتباطات أكيدة.. والعلاقات السريعة التـي تنشـأ بـين ضباط السفن التي تتقارب في البحار والمحيطات – ولو على بعد أميال عديدة- إنما هي نوع من الائتناس بـأي مخلـوق مختلف عن الذين يعرفهم البحار ويعاشـرهم علـى سـطح سفينته.. حتى ولو كان هذا الائتناس عن طريـق إشـارات المورس!!

## وبمناسبة كلمة

(كاديت) فإن هذه الكلمة (تعني: ضابط بحري تحـت التمرين).. فالمفروض أن كل طالب يتخرج فـي الكليـات البحرية التجارية لا يصبح ضابطًا بحارا على الفور، وإنمـا لابد له أن يقضي سنتين كاملتين في البحر فعلاً كضابط تحت التمرين، يتقاضى خلالها مرتبـا رمزيـا –أو لعلـه يعتبـر (مصروفًا)!!- يتراوح بين خمسة وعشرة جنيهـات فقـط، وتسمى هذه الفترة (سـي سـيرفس Sea Service، يـؤدي بعدها امتحانًا في أعمال ضابط بحري رابع، ويرقـى إلـى وظيفة ضابط ثالث وضابط ثان دون امتحان آخر، ولكنه لابد أن يكون قد قضى ١٨ شهرا كاملة في البحر بعـد حصـوله على شهادة الـ (سكند ميد) قبل أن يسمح له بأداء امتحـان آخر للحصول على شهادة (فيرست ميد) التي تؤهله لوظيفـة (ضابط أول) أو (كبير ضباط).. وهذه الوظيفة أيضـا مـن الضروري أن يقضي فيها ١٨ شهرا ثالثة في البحـر حتـى يصبح من حقه أن يمتحن للحصول على شهادة (ماسـتر) أو (ربان أعالي البحار) التي تسمح له بشغل وظيفة (قبطـان)، وهي أقصى درجة في الشهادات البحرية..

والضباط تحت التمرين منتشرون على كـل السـفن المصرية، ولدينا منهم على سفينتنا (برنيس) في رحلتنا هـذه اثنان فقط هما: (محمد جلال منير صلاح الدين) و(محمـود سامي محمود السيد) من خريجي آخر دفعة تخرجـت فـي الكلية البحرية التجارية.. وكلاهما صغير ورشيق وشـكلهما تلاميذي وواضح جدا أنهم فعلاً أصغر اثنـين بـين ضـباط السفينة، فجلال عمره ٢٢ سنة، وسامي عمـره ٢١ سـنة، وهما يعاملان على السفينة معاملة الضباط في كل شـيء إلا في النوم، فهما ينامان في قمرات البحارة، وأعتقـد أن ذلـك يحدث على سفينتنا هذه فقط لضيق ذات الأماكن ليس إلا.

## رابع حريق

يحدث في السفينة خلال رحلتنا حـدث اليـوم فـي المطبخ.. كان البحر عاليا بعض الشيء، وداعبت الأمـواج سفينتنا ولاعبتها، ولكن زادت في المداعبة قليلاً فراحت تميل السفينة على جانبيها يمينًا ويسارا، مما أدى إلى دربكة أجهزة البوتجاز في المطبخ الذي كان يعد لطعام الغداء فـي ذلـك الوقت، فاندلق الجاز على أحد الموتورات فاشتعلت فيه النار، ولكنها لم تدم طويلاً؛ إذ سرعان ما هب البحـارة لإخمادهـا

بسرعة.. والحمد لله أن ذلك حدث أثناء النهار والسفينة كلها مستيقظة، فلحقناه في بدايته، إذ لو حدث في الليل والمطبخ يقع في منتصف السفينة بالضبط وتحت غرفة القيادة فيها، لا يفصل بينهما غير صالون الضباط.. لو حدث ذلك الحريق بالليل لكانت كارثة محققة..

وقد أيقظ حريق موتور المطبخ في ذهني كل الأخطاء التي كنت ألاحظها والتي تتعلق بالأمن الصناعي وبالخطورة الممكن أن تهدد حياة الناس على السفينة وتهددها هي نفسها بالغرق، أو على الأقل –وذاك أضعف الإيمان، إذ إن أرواح الناس تأتي دائما في المرتبة الأولى في نظري، وأي خسارة مادية مهما كانت قيمتها تأتي بعد ذلك في الترتيب –أقول: أو على الأقل تهدد السفينة في عملها الذي خرجت من أجله إلى المحيط الأطلنطي في أقصى الدنيا بعيدا عن الوطن بـ١٣ يوما ذهابا ومثلها إيابا، وفي رحلة طولها عشرة آلاف ميل استغرقت منا شهرين كاملين بالتمام والكمال، وكانت قبل ذلك تستغرق أكثر من ذلك بكثير.. ورغم أن الرحلة –رحلتنا- قد جاوزت الآن منتصفًا ودخلت في الثلث الأخير لها، إلا أننا ما زلنا نكتشف في كل يوم خطأ

جديدا مهددا، بل وظللنا حتى لحظة دخولنا إلى الإسـكندرية منهين رحلتنا نكتشف في كل يوم خطأ جديدا يثير الدهشة قبل المناقشة: كيف ظلت السفينة تسير وتعمل طيلة شهرين وهذا العيب الفني فيها كل هذه المدة؟! بل وكيف، أصلاً، خرجـت السفينة من الحوض الجاف – قبل الرحلة مباشـرة- دون أن يكتشف الفنيون والمهندسون، سواء مهندسو الحوض الجـاف أو مهندسو السفينة أو مهندسو الشركة والتفتيش الفني بهـا، هذه الأخطاء!؟

هناك أخطاء صغيرة بعضـها تنظيميـة، وبعضـها إدارية، وبعضها إهمالية، وبعضها استهتارية.. فمثلاً:

الثلاجة الموجودة في (ميس البحارة) عطلانـة منـذ الرحلة السابقة وكان المفروض أن يتم إصلاحها في الفتـرة التي قضتها السفينة في ميناء الإسكندرية بين نهاية الرحلـة الماضية وبداية هذه الرحلة، وهي تقرب من شهر، لكن ذلك لم يحدث، وخرجت السفينة في رحلتها الجديدة بنفس الثلاجة العطلانة.. وعلى أية حال فإن الثلاجة لم يكن لها لزوم أصلاً –في هذه الرحلة بالذات- فلم يكن هناك ماء للشرب ليوضـع فيها!!

ونفس ما يقال عن ثلاجة (ميس البحارة) يقال أيضـا عن الغسالة المرمية كالقتيل في حمـام الضـباط.. غسـالة ملابس كبيرة فاخرة –مستوردة!!- ولكنها عطلانـة وملقـاة بإهمال في حمام الضباط دون إصلاح حتى أكلهـا الصـدأ وقضى عليها.. وتخرج السفينة بها في رحلتها هكذا دون أن يفكر واحد من المسئولين الهندسيين فيها –أو في الشـركة- في إنزالها من على السفينة لإصلاحها رغم الفترة الطويلـة التي قضتها السفينة في الميناء!!

هل تريدون نكتة ظريفة: خرجت السفينة في رحلتها التالية أيضا –بعد التي كنا عليها فيها- وعليها أيضـا نفـس الثلاجة ونفس الغسالة: عطلانتين أيضا!!

والمفروض أن تكون بمستشفى السفينة ثلاجة لكـي توضع فيها الأمصال التي يحتاج إليها العمل في المستشـفى والتي من الضروري أن توضع في درجة بـرودة معينـة.. ولكن –وذلك حدث في السفن الثلاث التي تمتلكها الشـركة- حين جاءت الثلاجة الخاصة بالمستشفى لم يراع عند طلبهـا مقاسات أبواب المستشفى فلم يتسع الباب لمرورها إلى داخل المستشفى!!.. وكان المفروض أولاً –والشـركة بهـا ١٠٠

مهندس- أن يوضع في الاعتبار مقاسات الأبواب قبل شراء الثلاجة، فإذا حدث خطـأ وجـاءت الثلاجـة –التـي مـن الضروري وجودها في المستشفى- أكبـر مـن الأبـواب، فالطبيعي جدا هو أن تستبدل بالثلاجة واحدة أخرى أصغر.. لكن الذي حدث ببساطة جدا أن قال أولو الأمـر وأصـحاب التصرف: إذا كانت الثلاجة مش داخلة من باب المستشـفى يبقى نخليها بأه عند كبير المهندسين في الكابينـة بتاعتـه.. ويبقى طبيب المستشفى يحط الأمصال بتعاته في الثلاجة عند الباشمهندس!!

والتصرف الذي تم مع ثلاجة المستشفى تصرف ذكي فعلاً وعبقري، ولا يفوقه ذكاء وعبقرية إلا ذلـك التصـرف الآخر الذي جعلهم يعينون على السفن –التي تضم كل واحدة منها ٨٥ رجلاً وليس عليها امرأة واحدة- طبيبا!! وشـاءت العبقرية أن يختاروا أطباء متخصصـين، فكـان الاختيـار الذكي.. إذ من بين كل التخصصات الأطباء المتاحة اختارت العبقرية: أطباء أمراض نساء!!

وكما قلت في فصل سابق، فإنني والسفينة في المحيط الأطلنطي كنت في عز شهر يونيو أشعر بالبرد الشديد ينفـذ

إلى عظامي في أثناء الليل؛ إذ إن السفينة نفسها سفينة ثلاجة، وما إن يبدأ الواحد في النوم حتى يشعر كأن الحرارة تنسحب من جسمه وأن جسمه يتثلج حتى ليخيـل إليـه أن روحـه تنسحب منه ببطء.. وكان الله في عون البحارة الذين يعملون في فرز السمك وفي المجمدات أو غرف التثليج في درجـة برودة ٣٥ تحت الصفر، وفي المخازن التي يتم فيها تخـزين السمك بعد وضعه في العلب الكرتون في درجة بـرودة ٢٠ تحت الصفر.. صحيح أنهم يرتدون ملابس خاصـة مبطنـة لحمايتهم، ولكن إذا كان البرد الشنيع يتسلل إلينا في قمراتنـا التي نعيش فيها في درجة الحرارة العادية، حرارة الجو، وفي شهر يونيو، فماذا يمكن أن يحدث معهـم هـم تحـت فـي الثلاجات رغم الملابس المبطنة، وماذا يمكن أيضا أن يحدث لهم في شهور نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير!!

## في الوقت

نفسه كانت هناك أخطاء كبيرة حدثت خلال الرحلـة هددت أرواح الناس على السفينة وهددت السفينة في مهمتهـا وفي نجاح رحلتها.. وأول ما يقال في سـبب حـدوث هـذه الأخطاء هو إهمال واستهتار المسئولين الهندسيين عن سـفن

الصيد هذه، خصوصا الذين يعملون على البر ولا يهمهم إلا زحلقة السفن حتى تخرج من ميناء الإسكندرية وتبتعد عـنهم بأي شكل، وبعد كده اللي يحصل يحصل إن شاء الله تغـرق حتى، ولا يهمهم، وتصطاد ما تصطادشي إن شـاء الله مـا عنها اصطادت.. كأن تخرج السفينة بعد فترة طويلة قضـتها في الحوض الجاف لفحص كل شـبر فيهـا فحصـا كـاملاً وإصلاح كل الأعطال التي تكتشف تحـت إشـراف كبـار باشمهندسي الشركة والمسئولين عن التفتيش الهندسي فيهـا، وبالمناسبة: الشركة فيها باشمهندسين أكثر من عدد المهندسين الصغار، للعلم فقط!!

ثم تخرج السفينة من الحوض الجاف لتبدأ رحلتهـا، وبعد ٣ أيام فقط من بداية الرحلة، ونحن ما زلنا في البحـر المتوسط في طريقنا إلى المحيط الأطلنطي، يكتشف وجـود شرخ في خزان الوقود رقم ٨.. ولو كان هذا الشرخ قد حدث بعد قيام السفينة من الإسكندرية لكان ذلك أمرا طبيعيا، ممكن أن يحدث في أي وقت.. ولو كان قد حـدث فـي الحـوض الجاف ولم ينتبه إليه أحد لكان ذلك إهمالاً عاديا برضه ممكن أن يحدث –في بلادنا- في أي وقت.. ولكنه حدث قرب انتهاء

الرحلة السابقة للسفينة، وتسبب عنه –منعا لأي خطر ممكـن أن يترتب على وجود شرخ في خزان الوقود- تسبب عنه أن السفينة اضطرت إلى إفراغ ٣٣ طنًا من وقودها ثمنها ٦٦٠ جنيها في عرض البحر الأبيض المتوسط.. معنـى ذلـك أن حكاية شرخ خزان الوقود هذه لابد وأن تكون أثارت اهتمـام المسئولين في الشركة وفي إدارتها الهندسية، كمـا أثـارت القبطان (عبد السلام داود) حين تقرر أن يتسلم قيادة السـفينة لرحلتنا هذه، فقرأ التقارير الفنية والهندسـية عـن الرحلـة السابقة ولاحظ حكاية شرخ خزان الوقـود بالـذات، ونبـه الإدارة الهندسية إليه فقيل له: إن إصلاح هذا العطب قد تـم وأصبح الخزان (عال العال، والأشيا معدن) ولم يعد هنـاك شرخ ولا حاجة.. ثم نكتشف بعد قيام الرحلة ونحن في وسط البحر أن الشرخ كما هو لم تمتد إليه أي يد بأي إصـلاح.. وقيل بعد ذلك في تبرير ذلك: إنهـم –ببسـاطة جـدا- لـم يستطيعوا أن يكتشفوا مكان الشرخ!!.. والسؤال الـذي ظـل يؤرقني بعد ذلك طوال الرحلة هو: كيف أمكـن أن تخـرج السفينة من الحوض الجاف، ثم تخرج إلى البحـر، دون أن يتم إصلاح ذلك الشرخ!؟.. ثم ذلك المسئول (الأمين) الـذي

كتب وقال: "إنه قد تم إصلاح الشرخ" على أي أساس كتـب ذلك!؟ إذا كان قد كتبه عن جهل فهو غير جدير بالبقاء فـي مركزه، وإذا كان قد كتبه عن استهتار بأرواح الناس الـ٨٥ الذين يعملون على السفينة الممكن أن تغرق بسـبب شـيء كهذا، فهو عايز قطع رقبته ويستحق المحاكمة والتأديب بشدة والجلد علنا في ساحة الكلية التي تخرج فيها؛ لأن الأمور لا تمشي في البحر بالبركة وخليها على الله وربك هو السـتار، وإنما تمشي بالهندسـة والمهندسـين الأمنـاء المخلصـين، الفاهمين!!

وكما أوضحت في فصل سابق قصة خروج السفينة: سفينة الصيد، إلى رحلة صيد تكلفت ٥١ ألف جنيـه، بغيـر شبكة تصطاد بها!!.. فإن السفينة –نفسـها- خرجـت إلـى الصيد أيضا وهي تنقصها (ماسورة) معينة صغيرة وإن كان دورها كبيرا.. فهي المساورة التي يوصل عن طريقها غـاز (الفريون٢٢) إلى ثلاجات تجميد الأسـماك، وبغيـر هـذه الماسورة لا يمكن توصيل الغاز إلى الثلاجات، وبالتـالي لا يمكن تثليج السمك!!.. ولم نكتشف عدم وجود هذه الماسورة إلا بعد وصول السفينة إلى المحيط الأطلنطي فعلاً على بعـد

١٣ يوما من الإسكندرية!! وبالرغم من أن جزءا كبيرا مـن مسئولية فقدان هذه الماسورة يرجع إلى عدم مراجعة مهندس التبريد لأدوات التبريد الأساسية المفروض أن تكون موجودة في قسم التبريد الذي يرأسـه، إلا أن ذلـك لا يعفـي مـن المسئولية كبير مهندسي السفينة المفروض عليه أن يراجـع ويتأكد بنفسه من أن كل شيء تمام فعلاً؛ لأن هـذه الرحلـة ليست فسحة إلى القناطر الخيرية ولا مشوار لزيـارة طـنط تفيدة، لكنها رحلة ضخمة ينفق عليها عشرات الألـوف مـن الجنيهات.. ولكن كبير مهندسي السفينة نفسه حدوته أخـرى تستحق كتابا بحاله، سنصل إليها مع الوقت!!

## ولو كان

الأمر قد اقتصر على مثل هذه الأخطاء لهان، لكـن هناك أخطاء أخرى أكبر وأخطر.. مثلاً: رغم أن المشـروع حديث جدا عمره أقل من ٣ سنوات فقط، وأتيحت لـه منـذ البداية حتى الآن ميزانيات تقدر بعدة ملايين من الجنيهـات، إلا أننا وقعنا في خطأ كبير ما كـان ينبغـي أن نقـع فيـه، فالمفروض دائما كل المشروعات التي تنفذها الدولـة –أيـة دولة- أن تبدأ دائما من حيث آخر وأحدث تطورات وصـل

إليها العالم في الخارج، ولا يحدث العكس، يعنـي ألا نبـدأ مشروعنا من نفس البداية التي بدأتها دول العالم منذ ٢٥ سنة مثلاً.. لكن ذلك بالضبط ما حدث في مشروع الصـيد مـن أعالي البحار.. فضلاً عن أن سفن الصيد الثلاثة التي صنعت لحسابنا في ترسانة ميناء (فيجو) بإسبانيا، بمواصفات طلبناها وحددناها نحن شخصيا، باختيارنا ولم يرغمنا أحد عليها، لم تكن على أحدث المواصفات العالمية لسفن الصيد، سواء من ناحية أجهزة التبريد وتثليج الأسـماك وضـعف الأونـاش والأعطال الكثيرة جدا التي تحدث في الكهرباء.. فضلاً عـن كل ذلك فإن طريقة الصيد نفسها التي اخترناها لنعمـل بهـا وهي طريقة (الصيد القاعي) ليست هي الطريقـة الأفضـل والأسهل والأكثر إنتاجا في عالم الصيد الآن.. فإن سـفننا لا تستطيع بهذه الطريقة أن تصطاد إلا الأسماك التي تكون على قاع المحيط تماما يعني على أرض المحـيط حيـث ينتهـي الماء، وهذه الطريقة تضع في الاعتبار دائما احتمال فقـدان شباك الصيد في أية لحظة نتيجة اشتباكها بأي بـروز فـي أرضية المحيط –والشبكة الواحدة ثمنها ألف جنيه-.. وفضلاً عن الجهد الكبير والوقت الطويل الذي يبذل فـي عمليـات

الصيد نفسها، فإن كميات الأسماك التـي تسـتطيع السـفينة صيدها يوميا بهذه الطريقة أقل كثيرا من كميـات الأسـماك الممكن أن تصطادها بطريقة (الصيد السـطحي) أو صـيد السمك القريب جدا من سطح الماء، موفرة بذلك جهدا ووقتًا –والجهد والوقت يساويان أموالاً من غيـر شـك- وتكـون مطمئنة أيضا إلى عدم وجود أية خطورة على شباكها من أن تشتبك ببروزات وصخور القاع.. كما أن حصـيلة السـمك أيضا تكون أكبر كثيرا.

وحين أرادت الشـركة أن تـدعم أجهـزة سـفينتنا (برنيس) التي رافقناها في رحلتها بجهاز رادار آخر إضافي لزيادة ضمانات الأمان، فإن هذا الجهاز الـذي دفعـت فيـه الشركة –أو الدولة- عدة ألوف مـن الجنيهـات بـالعملات الصعبة لم يخرج قط من صندوقه حتى الآن، ولم يجدوا لـه مكانًا يضعونه –آمنًا- فيه غير على باب المستشفى، حيـث يستعمله البحارة كترابيـزة للعـب الطاولـة فـي المسـاء، ويستخدمه (محمد عيسى) الحلاق كصالون حلاقة يضع عليه أدواته وأمشاطه وأمواسه، ويتسرب إليه في كل لحظة المـاء المالح –إلى صندوق جهاز الرادار طبعا وليس إلـى محمـد

عيسى- الذي يصل إليه إذا ارتفعت أمواج البحـر قلـيلاً أو حين تتم عملية غسيل السفينة كل صباح، ومن المحتمل جـدا أن يكون الجهاز الجديد الذي لم يفتح قط فسد الآن وانتهـى أمره!!

وبمناسبة جهاز الرادار الجديد، فإن أجهزة الـرادار المركبة فعلاً في سفن الصيد، وكذلك أجهزة قياس الأعماق، كثيرا ما تتعطل دون سبب واضح، مثلما حدث معنـا علـى السفينة (الغردقة) أخت (برنيس) وكنت عائـدا عليهـا مـن إسبانيا في رحلة أخرى أعقبت رحلتنا هذه.. حـين (تهنـا)، أي: والله تهنا حقيقة، ونحن على باب الإسكندرية وعلى بعد ١٠ دقائق منها.. ولم نستطع العثور على طريقنا إليها مـرة أخرى إلا بعد نحو ٥ سـاعات.. نتيجـة أن جهـاز قيـاس الأعماق أظهر فجأة أن سفينتنا تسير على: لاعمق، أو عمق صفر!! بمعنى أنها إما تسير على (قاع) البحر نفسه، أو أنها خرجت من البحـر وتسـير علـى الطريـق الصـحراوي المرصوف!!.. ورغم أن الشاطئ لم يكن قد ظهر لنا بعد، لا بالعين المجردة ولا حتى بالنظارات المعظمة، فإن القبطـان (كمال صقر) رأى –إيثارا للسلامة- أن يغير اتجاه السـفينة

تماما ويجنح بها بأقصى سرعة ممكنة إلى داخل البحر مسافة كبيرة؛ حتى يبتعد عن عمق الـ (صفر) هذا.. وكلما ازددنا توغلاً في البحر كلما أظهر جهاز قياس الأعماق أن السـفينة قد عبرت –كمان- خط الصفر وبدأت تصعد جبلاً!!

وكما فسد جهاز قياس الأعماق لوحـده مـن غيـر مناسبة عاد إلى حالته الطبيعية وحده، وعدنا نحن أيضا إلـى طريقنا المرسوم، ودخلنا الإسكندرية متأخرين عن موعـدنا المفروض ١٢ ساعة كاملة، والحمد لله اللي جت على كده!!

## تصرف غريب

حدث الليلة، كانت له مقدمات منذ أيـام حـين قـام (حمدي حافظ) الضابط الإداري بالسـفينة وزعـيم البكبكـة والهمس والإشاعات فيها، قام بترويج إشاعة تقول: إنني قـد كتبت في نوتة مذكراتي التي أسجلها عـن الرحلـة أشـياء خطيرة جدا عن السفينة.. وروج هذه الإشاعة بطريقة أثارت فضول بعض الناس من أصحاب الفضـول، أو مـن الـذين تصوروا أنه قطعا بهذه الأشياء الخطيرة جدا لابد وأن تكون تمسهم!!

والليلة في الثانية صباحا، كنت سهران وحدي أكتب في صالون الضباط، وشوية وجاء الضابطان الشابان (ناجي نوار) مهندس الكهرباء، ورفيقي في قمرتي (فهمي عجمـي) مهندس التبريد، وجلسا يدردشان معي.. ثم اقترحا أن نلعـب فورة (كونكان)، فأقفلت أوراقي التـي كنـت أكتـب فيهـا ووضعتها داخل نوتة مذكراتي، ووضعت النوتة كلها علـى مائدة صغيرة خلفي، وانهمكنا في اللعب، وأثناء اندماجنا في اللعب دخل إلى الصالون بعض الضباط، مثل (عباس) كبير الضـباط و(محمـد حسـن هـارون) ضـابط اللاسـلكي والباشمهندس (حنا يعلم الله) الذي كان يقف ورائـي طـول الوقت يراقب اللعب. وانتهينا من اللعب قرب الرابعة صباحا، وبدءوا جميعا ينصرفون واحدا بعد آخر ليذهبوا للنوم، التفت ورائي لآخذ نوتة مذكراتي وأوراقي لأعود إلى الكتابة، وهنا كانت المفاجأة: لم أجد الأوراق في مكانها!!.. اختفـت كـأن الأرض قد انشقت وابتلعتها!!.. وتغيرت ملامحـي بسـرعة جدا وبدا علي الغضب والثورة فعلاً؛ إذ لم أتصور أن الهزار وخفة الدم ممكن أن يصلا إلى العبث بالشـغل، وتصـورت أنني لو عالجت الأمر بهدوء وحكمة فإن الأمـر سـيتميع –

مثلما يحدث في أي مكان- ولن أخرج بأكثر من تحقيق ساذج يجريه معي كبير الضباط ليسألني فيمن أشتبه.. ثم يتم تفتيش بعض القمرات وطبعا لن تظهر نوتة مذكراتي، فمـا أسـهل إلقائها ببساطة جدا في المحيط الواسع الـذي يبتلـع السـفن ويهضمها ولا يظهر لها أثر بعد ذلك.. فرأيـت أن أعـالج الأمر بشكل مختلف: رفعت صوتي عاليا مدويا غاضبا بعنف شديد فدوى في ذلك السكون الرهيب في ذلك الوقت المبكـر قرب الفجر، أسأل عن أوراقي بصرامة وحزم عنيفين.. ولما لم يجب أحد من الموجودين في الصالون –وكنت في الوقت نفسه أرقب وجوههم جميعا وإن كنت قد حصـرت شـبهتي تقريبا في واحد منهم بالذات!!- صحت مرة أخرى بـأعلى صوتي الذي يمزق هدوء السفينة بعد منتصف الليـل بكثيـر أطالب بإيقاظ القبطان (داود) الذي تقع قمرتـه علـى بعـد خطوات فقط من مرمى صوتي، حيث نحـن فـي صـالون الضباط، ليرى بنفسه أننا: (راكبين أوتوبيسا وليس سفينة، أن الواحد ممكن يتنشل وينسرق وهو قاعد في السفينة بتاعته من غير ما يشعر، من غير أن يحميه نظام ما)!!.. وعلى الفور حدث رد الفعل الذي كنت أتوقعه على الشخص الذي خمنت

أنه هو الذي أخذ الأوراق، إذ إنه كان الوحيد الذي اتخـض من صوتي العالي وطلب مني أن أخفضه حتـى لا يسـتيقظ القبطان، وهو يطلب من الموجودين أن: (يدوروا على النوتة هنا والا هنا)، ولكنني ازددت صياحا وأنـا أقـول بـأعلى صوتي: (مفيش تدوير هنا ولا هنـا.. يـا النوتـة والأوراق يظهروا حالاً دلوقتي من غير تدوير.. يا القبطـان يصـحى يدور هو بنفسه)!! وازداد صديقنا فزعا وهو يحاول تهـدئتي وإسكات جعورتي التي انفتحت.. ولكنني ظللت أزعق ولـم أسكت إلا حين اعترف –هو نفسه- بأنه هـو الـذي أخفـي النوتة من باب الهزار.. وأخرجها من تحت شلتة أحد كراسي الصالون وأعطاها لي متخاذلاً!!

كان: كبير المهندسين.. (حنا يعلم الله)!!

## لنا عدة

أيام وحظنا في الصيد ضارب وكويس.. أمس الأول اصطدنا ٢٨ طنًا، وأمس ٢٩ طنًا واليوم كان رصـيدنا ٣٠ طنًا، رغم أن المفروض أن يكون متوسط صيدنا اليومي ٢٠ طنًا فقط..

وبذا فقد أنهينا اليوم الـ ١٠٠ طن الرابعة وتعديناها، ويكون باقيا أمامنا نحو ٢٣٠ طنًا فقط، لـو اسـتمر الحـظ الطيب معنا هكذا، ولو بالمتوسط العادي المفروض وهو ٢٠ طنًا، لكانت الـ ٢٣٠ طنًا تساوي بالأيام نحو ١١ أو ١٢ يوما فقط، وربنا يسهل..

وحشتنا مصر جـدا.. وحشـنا كـل شـيء فيهـا: شوارعها، مبانيها، ناسها، سينماتها، رذالة عساكر مرورها.. حتى زحمة أوتوبيساتها ساعة خروج الموظفين وحشتنا، بس نرجع بأه!!

# الفصل الثاني عشر

## شبكتنا..

## تصطاد غواصة..!

## على قدر

ما كان حظنا في الصيد بالأمس موفقًا جدا، على قدر ما لعب المحيط معنا اليوم لعبة دمها خفيف لم نستطيع لهـا تبريرا ولا تعليلاً.. والذي حدث أن الشبكة التي تخرج مـن المحيط في كل مرة بما بين خمسة وعشرة أطنان، وأحيانًـا أكثر، كانت تبدو اليوم منحوسة نحسا شـديدا.. فمـن قبـل شروق الشمس والسفينة قد بدأت صيدها، وطول الوقت كان جهاز الرادار الذي يبين تحت السفينة وشكل تجمعات السمك المتجهة إلى قلب الشبكة دوغري، يشير باسـتمرار إلـى أن الشبكة ستكون مليانة على الآخر، يعني ١٠ – ١٢ طنًا على الأقل.. هذا ما كان يبينه الجهاز، ولكن حين تخرج الشـبكة من الماء بعد ساعة لا يكون فيها أكثر من ١٠ – ١٢ كيلـو جراما وليس طنًا..

وتكررت هذه الفزورة الغريبة ثلاثة أو أربع مـرات متتالية، وفي كل مرة تخرج الشبكة من الماء خاوية إلا مـن بضع سمكات قليلة جدا، حتى شك القبطان في الأمر، فـأمر بإيقاف عملية الصيد وإعادة الشـبكة إلـى سـطح السـفينة لفحصها بواسطة الإخصائيين المصريين (جاد محمد جـاد)

و(شوقي الشرقاوي) ومعهما الخبير الأجنبي (بوريا).. وبعد فحص الشبكة فحصا دقيقًا اكتشف الثلاثة شيئًا غريبا جـدا: اكتشفوا أن الشبكة مقطوعة من أعلاها قطعا طوليـا طولـه حوالي مترين!!.. وقد يتساءل بعض القراء: (وما الغريب في أن تنقطع الشبكة، أليس ذلك محتملاً في أي وقت)!! لكننـي أقول: إن الشبكة حين تقطع من أسفلها، أي من الجزء الـذي يحتك احتكاكًا مباشرا بأرض أو بقاع المحيط نفسه، فإن ذلك لا يعد أمرا مستغربا في أي وقت؛ لأنه من المحتمل جدا في أي لحظة أن تشتبك الشـبكة بصـخرة مـن الصـخور أو النتوءات الموجودة في قاع المحيط، فتقطعها على الفـور.. لكن ذلك القطع يحدث من أسفل الشبكة وليس من أعلاها، أما القطع الذي من أعلى الشبكة فهو الغريب جدا؛ إذ كيف يمكن حدوثه!؟

وراح كل واحد من الذين كـانوا موجـودين وقـت اكتشاف هذا القطع يفتي برأيه في سبب حدوثـه: القبطـان (داود) تصور أن (شخصا ما) قد فعلها أثناء الليـل متعمـدا لغرض في نفس يعقوب.. وتطوعت أنا لكي أفتـي بفتـوى اعتقدت أنها فعلاً كانت الأقرب إلى الصواب، فقد تصـورت

أن سمكة من نوع القرش الضخمة أو سمكة منشار قد دخلت إلى الشبكة دون أن تشعر، هذان النوعـان مـن الحيوانـات البحرية عنيفان جدا وشديدا القوة، فقطعا حاولت أن تتخلـص لكي تخرج من الشبكة، وأثناء فلفصتها وعصلجتها وصراعها للخروج من الشبكة قطعتها ذلك القطع الغريب.. أما (عباس) كبير الضباط فقد أفتى –جادا- بأن الشبكة قـد اصـطادت: غواصة!!

عبقري (عباس) ده.. مش عارف من غيره كنا عملنا إيه!!

المهم أن الشبكة أصلحت فعلاً بعد ساعات قليلة، ولـم ينته اليوم إلا وكنا قد عوضنا الوقت الذي ضاع في الصباح، فاصطدنا –بعد إصلاح الشبكة- ١٣ طنًا من السمك في مرة واحدة.. وهدأت أعصاب القطبان (داود) وارتاح..

وفي الفترة التي توقفت فيها عملية الصيد حتـى يـتم إصلاح الشبكة، جلست مع (ثروت) مساعد كبير المهندسـين متمددين على سطح السفينة في الشمس كالسـياح نـدردش ونتكلم.. و(ثروت) محدث لبق وظريف ويختزن جيدا قراءاته ولا ينساها؛ لذا فما أن انفتح موضوع حياة البحـر والتقاليـد

البحرية حتى راح (ثروت) يعدد لي بعضا منها.. فمثلاً قال: إنه كان من القوانين البحرية قديما قانون يقضي بأن البحـار الذي يقتل زميلاً له يحكم عليه بأن يربط جثة زميله الذي قتله ربطًا جيدا ويلقى معها في البحر!!.. ومن التقاليـد البحريـة التي ما زالت موجودة حتى الآن هو أنه حين تباع سفينة مـا بالمزاد العلني لأي سبب من الأسباب –سواء كانـت تبـاع كخردة أو للاستعمال مرة أخرى- أن تشعل أثنـاء عمليـة المزاد ٣ شمعات، وتظل المزايدة مسـتمرة حتـى تنطفـئ الشمعات الثلاث واحدة بعد أخرى، فترسو السفينة على آخر سعر عرض قبل انطفاء الشمعة الأخيرة!!.. وقال (ثـروت) أيضا: إن قبطان السفينة يمثل أعلى سلطة فـي بلـده فـوق السفينة، وله أن يعتقل من يشاء ويسجن من يشاء ويحاكم من يشاء من العاملين على السفينة ما دام في البحر، وإلى درجة الإعدام إذا استدعى الأمر ذلك، ولكنه إذا تجاوز حد المعقول يحاسب بعد عودة السفينة إلى البر.. وله أيضا أن يبرم عقود الزواج على ظهر سفينته –في حالة رضاء الطرفين طبعا!!- فيقوم بما يلزم من الإجراءات ويسجل ذلك الزواج في دفتـر يوميات السفينة الرسمي، على أن يتم تسجيل الـزواج عنـد

الجهات الرسمية بعد نزول العروسين مـن السـفينة، إلا إذا رجع واحد منهما في كلامه!!.. وأيضا قال (ثروت): إنه إذا أصبحت سفينة ما في حالة عطل كامل وهي فـي عـرض البحر واستدعى ذلك أن تقوم سفينة أخرى بنجدتها أو بسحبها إلى أقرب ميناء، فإنه يكون من حق طاقم السـفينة المنقـذة نصف ثمن السفينة المعطلة، بالإضافة إلـى نصـف ثمـن شحنتها طبعا!!

## وقعت في

يدي بطريق المصادفة مسودة التقرير الطبي الذي كان طبيب السفينة القصير السمين المرح (رفيق) يعده عن الحالة الصحية للبحارة على السفينة خلال الرحلة.. وكانـت أبـرز النقط التي ركز عليها (رفيق) تقريره هي عدم توافر الميـاه العذبة للبحارة والضباط للاستحمام المنتظم، مما هدد بانتشار الأمراض بينهم.. بالإضافة إلى عدم تـوافر الميـاه العذبـة بالنسبة للشرب نفسه.. وعن الميـاه المقطـرة مـن جهـاز (الديستلر) الذي يأخذ ماء البحر المالح ويحوله إلى مياه غير مالحة، قال رفيق: إنها غير مستساغة الطعم وغير نظيفـة.. وأن استعمال هذه المياه في صنع الشاي يفسد طعمه، كما أنها

أيضا تفسد طعم أصناف الحلو التي تدخل في صنعها، كالرز بلبن والجيلي والكستر وغيرها، فهذه المياه دائما بهـا صـدأ ورواسب مما يعرض طاقم السفينة للتسمم..

والحقيقة أن العودة إلى موضوع المياه مـرة أخـرى جعلني أعود أيضا إلى العيوب الأخرى التي ما زلنـا حتـى الآن، ورغم قرب انتهاء الرحلة، نكتشفها كل يوم.. أبرزهـا العيوب الهندسية.. فكاية الصواميل والمسامير المكسرة التي تكتشف كل يوم في غرفة الماكينات بالسفينة، والتـي ظللنـا نكتشفها حتى ونحن على بعد ٣ أيام مـن الإسـكندرية فـي طريق العودة، مما أدى إلى توقف السفينة ٣ سـاعات فـي عرض البحر الأبيض حتى يتم (خرط) مسمار آخـر بـدل المكسـور!!.. الغريـب أننـي كنـت أسـمع المهندسـين والباشمهندس يقررون –ببساطة جدا- أن هذه المسـامير – التي لم يكتشفوا أنها مكسورة إلى الآن فقـط- اتضـح بعـد فحصها أنها مكسورة من زمان من قبـل أن تبـدأ السـفينة رحلتها من الإسكندرية!! وكان المفروض أن تكتشـف هـذه الأخطاء بواسطة الإدارة الهندسية فـي الشـركة أولاً، ثـم والسفينة في الحوض الجاف ثانيا، ثم في التفتـيش البحـري

ثالثًا، وتكتشف من مهندسي وباشمهندس السفينة أنفسهم قبـل الجميع!!

يخيل إلـي -والسـفينة حالهـا هكـذا ومسـاميرها وصواميلها مفككة وسايبة هكذا- أنه لـو سـمكة قويـة أو عصبية شوية خبطت سفينتنا خبطة صغير بذيلها، فستصـل إلى قاع المحيط في لحظات ونصبح نحن الذين جئنا من آخر الدنيا لنصطاد من أعالي البحار، نصبح نحـن غـذاء طيبـا لأسماك أعالي البحار، وبدلاً من أن تسمى الشركة صـاحبة هذه السفن (شركة مصايد أعالي البحار) يصبح اسمها (شركة تغذية أسماك أعالي البحار)، أو كما يسميها البحارة الظرفاء أحيانًا (شركة (مصايب) أعالي البحار)!!!

## وملاحظة أخرى

لفت نظري إليها واحد من بحارة السفينة، وتأكدت منها بنفسي بعد ذلك.. حين قال لي: إن السفينة مليئة بما ليس لـه لازمة من براميل فارغة وشِباك قديمة مستهلكة وحبال إمـا ممزقة بالية أو جديدة جدا، وزائدة عن حاجة السفينة، ولفات السلك الكثير من غير مناسبة، لدرجة أن هناك لفات حبـال جديدة لم تستعمل على الإطلاق مرمية في مخـزن مقدمـة

السفينة، باظت تماما حين انشرخ خزان الوقود الـذي يقـع تحت المخزن فتسرب الوقود إلى المخـزن وإلـى الحبـال الجديدة فبوظها تماما وجعلها غير صالحة للاستعمال.. وكان تساؤل البحار: لماذا لا تترك هـذه الأشـياء الزائـدة فـي الإسكندرية عقب كل رحلة حتى لا تشـغل علـى السـفينة فراغات من غير داعٍ، وتهدد بجعل حمولة السفينة في وقـت من الأوقات أكثر من طاقتها دون أن ينتبه أو يشعر أحـد.. خصوصا أن هذه الأشياء الزائدة قد زحفت فعلاً علـى كـل الفراغات في السفينة لدرجة أنها مـلأت المكـان المجـاور لقوارب النجاة –كحالة الغرق مثلاً- لا يمكن إفراغ ما حول القوارب من الزوائد والبراميل والأسلاك قبل أقل من نصف ساعة، تكون السفينة خلالها قد غرقت وشبعت غرقًا!!

أما الشيء الذي بدا لي واضحا ولم يحتج إلـى أحـد ليلفت نظري إليه، فهو سوء اختيار الشركة صاحبة السـفينة لبعض العاملين فيها الذين يتولون مراكز رئيسية تتيح لهم أن يتصرفوا –من مواقعهم الرئيسة هذه- تصرفات مسيئة، وساء كانت هذه التصرفات تمس العاملين على السفن أنفسـهم، أو تسيء إلى سمعة بلادنا في الخارج بشكل عام.. مثل واحد من

المديرين فيها الذي شكا لي عددا من البحارة والضباط –تحت يدي أسماؤهم- من أنه حدثت ذات مرة أزمة بينهم وبين الشركة بسبب تأخير صرف مرتباتهم واستحقاقاتهم، فثاروا وتقدموا باستقالاتهم، فهب فيهم سعادة المدير صارخًا بعنف شديد: ما حدش يقدر يستقيل من الشركة، أنتم مكلفين، واللي حايستقيل أنا حاسجنه!!.. هكذا ببساطة جدا: البيه المدير سيسجن العاملين!!.. ولم يصدقني اللواء (عماد الدين مدكور) رئيس مجلس الإدارة حين حكيت له هذه الحادثة وظنني أمزح، ولكنني كما قلت تحت يدي أسماء الناس الذين وجه إليهم هذا المدير التهديد بالسجن!!

وأيضا مثل المهندس (حنا يعلم الله) كبير مهندسي السفينة (برنيس)، الذي اتضح بعد أن بدأت (برنيس) رحلتها فعلاً وخرجت إلى عرض البحر، أن كبير مهندسي السفينة متخصص في السفن البخارية بحكم دراسته، بينما سفينتنا تحتاج إلى مهندس تخصصه (ديزل)!!.. ليس ذلك فقط، بل اتضح أيضا أن الباشمهندس (حنا) لم يضع قدمه على سفينة- لا بخارية ولا ديزل ولا شراعية ولا حتى فلوكة- ولم يخرج إلى البحر منذ ٢٢ سنة بالتمام والكمال، أي منذ كان شابا

عمره ٣٥ سنة حتى أصبح الآن عمره ٥٧ سنة وعلى وش معاش!! يعني قضى حياته الهندسية كلها على البر، ونسي تماما كيفية التعامل مع السفن وهي في البحر!!..

ليس هذا وذلك فقط، فإن المفروض في حالة كهذه: رجل بعيد عن السفن والبحر ٢٢ سنة، وعين كبيرا للمهندسين على سفينة، فأضعف الإيمان أن يتفرغ لها ليلاً ونهارا شهرا كاملاً قبل الرحلة، يدرس كل جزء فيها حتى يحفظها عن ظهر قلب ويعرف المستخبي، لكن الباشمهندس (حنا) لم ير السفينة ولم يدخلها غير مرة واحدة لساعات قليلة قبل الرحلة، ثم يوم بدء الرحلة نفسها؛ لذا لم أندهش كثيرا للكارثة التي كادت أن تحدث لنا لحظة بداية الرحلة حين تعطلت آلات السفينة فجأة مرتين ونحن بعد لم نغادر ميناء الإسكندرية، فكدنا أن نصطدم بسفينة أجنبية راسية في الميناء، ثم عودتنا إلى الرصيف مرة أخرى وتعطلت ١٢ ساعة كاملة قبل أن نبدأ رحلتنا من جديد.. ولم أدهش أيضا لكل الأعطال والحرائق التي حدثت على السفينة خلال الرحلة ونحن في عرض البحر الأبيض وفي المحيط الأطلنطي، فإن كبير المهندسين قد أعلن يأسه واستسلامه بعد

٤ أيام فقط من بداية الرحلة، حين كان القبطان (داود) يمـر في السفينة فوجد كبير المهندسين يقوم –بنفسـه- بتركيـب (كالون) آخر لباب قمرته من الداخل، وأثـار ذلـك دهشـة وفضول القبطان فسأله: (لماذا يفعل ذلـك؟) فكانـت إجابـة الباشمهندس بأنه سيقفل بابه على نفسه من الداخل ويعتصـم بقمرته ولا يخرج منها باقي مدة الرحلة، ولن ينزل إلى عنبر الماكينات ولن يتناول طعاما على الإطلاق؛ لأنه لا يسـتحق الأكل الذي يأكله ما دام (ورط نفسه) فيما لا يعرفه، فهـو –كما قال بالضبط-: (يعلم الله) أنا لا فاهم في الديزل ولا فـي التبريد ولا في الكهرباء.. وأن حظه الوحش وحظ المهندسين اللي معاه أنه يطلع باشمهندس عليهم وهو مش فاهم إيه اللي هم بيعملوه)!!.. ولم يجد القبطان بدا من أن يستخدم سـلطاته ويسحب من الباشمهندس مفاتيح قمرته كلها ولا يترك معـه ولا مفتاحا واحدا، خوفًا من أن يعملها الباشمهندس بصـحيح ويقفل على نفسه من الداخل ويحبس نفسه حتى يمـوت مـن الجوع أو يضطروا إلى كسر الباب عليه، وتبقـى فضـيحة بجلاجل أمام الصحفيين –اللي هما إحنا- من غير مناسبة!!

ولم يدهشني أن أعلم هـذه الحقـائق الغريبـة عـن الباشمهندس بقدر ما أدهشني تصرف المسئولين الهندسـيين في الشركة الذين وافقوا على أن يسلموا أكبر منصب هندسي على السفينة لرجل ليست لديه أدنى فكرة عن أجهزة السفينة وكيف تعمل، ولم يضع قدمه على سفينة في البحر مـن ٢٢ سنة!!

## وحين عدت

من رحلتي مع (برنيس) وضعت كل هذه المعلومـات أمام اللواء (عماد الدين مدكور) رئيس مجلس الإدارة، الـذي دهش جدا، ولم يصدقني إلا بعد أن عقد اجتماعا مغلقًا ضـم كبير مهندسي الشركة كلها –المهنـدس (حسـونة الـديب)- وضمني أنا والقبطان (عبد السلام داود) ليسـمع –وليسـمع كبير المهندسين (الديب)- مني ومن القبطان شخصـيا هـذا الكلام.. وسمعاه.. ورغم الـدفاع الضـعيف الـذي أبـداه الباشمهندس (الديب) الذي قال لي في نهايته: (طيب أنا أعمل إيه!؟ مفيش باشمهندسين.. هات لي باشمهندسين وأنا أطلعهم على السفن وأنزل حنا)!!.. ولما لم يكن من ضمن مهمتـي الصحفية أن أبحث للمهندس (الديب) عن (باشمهندسين)، فقد

اعتبرت نفسي: اللهم إني أبلغت اللهم فاشهد، وهم أحرار في باشمهندسينهم وفي سفنهم!!

وهكذا –لضيق ذات الباشمهندسـين- فقـد تقـرر أن يستمر (حنا يعلم الله) باشمهندسا للسفينة (برنيس) في رحلتها التالية –التي كنا عليها أيضا، كركاب فقط هذه المـرة فـي طريقنا إلى إسبانيا، ولكن في نصف الساعة الأخيـرة قبـل مغادرة السفينة ميناء الإسكندرية حدث ما لم أكن أنا أتوقعـه وما لم يكن أحد من المسئولين في الشـركة يتوقعـه: فقـد اكتشفت إدارة التفتيش البحري في الإسكندرية –أخيـرا- أن شهادة الباشمهندس (حنا يعلم الله) لا تسمح له بالعمل علـى السفن غير البخارية، وأنه لابد من استبداله وإلا فلن يسـمح للسفينة بمغادرة الميناء!!.. تدربكت الدنيا وانقلبت، وبسرعة جيء بباشمهندس آخر جديد اسمه (محمد كيلاني إبراهيم) من بيته، ووضع قدمه على السفينة قبل تحركها بلحظات قليلـة.. وخشينا أن يكون مثل صديقنا (يعلم الله)، لكـن الحمـد لله: كشفنا عليه وطلع ديزل!!

## ورغم كل

ذلك فإن الباشمهندس (حنا يعلم الله) لـم يكـن علـى الإطلاق مكروها على السفينة من ضباطها أو مهندسـيها.. بالعكس، فقد كان شخصية ظريفة ومحبوبة، يثيـر الابتسـام والمرح أينما ذهب وأينما وجد، فرغم عمره الكبير إلا أنـه كان يجاري شبان السفينة في ضحكهم ومرحهم وانطلاقهـم ويشاركهم في احتفالاتهم وحفلاتهم –خصوصـا اللـي فيهـا أكل!!- أما الذي كان عكس ذلك على طول الخط فقد كـان كبير ضباط السفينة (عباس).. وأنا في حياتي لم أر شخصـا مكروها مثل (عباس)، وليس هذا رأيي الشخصي، فإنني لـم ألتق بواحد، واحد فقط، ممن يعرفـون عبـاس –خـلال ٣ رحلات على سفن تابعة للشركة عمل بها جميعها (عبـاس) كبيرا للضباط- لم أصادف واحدا فقط يحب (عباس)، بل لـم أصادف واحدا، واحدا فقط، لا يكرهه!!.. ولكننـي فـي أي وقت من الأوقات لم أتصور القدر الذي يكرهونه به إلا حين حدث أمامي في رحلة أخرى أعقبت هذه الرحلة، وكنا فـي ميناء (لاس بالماس) بالمحيط الأطلنطي، وطلب (عباس) نقله من سفينتنا الأصلية (برنيس) إلى سفينة أخرى هي (الغردقة) كانت في طريقها للعودة إلى الإسكندرية، كـي يسـتطيع أن

يعود ليؤدي امتحان الترقي إلى رتبة قبطان.. وفوجئت –كما فوجئ هو نفسه- بطاقم ضباط ومهندسي السفينة (الغردقة) التي نقل إليها يرفضون قبول (عباس) بإصرار وبشدة، لدرجة أن عددا منهم قدم استقالته من السفينة ومن الشركة كلها حتى لا يعمل على سفينة يعمل عليها (عباس).. وأصروا جميعا على رأيهم وموقفهم، حتى استجاب قبطان السفينة (كمال صقر) لإصرار ضباطه، ورفض قبول (عباس) على السفينة.. وعاد (عباس) بالطائرة من إسبانيا!!

ولعل السبب في كراهية (عباس) ممن يعرفونه وعملوا معه من قبل هو شراسته وفظاظته الشديدة في معاملته مع الناس الذي يعملون معه، أو حتى مع زملائه الذي لا يقلون عنه رتبة أو مركزا.. كما حدث في رحلة سابقة مع الباشمهندس (فؤاد وهبة) كبير مهندسي السفينة (الغردقة) حين كان يلعب الطاولة مع أحد زملائه على السفينة، ومر (عباس) عليهم، وكعادته أراد أن يبوظ القعدة ويفركشها، فثار بدون مناسبة، وليس من حقه أن يثور، فالباشمهندس على السفينة ليس مرءوسا له، بل وأكبر منه مركزا.. والشركة صاحبة السفينة هي التي وضعت الطاولة على السفينة لتسلية

العاملين عليها، ولكن (عباس) له مزاجه الخاص، فمـد يـده وانتزع الطاولة من أمام الباشمهندس، وببساطة جدا: ألقى بها في البحر!!.. هكذا، المسألة عافية واللي مش عاجبه يـروح يشتكيني!!.. ولست أدري فعلاً السر فـي أن الباشـمهندس (فؤاد وهبة) لم يشكُه..!!

ومن حكايات (عباس) أيضا مع البحارة حـين كـان البحار (مصطفى محمد محمود) يرقد في مستشفى السـفينة بأمر طبيب السفينة، فهجم (عباس) على البحـار المـريض وانهال عليه ضربا، ثم حمله على كتفه وألقـاه فـي قمرتـه وحبسه فيها خمسة أيام ومنع الطبيب مـن علاجـه، حتـى أضرب البحار عن الطعام.. وخشي (عباس) مـن النتيجـة فحمل البحار المريض مـرة أخـرى، هكـذا، وألقـاه فـي المستشفى ثانية!!.. وأيضا ما حدث مـع مهنـدس الملاحـة (محمود عبد الموجود) الذي أوقفه عن العمل وحبسـه فـي قمرته على السفينة ومنعه من مغادرتها حتى حين توقفت في ميناء (لاس بالماس) بإسبانيا، ولم يصرف له مرتبـه مثـل زملائه كما يقضي نظام العمل في البحر، كل ذلك كان جزاء على اعتراض المهندس على إجراءات تسلم الأغذيـة حـين

كان عضوا بلجنة الاستلام، ورفضه أن يوقع على محاضر استلام صناديق الويسكي والفودكا ناقصة العدد، فجرى المخزنجي (عبد المنعم عبد السلام بلال) وراء الأخصائي (عبد الموجود) بسكين؛ لأنه رفض التوقيع على محاضر الاستلام!!.. ولم يفعل عباس شيئًا للمخزنجي أبو سكينة، حتى لم يحوله إلى الحقيق، وأوقف المهندس عن العمل!!.. وأيضا كما حدث للبحار (فوزي حامد بدر) حين حبسه (عباس) في عنبر فرز الأسماك وأطلق عليه البحار العملاق (سيد صقر) الملاكم السابق –ياور وحارس (عباس الخاص- ومعه بعض البحارة الآخرين الذي انهالوا على البحار (فوزي) ضربا حتى فقد النطق؛ لأنه فعل شيئًا لم يرض عنه (عباس)!! ونفس الشيء أيضا حدث مع (حسن بكر) الميكانيكي العام للسفينة (الغردقة)!!

## كلما اقتربت

الرحلة من نهايتها ازدادت حالة الأكل سوءا.. ولست أدري هل العيب في ذلك من الأكل نفسه أم من الذين يأكلون، اللي هم إحنا!؟.. فالواقع فعلاً أنه كلما شعرنا بأن الأيام الباقية لنا على انتهاء الصيد تتناقص تدريجيا، اتجهت أفكارنا

إلى الوطن وإلى البيـت والأهـل والأصـدقاء والحبايـب والخلان، وازددنا لهفة على العودة وتفكيرا فيها، وبالتالي تقل قابليتنا للأكل ونزداد انصرافًا عنه ونتعلل فـي ذلـك بـأي حجة.. كأن يحدث أن (عم علي البنا) كبير طباخي السفينة قد نسي –أو تكاسل- أن يفرغ الخضار المحفـوظ مـن كيسـه النايلون قبل طبخه، فطبخه بالكيس النايلون!! ويكتشف أحدنا الكيس حين (يغرفه) في طبقه فيتضايق لمجرد أن شيئًا بسيطًا كهذا قد حدث!!.. أو يتضايق آخرون لأن السفينة لـم يعـد عليها فاكهة ولا كومبوت ولا أي صنف آخر مـن أصـناف الحلو بعد الطعام..

ويلاحظ القبطان (داود) انصراف أهل السـفينة عـن الأكل، ويلاحظ طبيبنا القصير السمين المرح (رفيـق) ذلـك أيضا لكثرة حالات الضعف الشديد والأنيميا التي أصيب بها أهل السفينة في أواخر الرحلة، فيجتمع الطبيـب والقبطـان يتشاوران ويتداولان، ثم يتفقان على أن يقوم الطبيب (رفيق) بإعطاء البحارة حقن فيتامين تعوضهم عن انعـدام الفاكهـة ونقص التغذية وسوئها!!

ويحكي لي السفرجيان (عم حسين) و(محمدي) حدوته ظريفة حصلت من (علي البنا) باشطباخ السفينة، وكانت الرحلة كلما طالت ازداد التقتير في صرف المياه، حتى أصبحت المياه التي تصرف للمطبخ أيضا لكي تتم بها عملية الطبخ تعطي له من (الديستلر)، وهو الجهاز الذي شرحته من قبل وقلت: إن الماء المالح يدخله فيخرج منه وقد فقد ملوحته، إلاّ أن طعمه رغم ذلك يكون ثقيلاً غير مستساغ ولا مستحب وغير قابل للشرب ويفسد أي طعام يدخل في صنعه.. ومنذ عدة ليل كان صنف الحلو الذي سيقدم بعد العشاء أرز بلبن، والمفروض أن يصنع الطباخ كمية تكفي الـ٨٣ فردا الذين يتكون منهم طاقم السفينة، لكن السفرجيين (عم حسين) و(محمدي) حين نزلا ليحملا نصيب الضباط من المطبخ إلى الصالون فوجئا بـ (علي البنا) يعطيهما صينية واحدة صغيرة بها كمية لا تكفي خمسة أفراد فقط، فلما سألاه في دهشة: (هم الشوية دول هاتكفي كل الضباط؟) أجاب (علي البنا) بهدوء جدا: (وحايفيض.. أصل أنا عارف إن ماحدش حايرضى ياكل منها!!).

# الفصل الثالث عشر

## حكايات النساء

## في سفينة بلا نساء..!

## مهندس الكهرباء

الصغير (ناجي نوار) -٢٢ سنة إلا شوية وخريج من سنة واحدة فقط- واضح جدا أنه لم يبتعد كثيرا عن مرحلـة الطفولة، وما زالت فيه شقاوة الأطفال وخبـثهم ومكـرهم، وأحيانًا إزعاجهم.. كثيرا ما كنت أستيقظ من نـوم العصـر منزعجا على الضجة التي يحدثونها حين يجتمعون في قمرة الضابط الثاني (سامي البرقي) التي تفصل بينها وبين قمرتي قمرتان فقط، فأفتح باب قمرتي وأشخط فيهم وأطلب منهم أن يصعدوا ليلعبوا على سطح السفينة حتى لا يزعجوا النائمين، أو أقول لهم: (بلاش الزيطة دي وكل واحد يروح يلعب قدام القمرة بتعاته.. خلونا نعرف ننام!!)

أمس ليلاً كنا نسهر شلة في صالون الضباط نـدردش ونحكي ونتكلم، حين نظر (ناجي) فجأة إلى ساعته فوجـدها الثانية بعد منتصف الليل، فهب واقفًا وهو يقول: (عن إذنكم، مشوار صغير وأرجع لكم تاني) فنظرت إليه فـي دهشـة: مشوار إيه الأهبل ده؟ هي السفينة فيها مشاوير؟ مـا يقـول رياح فين على طول ويخلصنا، ولاحظ هو دهشتي فقال لي: (تيجي معايا يا عمو؟) وعلى الفور وجدت نفسي أقـوم بـلا

تردد لكي أشوف المشوار الصغير اللي رايحه سي ناجي ده فين!.. وحصل، وخرجت مع ناجي –أول وآخر مرة- فـي الجولة الليلية التي يقوم بها في مثل هذا الوقـت كـل ليلـة ليزعج ضباط السفينة النائمين: يدخل القمرات فـي الظـلام ليهز النائمين واحدا بعد آخر فيـوقظهم مـن أحلـى نومـة ليسألهم: (فخر.. فخر.. إصحى يا فخر.. معايا ميه، تحـب تشرب؟، ثم ينتقل إلى قمرة أخرى ليوقظ (شوقي الشرقاوي): (شوقي، شوقي، باقول إيه يا شوقي، ما شفتش علبة الكبريت بتاعتي)؟!! ويوقظ الضابط تحت التمرين (محمود سـامي): (سامي، سامي، إنت نايم؟ كويس إنك بتنام بـدري علشـان صحتك)!!.. ودخلت معـه قمـرة (الجعفـراوي) مهنـدس المحركات فوجدناه نائما في عز النوم، وقبل أن يبدأ (ناجي) في إيقاظه لفتت نظرنا صورة ملونة لفنانة مقطوعة من مجلة ومعلقة على الحائط بجوار سرير (الجعفـراوي) مباشـرة، فاختلفنا أنا و(ناجي) على من هي هذه الفنانة؟ وعلا صـوتنا ونحن نتجادل، وأخيرا حسـم (نـاجي) الجـدل بـأن هـز (الجعفراوي) هزا متصلاً وهو يسأله: (جعفراوي، جعفراوي، خطيبتك دي يا جعفراوي؟ هي دي سناء يـا جعفـراوي؟)..

واستيقظ الجعفراوي مفزوعا مخضوضا: (إيه، إيه، فيه إيه؟ مين؟ حصل حاجة؟ في حريقة تانية؟) وببـرود جـدا أعـاد (ناجي) سؤاله على (الجعفراوي)، الذي ما استوعب السـؤال حتى اتسعت عيناه في غيظ شديد وهو يصرخ في وجوهنـا: (بأه مصحيني من عز النوم علشان الهيافة دي؟ لا يا سـيدي مش خطيبتي، دي ناهد شريف، حِلوا عنا بـأه الله يخـرب بيوتكم مش عارفين ننام، أنتوا سايبينكم علينا ليه؟) ثم صرخ مستنجدا: (يا قبطان)!!

منذ ليلتها، بدأت أغلق باب قمرتي بالمفتاح من الداخل قبل أن أنام!!

## بدأت منذ

عدة أيام أحاول الكتابة.. أريد أن أعود إلـى القـاهرة ومعي على الأقل ٥ أو ٦ صفحات من الموضـوعات بهـذه الرحلة مكتوبة وجاهزة؛ لأنني لو عدت إلى القاهرة، دون أن أكتب شيئًا وأخذتني فيها دوامة الحياة اليومية العادية العمـل الصحفي الروتيني المعتاد، فلن أسـتطيع بسـهولة أن أجـد الوقت الكافي لأكتب بانتظام.. إذن يجب أن أنتهـز الوقـت الطويل على السفينة لكي أعود ومعي ٥ أو ٦ موضـوعات

مكتوبة فعلاً.. ولكن محاولاتي هذه لم تنجح حتى الآن، ولـو استمر الحال هكذا فلن أكتب حرفًا واحدا.. لأنـي عـادة لا أستطيع أن أكتب –حتى في بيتي في القاهرة- قبل منتصـف الليل، وهنا في السفينة ما أكاد أجلس في صالون الضباط في ذلك الوقت وأفرد أمامي أوراقي وأبدأ في الكتابة حتى يجتذب نور الصالون المضاء كل السهيرة بتوع السفينة، الناس اللي بتحب تسهر بس مش لاقيين حد يشجعهم، فيعتقدون أنني أنا هذا (الحد) فيجيئون ليسهروا معـي.. فـي البدايـة كـانوا يسألونني بابتسامة بريئـة ظريفـة: (علـى الله مانكونشـي معطلينك).. فكنت أرد بغيظ كظيم: (لا أبـدا، ولا معطلينـي ولا حاجة)!! ثم لما تكررت هذه الحكاية ووجدت أن الليـالي تمر وتضيع ليلة بعد أخـرى فـي (علـى الله مانكونشـي معطلينك).

بدأت أغير صيغة الرد، فأقول: (لا أبدا، لا معطليني ولا حاجة، أنا كنت حاكتب شوية الليلة لكن مش ضـروري بأه)!! فيقولون ببساطة: (كده.. طيب على راحتك) ويقعـدوا برضه!!.. وبدأت بعد ذلك أرد فأقول: (إذا مكانشي يضايقكم أنا حاكتب علشان جاي لي مزاج للكتابة الليلة، وانتوا اتكلموا

مع بعض، وأنا برضه معاكم بوداني)!! يمكن يختشوا، لكـن مفيش فايدة!!

في النهاية وجدت أن أسلم طريقة هي أن أحبس نفسي في قمرتي وأغلق الباب بالمفتاح على نفسي مـن الـداخل، وأجلس –وحيدا منفردا- لأكتب طول الليل..

## ضابط اللاسلكي

على أي سفينة يطلق عليه اسم (ماركوني) حتـى لـو كانت أجهزة اللاسـلكي علـى السـفينة ليسـت ماركتهـا (ماركوني)، لكن هكذا اصـطلحوا علـى تسـمية ضـابط اللاسلكي.. إخواننا الروس على سفينتنا أطلقوا علـى أخينـا "محمد حسن هارون" ضابط اللاسلكي لقبـا جديـدا: كـانوا يلاحظونه دائما وهو يتبادل الإشارات اللاسلكية يقـول فـي نهاية كل جملة من كلامه: (حوِلْ) –فتحة على الحاء وكسرة تحت الواو وسكون على اللام- بمعنى أن كلامـه انتهـى، ويترك الكلام للطرف الآخر.. وأعجبت كلمة (حول) إخواننا الخبراء؛ لأنها سهلة وممكن نطقها بسهولة، فـأطلقوا عليـه اسم: (محمد حسن حول).. ولكـنهم لأنهـم خواجـات ولا يستطيعون أن ينطقوا حرف الحاء في (حول) كمـا ننطقـه

نحن، وإنما ينطقونه (خاء)، فقد تغير معنى كلمة (حول) على ألسنتهم تغييرا لخبط معناها تماما!!

مسكين محمد حسن.. حول!!

وبالمناسبة.. فإن الروس كانوا يندهشون جـدا كلمـا سمعوا نشيد (بلادي بلادي) يذيعه راديو القاهرة، ويسألوننا: (كيف تسمح إذاعة بلادكم بإذاعة مثل هذا الكلام؟) فنقول لهم في دهشة: (ماله هذا الكلام؟ ده أحسن نشيد وطني عنـدنا!!) فيقولون في دهشة أكبر: (وكمان وطنـي!!؟) فنقـول فـي استغراب: (أيوه وطني.. ليه لأ.. ما تفهمونا!) وبعد البحـث والتحري والتنقيب اتضح أن كلمة (بلادي) في اللغة العربية موجودة أيضا عندهم في اللغة الروسية بنفس النطق بالضبط لكنها عندهم تطلق على: نساء الطريق بتوع آخر الليل!!

الخوف ليكون المرحوم (سيد درويش) كـان بيعـرف روسي!!

## يثير إشفاقي

جدا موقف مجموعة من الناس من أهل السفينة، ومن البحارة بالذات.. هم طبقة الملاحظـين والفنيـين وأنصـاف

المهندسين من حملة دبلومات الصنايع وحملة الثانوية العامة وبعض الذين لا زالوا يدرسون كطلبة الجامعة.. فهم يعملون كبحارة ويعاملون كبحارة، مع أنهم درسوا وتعبوا وتعلمـوا وحصلوا على شهادات –وإن كانت متوسطة- إلا أنها برضه شهادات كانت تؤهلهم في أي مكان آخر لأن يكونوا أفندية قد الدنيا وقاعدين على مكاتب وعلى مكاتبهم أوراق ودوسيهات وتليفونات، ويمكن كمان طقطوقة سجاير!!.. كثيرا ما أفكـر فيهم وفي وضعهم الغريب وأحاول أن أضع نفسي في مكانهم وأفكر كيف يكون شعورهم؟ نظرتهم إلى زملائهم الذين لـم يتعدوهم في الدراسة إلا بسنوات قليلـة فأصـبحوا ضـباطًا ومهندسين، وهم سيظلون طول عمرهم: بحارة فقط؟!

قطعا شعور بالمرارة والألم والضياع وفقدان الأمل.. ويكفي إحساس الواحد منهم بأنه غير مسموح لـه بالتواجـد (قرب) صالون الضباط.. ويكفي أن أي ضابط أو مهنـدس على السفينة يستطيع أن يأمر أي واحد منهم بأن (يعمل لـه شاي) أو يملأ له جردل ماء أو ينظف له قمرته..

قلبي معاهم جدا هؤلاء الناس.. لو كنت مكانهم لمـت كمدا أو لفرقعت من الغيظ على الأيام وعلى الظروف التـي تضعني في هذا الموضع!!

## كنت وأنا

في القاهرة أحلق ذقني مرة كل يوم، يوم في الصـباح واليوم التالي في المساء، وأعتبر حلاقة الذقن مهمة ثقيلة جدا وتغيظ.. والشيء الوحيد الذي أحسد عليه البنات والنساء من أجله هو أنهن ليست لـديهن ذقـون مضـطرات لحلاقتهـا وتعويرها بالموسي كل يوم!! وكان أسعد أيام الأسبوع عندي هو يوم الجمعة الذي لا أغادر فيه البيت فلا أضطر لحلاقـة ذقني، حتى كبرت ابنتي (نهلة) وأصبحت شابة حسناء فـي العاشرة من عمرها تذهب إلى النادي كل يوم جمعة بحثًا عن المعجبين، وأضطر للذهاب معها لأحميهم منها.. وهكذا ضاع أيضا اليوم الوحيد الذي كنت أستمتع فيه بعدم حلاقة ذقني..

وكان أول شيء خطر على ذهني حين اتفقت مع اللواء (عماد الدين مدكور) رئيس مجلس إدارة شركة مصايد أعالي البحار على القيام بهذه الرحلة، هـو أننـي -سأسـتطيع أن أستريح من حلاقة ذقني طول مدة الرحلة شهرين أو ثلاثـة

شهور.. واتفقت مع زميلي المصور (عبد المنعم) أن نطلق شعرنا وذقننا فلا نحلقها إلا بعد العودة من الرحلة إلى القاهرة لتصبح ذقوننا كبيرة وفخمة فاخرة، تتدلى على صدورنا كذقون رهبان الأديرة.. وكنا نظن أن شكلنا قطعا سيصبح لافتًا للنظر على السفينة، ولكن بعد قيام الرحلة بعد أيام اكتشفنا أن أغلب ضباط ومهندسي السفينة قد سبقونا بإطلاق ذقونهم.. وإذا كانت حجتنا نحن في ذلك أننا نريح ذقوننا، فقد كانت حجتهم هم: (نحلقها ليه؟ ما دام مفيش على السفينة لا زوجات ولا خطيبات ولا صديقات، ولا حتى ريحة البنات على الإطلاق، يبقى نحلقها لمين)؟!

وصلنا للنقطة المهمة: النساء والبنات وعدم وجودهن على السفينة.. والبنات وإن كن غير متواجدات على السفينة بأجسادهن، إلا أنهن موجودات في كل ركن فيها، بأرواحهن وأسمائهن وصورهن: كل قمرة تدخلها تجد عدة صور حريمي معلقة وملصقة على جدرانها.. وصور في الشنط، وصور في المحافظ وفي الجيوب وفي كل مكان ممكن أن تفتحه فتخرج منه فجأة صورة فتاة أو سيدة.. إن لم تكُن الصورة لزوجة فهي لخطيبة أو لصديقة أو لـ (جـو).. وإن

لم تكن هذه أو تلك فهي صورة ملونة مقطوعة مـن مجلـة لنجمة سينما في وضع ظريف مـريح.. مـريح لأعصـاب وأنظار شبان السفينة وليس للنجمة نفسها!! وكلمـا ازددنـا توغلاً في المحيط وفي أيام الرحلة، ازددنا تعارفًا وتقاربـا، وكلما حدث تبادل الصور الحريمي.. ليس تبـادلاً بـالمعنى المفهوم، وإنما (وريني وأنا أوريك)، حاجة كـده يعنـي!!. صديقنا الباحث (بهجت) مثلاً كان يحمل في جيبـه صـورة صغيرة لفتاته وهي تنزل على سلالم محافظة الإسـكندرية – هو يقول: إنها موظفة هناك، والعهدة على الـراوي!!- ولأن الصورة صغيرة وصعب تبين الملامح فيها، فقد كان دائمـا يحمل معه العدسة المكبرة التي يستخدمها في فحص السمك، وكلما أراد أن ينظر إلى صورة فتاتـه أو أن يريهـا لأحـد أخرج العدسة ووضعها أمام الصورة كي تتضـح الملامـح وتبان!!

## وكان السؤال

الذي يحيرني دائما، حتى قبل أن أقوم بهذه الرحلـة أو تكون لي أية علاقة بالبحر، ثم زاد وألح على ذهني جدا بعد أن خرجت في هذه الرحلة ورأيت بنفسي كيف أن أهل البحر

يقضون أربعة أخماس عمرهم في البحر ولا يقضون علـى البر إلا أقل القليل.. فإن العاملين فـي سـفن الصـيد مـثلاً يقضون أكثر من ٩ أشهر في السنة في البحر، وأقل من ٣ – متفرقة طبعا- على البر.. ومـن هنـا يـأتي السـؤال –أو الأسئلة- التي تلح على ذهني عن ناس البحر أساسا: لمـاذا يتزوجون وهم يعرفون مقدما أنهم سيقضون بعيدا عن بيوتهم ٩ أشهر في السنة؟.. ثم: كيف يتزوجون؟.. هل يجدون لديهم وقتًا للحب وإنشاء العلاقات العاطفية ومتابعتها وتنميتها حتى تزدهر وتصبح حبا بصحيح ممكن أن يتزوج البحـار علـى أساسه!؟.. ومن هي تلك الفتاة الفدائية المجازفة التي تجد في نفسها الشجاعة لتتزوج بحارا لا تـراه إلا بالصـدفة كلمـا وصلت سفينته إلى ميناء الإسكندرية!؟ والمتزوجون أصـلاً: ما شعور زوجاتهم؟.. والخاطبون أو الشابكون أو الكـاتبون كتابهم: ما شعور أو رأي العرايس المقبلات علـى الـزواج بهذه الصورة وبهذا الشكل؟!

سمعت من كبير المهندسين (محمد كيلاني إبراهيم) أنه تزوج حتى الآن ٣ مرات، ولم يوفق في أي مرة من المرات الثلاث بسبب حياته الدائمة في البحر.. وسمعت مـن فنـي

الصيد (لؤي الشيخ أحمد يوسف) أنه تزوج ٦ مرات حتى الآن، رغم أن عمره ٣١ سنة فقط، وأيضا لم يوفق في زيجاته الخمس السابقة، وربنا يستر في السادسة.. وفي سهرة كان فيها الجو يغري بالحديث والمصارحة فضفض أخصائي الصيد (ف. أ) فحكى لي عن الأسباب التي جعلته يفسخ خطبته بعد ٥ سنوات، حين اكتشف أن الخطيبة التي كان الحب يجمعه بها كل هذه المدة لم تستطع أن (تطيق) صبرا على وحدتها في بعده عنها في البحر مددا طويلة، فارتبطت بعلاقة عاطفية أخرى في الوقت الذي كانت فيه مازالت مخطوبة له!

من بين شبان السفينة عدد منهم خاطب فقط، وعدد آخر (كاتب كتابه) وينتظر أول فرصة تقف فيها السفينة في الميناء لكي يروح جري (يتزف) ويرجع بسرعة قبل السفينة ما تسافر تاني، كما فعل أخونا (أحمد عزب حبيش) ضابط ثالث السفينة، الذي نزل من السفينة في الإسكندرية إلى محطة القطار رأسا ليأخذ أسرع قطار إلى طنطا، وهناك وجد عروسه (فادية) تنتظره على محطة السكة الحديد بملابس الفرح وهي تضع يدها على خدها وتزغر له بالعين

الحمراء، فأسرع بالزواج فورا حتى دون أن يدعو أحدا مـن أصدقائه، وبعد ستة أيام فقط كانت صفارة السـفينة تنتـزع (أحمد عزب) من أحضان عروسه لتعيده إلى المحيط مـرة أخرى!

من الآخرين (جاد محمـد جـاد) أخصـائي الصـيد وطرزان المحيط، كاتب كتابه على بنت عمه (فريـال) ولـم يجد الفرصة ليتم الزفاف بعد.. (فهمـي عجمـي) مهنـدس التبريد كاتب كتابه أيضا على (ماجدة عبد القـادر يوسـف) الطالبة بالمعهد العالي للخدمـة الاجتماعيـة بالإسـكندرية، وأيضا لم يجد فرصة بعد ليتم زفافه.. نفس الحـال بالنسـبة لشوقي الشرقاوي أخصائي الشباك وزوجتـه –مـع إيقـاف التنفيذ- (باتعة إبراهيم سـالم).. أمـا إخواننـا الخـاطبون فمشكلتهم أكبر، فهم لا يجدون حتى الوقت الذي يعقدون فيـه قرانهم فما بالك بالزفاف أيضا، وهذا ما يعقد المشكلة أكثر.

## الشيء الذي

أجمع عليه كل شبان السـفينة المكتـوب كتـابهم أو الخاطبين هو حالة التذمر الشديدة التي يلاقونها من خطيباتهم بسبب بعد الشبان عنهن في البحر مددا طويلة، وتكتل البنات

وإصرارهن على أنه بمجرد أن يتم الزفاف فعلى العريس أن (يشوف له حل في الحكاية دي) ويسعى لكي تجد له الشركة صاحبة السفن عملاً على البر في إدارة الشركة، أو يبحـث لنفسه عن عمل آخر في مكان آخر أو شركة أخرى لا يكون فيها سفر كثير هكذا.. لأنه من المؤكد –وهذه هي وجهة نظر الخطيبات التي عرفتها من خطابهن: شبان السفينة –أن الفتاة لا تتزوج لكي تكون أسرة جديدة تكون هي ربتها وربها فـي وقت واحد، بما أن الزوج سيكون غائبا دائما.. وهـي فـي الحقيقة وجهة نظر سليمة ومنطقية، لكن يقابلها في الناحيـة الثانية وجهة نظر أخرى: لو أن كل الشبان هجروا العمل في البحر ليتزوجوا، فمن الذي سيعمل في البحر إذن!؟

وليس الفتيات وحدهن اللاتي يعانين من هذه المشكلة، فإن نفس المشكلة هي الشـغل الشـاغل لتفكيـر شـبانهن.. (عبد الوهاب فرغلي) قال: (المشكلة قدامي دلـوقتي هـي حاعمل إيه لما أتجوز، وإزاي حاسيبها لوحدها لمدة طويلة.. أنا باحب البحر صحيح، لكن هي ذنبها إيه؟ وهل كفاية أنهـا تقعد مع أهلي يسلوها ويونسوها علشان تبقى المشكلة اتحلت؟ ما أظنش.. ويبقى مفيش قدامي غير حل من اتنين: يا أتجوز

واحدة تقدر تستحمل حياتي بالشـكل ده، أو مـا أتجـوزش خالص)!!.. (أحمد عزب حبيش).. قال إنه بعد زواجه ينوي أن يترك البحر في أقرب فرصة؛ لأنه مش طبيعي أن الواحد يتجوز ويشوف مراته أسبوع واحد واللا أسبوعين كل كـام شهر.. وقال (حمدي حافظ) إنه أمامه سنتان أخريان يعمـل فيها في البحر حتى تنتهي خطيبته من تقديم رسالة الماجستير التي تعدها الآن، وبعدها سيتزوجان ويترك البحر فورا؛ لأن خطيبته –بحكم أن أباها أيضا رجل من رجال البحر يعمـل في الفنارات- لا شك كان يضايقها أن يخلو بيت الأسرة من الأب فترات طويلة لغيابه عن البحر، ثم تتزوج هي الأخرى من رجل يعمل في البحر فيخلو بيتها هـي شخصـيا مـن الزوج.. (ودي تبقى عيشة إيه دي؟)!!.. وقال المهندس (..) إنه هو وخطيبته كانا يعتبران أن عمله في البحـر مرحلـة مؤقتة يجمع فيها المال اللازم لبناء بيتهما بالشكل الفاخر الذي يرغبان فيه، لكن الذي حدث هو أنه يشعر مؤخرا بأن عمله في البحر وابتعاده عن خطيبته فترات طويلة قد بدأ فعلاً يؤثر على علاقتهما ويسبب بينهما نوعا من الفتـور واللامبـالاة، على الأقل من ناحيتها هي!!. وقال (شوقي الشرقاوي) إنـه

كاتب كتابه منذ أكثر من ٥ سنوات لم يجد طولها الفرصة لمرة واحدة لإتمام الزفاف، وأن عروسه (حاتطلق) لذلك؛ لذا فإنه بعد هذه الرحلة مباشرة لن يعود إلى البحر على الإطلاق حتى لو جاله البحر بنفسه لغاية البيت يترجاه!!.. وقال (جاد) طرزان المحيط: (قطعا أنا مش راسم مستقبلي على أني أقضي عمري في البحر، لكن كذا سنة بس وبعدين لازم أطلع البر؛ لأني مش ممكن أقدر أتصور أن فيه إنسان يستطيع أن يقضي طول عمره رايح جاي كده في البحر).. وكانت الفدائية الوحيدة التي وافقت أن يستمر زوجها في العمل في البحر بعد الزواج هي (ماجدة يوسف) خطيبة أو عروس (فهمي عجمي) مهندس التبريد: (هي بتنظر إلى عملي في البحر على أنه واجب قومي؛ أولاً لأكل عيش محترم، ثانيا بمعنى أنه إذا كنا كلنا حانهرب من الشغل في البحر بحجة أننا متجوزين، أمال مين اللي حايشتغل في البحر؟ ثم إن المرتبات والدخول الكبيرة التي يحققها العمل في البحر ستحقق لنا حياة فاخرة أكثر ومريحة أكثر، مش ممكن أي وظيفة تانية على البر حاتحققها لنا)!!

عاقلة أوي الست (ماجدة) دي!!

## وإذا كان

هذا هو حال شبان البحر المقبلين على الزواج، فكيف إذن يكون حال رجال البحر المتزوجين فعلاً، ومن زمـان، ومخلفين صبيان وبنات كبار وصغار، ومازالوا يعملون فـي البحر وليس في نيتهم تركه لا في القريب ولا فـي البعيـد؟ مثلاً: القبطان (عبـد السـلام داود) (١١ سـنة زواج + ٤ أولاد)، وكبير الضباط (عباس جاد الله) (١١ سنة زواج + ٤ أولاد)، والضابط الرابع (أحمد الصحن) (٢١ سـنة زواج + ٤ أولاد بعضهم وصل إلى الجامعة)..

رجل البحـر المتـزوج ورب الأسـرة، مـن واقـع مشاهداتي الشخصية ومن كلامهم معي، ينقسم إلى نوعين بعد أن يأخذه البحر من المدينة فترات طويلة من حياته.. النـوع الأول رجل يصبح تزعجه حياة المدينة وتضـايقه، ويتمنـى ويتعجل انتهاء إجازته ليعود إلى البحر من جديد.. وتعزلـه حياته في البحر عن حياة المدينة لدرجة أنه يصبح لا يعرف شيئًا عن أمور المدينة ولا يعرف أن يذهب ليـدفع فـاتورة التليفون، ولا يعرف أولاده في أي مدارس.. ويـتلخم جـدا ويحتاس إذا احتاج الأمر أن يذهب إلى شركة النـور لـدفع

فاتورة متأخرة.. وتصبح زوجتـه هـي الكـل فـي الكـل والمتصرفة في كل شيء يتعلق بالبيت والأسـرة والأبنـاء، ويصبح هو في بيته أقرب إلى ضيف مؤقت جاي ومسـافر تاني، ويحب أولاده جدا ويدلعهم جدا ولا يرفض لهـم طلبـا على الإطلاق، ولا يحب أن يضربهم، لإحساسه بأنه (مـش لازم يزعلهم منه في الفترة الصغيرة جـدا اللـي بيشـوفهم فيها).. من هذا النوع من رجال البحر القبطان (عبد السـلام داود)..

والنوع الآخر من رجال البحر نوع تقف حركة الحياة في بيته في المدينة كلما غاب عنه في البحر، وتتعطل كـل مصالحه ومصالح أولاده ما دام مسافرا، وتطارده البرقيـات في كل ميناء: (نعمل إيه في الشيء الفلاني؟ وموضوع كـذا رأيك فيه إيه؟ ومحمد نجح في الثانوية العامة نقدم له في كلية إيه؟) وتحتاس الزوجة ويـتلخم الأولاد إذا دقـت بـابهم أي مشكلة صغيرة، بل ويصل الأمر إلى أن الزوج البحار يقـوم (بترحيل) الأسرة كلها إلى قريته في غيابه، أو يحضر (حـد كبير) من أقاربه أو أقارب الزوجة ليقيم مع الأسـرة حتـى

يعود (راجلها) من البحر!!.. من هذا النوع من رجال البحر كبير الضباط (عباس) والضابط الرابع (أحمد الصحن)..

## وجانب آخر

يتعلق بالمرأة في حياة رجال البحر.. القـول الشـائع الذي نسمعه يقول، بكل اللغات: إن للبحار فـي كـل مينـاء فتاة!! وهذا القول صحيح ١٠٠% فقد وصلنا –فـي رحلـة أخرى تالية- إلى مينا (بويرتودي لالوز) في إسبانيا، ودخلت السفينة على رصيف الميناء في الساعة الثانية بعد منتصـف الليل، وبعد نصف ساعة فقط لا غير نزلت أنـا والقبطـان و(عباس) كبير الضباط لنقوم بجولة سريعة للتعـرف علـى المدينة التي كنت أزورها لأول مرة.. وكم كانـت دهشـتي كبيرة حين وجدنا أن بحارة سفينتنا قد سبقونا إلـى المدينـة، وكل واحد منهم معلق في ذراعه فتاة حسناء!! جابها منـين في الوقت المتأخر ده مش قادر أفهم.. وبعد دقائق قليلة لـم يطق (عباس) صبرا فتركنا وقفز في تاكسي وذكر للسـائق عنوانًا باللغة الإسبانية، وفص ملح وداب!!

والحقيقة أنه كما أن للبحار فتاة في كل ميناء، فإن نفس الشيء صحيح أيضا بالنسبة لفتيات الموانئ، خصوصا موانئ

أوربا.. فهن أشبه بمكاتب وكلاء الشركات: لكل واحدة منهن أيضا في كل سفينة بحار تنتظره وتترقبه وتقابله وتخرج معه كلما جاءت سفينته إلى الميناء، وتقوم معه بـدور الصـديقة والزوجة.. ويا داهية دقي لو أن سفينتين دخلتا الميناء فـي وقت واحد!!.. والبحارة يعرفون ذلك ومقتنعون بـأن هـذه العلاقات مع فتيات الموانئ ليست حبا ولا عواطف، ولا حتى صداقة حقيقية، ولكنها مجرد ترفيه من وجهة نظر البحـار، واستفادة وهدايا من وجهة نظر فتيات الموانئ.. ونادر جـدا ما يحدث، بل ولم يحدث حتى الآن فـي سـفن الصـيد، أن تزوج واحد من بحارتها أو ضباطها فتاة من فتيات الموانئ، رغم أن بعضهن –أقول (بعضهن- محترمات جدا ومن أسر محترمـة، ورغـم الإغـراءات والتسـهيلات والوظـائف و(السيارات) التي يقدمنها كمحاولـة لجـر رجـل الشـبان المصريين!!

والشخص الوحيد من رجال البحر الذي قابلته وتزوج من فتيات الموانئ هو كبيـر المهندسـين (محمـد كيلانـي إبراهيم)، ولكن كان ذلك منذ ١٥ سنة حين تزوج فتاة اسمها (نعمات إدواردز) في رحلة له إلى (مالاوي) بجنوب أفريقيا،

وأحضرها معه إلى القاهرة.. ولكنه كان زواجا فاشلاً لم يستمر طويلاً، فأعادها إلى وطنها بعد أن تركت له أولاده منها!!

## صديقنا طبيب

السفينة القصير السمين المرح –ذو الشورت الكحلي والفانلة الحمراء النصف كم- كان يجلس مع أخينا (حمدي حافظ) الضابط الإداري في قمرة (حمدي) قرب الغروب.. ولأن (رفيق) لعبي وبيحب ينكش ويدعبس كتير، فقد انتهز فرصة خروج (حمدي) من القمرة لفترة قصيرة لسبب ما، ودعبس فوجد على الرف زجاجة أنيقة شكلها ظريف بها سائل لونه ذهبي.. فتحها وشمها فوجد أنها ليست كولونيا، ومن شكل الزجاجة استنتج أن السائل الذي بها ممكن أن يكون شيئًا للشرب: شربات، مياه معدنية، عصير فواكه، حاجة زي دي.. فرفع الزجاجة إلى فمه وشرب منها شفطة واحدة فقط، إلا أنه وجد طعمها حراقًا وغير مستساغ.. فأقفل الزجاجة وأعادها إلى مكانها على الرف.. ولما جاء (حمدي) سأله (رفيق) بسذاجة: (حمدي.. إيه اللي في القزازة دي!؟) فأجاب (حمدي): (فيها ويسكي.. ليه؟ إنت شربت منها؟) وبدا

الذعر على وجه (رفيق) الطفولي كبير الحجم وقال: (شفطة واحدة بس، أبقى أنا كده سكرت!؟)

وانتهز (حمدي) الفرصة وأدخل في روع (رفيـق) أن الويسكي الذي في الزجاجة من نوع رهيـب جـدا وقـوي المفعول بشكل يجعل حتى الذي يمسك الزجاجة وهي مقفولة يسكر!! وأن (رفيق) بما أنه شرب منها شفطة واحـدة فهـو الآن سكران طينة!!.. واستسلم (رفيـق) الطبيـب! لكـلام (حمدي) واقتنع بأنه الآن سكران طينة فعلاً، ومفـروض أن يتصرف كما يتصرف السكارى، فصرخ فجأة بأعلى صوته: (هيه.. أنا جدع).. ثم تنبه لنفسه قلـيلاً فقـال فـي توسـل: (والنبي سكوا الباب أحسن عباس يسمع ييجي).. وعاد ينطلق مع انفعاله وشعوره بأنه سكران، فهاج وعمل عمايله وبعثـر كل شيء في القمرة ورماه على الأرض، ثم لـبس عمامـة التقى والورع والدروشة وراح يهز رأسه يمينًا ويسارا وهـو ينصحنا بالاهتمام بمشاكل البحارة لأنهم غلابة، وأن نكـون صادقين مع أنفسنا في الكتابة عن مشاكلهم.. وبسرعة تجاوب معه زميلي المصور (عبد المنعم طاهر) وناداه بـ (مولانـا فضيلة الشيخ رفيق)، وقضى السهرة كلها يقبل يدي (الشـيخ

رفيق) الممدودتين دائما جاهزتين، ونصب نفسـه هـارون الرشـيد الخليفـة العباسـي ونحـن وزراؤه المخلصـون: (المخلصون بس.. ألف مرة.. والمش مخلصين لأ.. المـش مخلصين حاقطع رقبتهم واحد واحـد وحاشـكهم بالـدبوس وأحرقهم بالكبريت وأجرحم بالموس.. يا سياف)!! ثم أصدر فرمانًا رهيبا هارونيا بتعيين جميع طاقم السفينة وزراء فـي حكومة هارون الرشيد، ما عدا صـديقه الحمـيم المصـور (عبد المنعم طاهر) فقد استخسر فيه وزارة، واكتفى بأن يفتح له محل مصوراتي في شارع سعد زغلول في إسكندرية!!

وحين اندمج (رفيق) معه نفسه وعلا صوته وبدأ يقلبها جد، خشينا عليه، فقال له عبد المنعم إنـه: (لا سـكران ولا حاجة، وأن شفطة واحدة من أجدع ويسكي في الـدنيا مـش ممكن تأثر في أي واحد، حتى شوف)، ورفع (عبد المـنعم) زجاجة الويسكي إلى فمه وأفرغ باقي الزجاجة في بطنه بين صراخ (حمدي حافظ) صاحب الزجاجة، و(رفيق) ينظر إليه في رعب وذهول ودهشة كأنه يرى شخصا يشرب حـامض كبريتيك مركز ولا يحدث له شيء!!

وأفاق (رفيق) من سكرته الموهومة، وبعد دقائق طب (عبد المنعم طاهر) ساكتًا، ولم نستطع أن نفيقه إلا ظهر اليوم التالي!! تحف الناس دول، إذا كان ده والا ده.. الاثنين يجب أن يعملا!.

# الفصل الرابع عشر

## محمد حسن..

## ماركة مسجلة..!

## بحصيلة صيد

اليوم استطعنا أن ننهي الـ ١٠٠ طن الخامسة ولم يبق لنا إلا نحو ١٣٠ طنًا، ممكن –لو ظل حظنا الطيب في جانبنا- أن ننهيها في ٦ أو ٧ أيام أخرى ثم نبدأ رحلة العودة إلى الإسكندرية. الزمن المقرر لها فعلاً منذ بدايتها والذي هو أقل بشهر كامل على الأقل من أية رحلة أخرى سابقة لنفس السفينة أو أي سفينة من سفن شركة مصايد أعالي البحار..

على أية حال، فات الكثير ما بقي إلا القليل.. هانت..

## لي نحو

ثلاثة أسابيع الآن وقد استبدلت ليل بنهاري ونهاري بليلي.. أصحو من النوم بعد العصر لأظل مستيقظًا ساهرا حتى صباح اليوم التالي مع شلة السهيرة على السفينة، نضحك كثيرا ونمرح كثيرا، وأكتب قليلاً.. فإن الرحلة قد قاربت نهايتها، وأشعر أن هذه الفترة من حياتي التي أقضيها الآن على هذه السفينة ستوحشني كثيرا فيما بعد؛ لذا أحاول أن أعيشها بأقصى طاقتي وأستزيد منها ومن ذكرياتها التي أشعر الآن كأنني (أحس بها) فعلاً وهي تختزن بداخلي.. ولا

أدخل لأنام عدة ساعات قليلة في الصباح –وأحياناً قرب الظهر- إلا لأستريح فقط استعدادا لسهرة الليلة التالي، ولو كنت أستطيع أن أواصل الليل بالنهار بلا نوم لما نمت..

المهم، استيقظت اليوم قرب العصر لأشعر بحركة غريبة غير عادية على السفينة، لم أستطع أن أتبين ماهيتها في البداية.. ثم بعد فترة استطعت –حين استيقظت تماما واستيقظت معي أيضا حاستي الصحفية- لاحظت أن أغلب شبان السفينة من الضباط والبحارة –للغرابة- متشطفين!! والأكثر من ذلك غرابة أن أغلبهم كانوا يرتدون ملابس نظيفة أنيقة ومعتنين بمظهرهم بشكل غير معتاد!!.. (خبر إيه يا اخواننا؟ فيه إيه؟ داخلين ميناء؟).. (أبدا).. (راجعين إسكندرية).. (أبدا).. وبما أننا كنا في وسط المحيط فمعنى ذلك أنه لا يمكن أن يكون أحد من المسئولين قادما ليزور السفينة، اللهم إلا إذا جاء بهليكوبتر!!.. (طيب فيه إيه، ما تفهمونا؟).. (حانربط جنب (ماذر شيب) ).. (جنب إيه يا خويا؟) جنب ماذر شيب روسية.. ماذر شيب Mother ship علشان نأخد منها شبك صيد)..

واستشعرت بالسخافة والهيافة في ردهم.. وإيه يعنـي (ماذر شيب)!؟ وده يخليكوا تتوضبوا وتتشطفوا وتتنضفوا كده كأنكم حاتربطوا جنب سينما مترو والا ناصية الأمريكين والا قدام مدرسة السنية؟.. قالوا: (وأكثر وأكثر وأكثـر.. بنقـول ماذر شيب.. يعني سفينة من السفن اللـي بيشـتغلوا عليهـا الستات.. فاكر يعني إيه ستات؟)..

أيوه صحيح: ستات!!.. ده أنا كنت نسيت الحكاية دي خالص.. فإن لي –ولنا جميعا- ٦ أسابيع للآن لم نـر فيهـا صنف الستات غير في الصور الموجودة في المجلات!! حتى نسينا شكلهم –أو شكلهن-.. يا ترى هم شكلهم إيه دلوقتي!؟

وبسرعة انفلتت عائدا إلى قمرتي، وبعد ١٠ دقائق فقط كنت أعود إلى سطح السفينة مـرة أخـرى وقـد تشـطفت وارتديت بنطلونًا وقميصا نظيفين، ودعكت أسناني بفرشـاة ومعجون الأسنان.. مين عارف، مش يمكن!؟

كانت قد وصلتنا برقية اللاسلكي مـن الشـركة بـأن السفينة الروسية (أشكوال Schkwal)، وهي (سـفينة أم) أو (ماذر شيب Mother ship) عبارة عـن دكـان متنقـل أو مخزن كبير لكل ما تحتاجه سفن الصيد من شـباك وأدوات

صيد وخلافه، وبها مستشفى كامل مجهز لاستقبال الحـالات التي تستدعي إجراء جراحـات أو أطبـاء متخصصـون.. وتتجول هذه السفن المخزنة في المحيط الأطلنطي في انتظار أية إشارة من أسطول الصيد الروسي الـذي يعمـل بهـذه المنطقة حين تحتاج إحدى سفنه إلى أي شيء.. وأيضا تربط جنبها في وسط المحيط سفن الصيد الروسية الصغيرة لتفرغ شحنتها من السمك في السفينة الكبيرة، ثم تعود الصغيرة إلى الصيد مرة أخرى.. وكان قد تم اتفاق بين إدارة الشركة فـي الإسكندرية وبين السفينة (أشكوال) على أن تعطينا –في وسط المحيط- ١٢ شبكة صيد ثمن الواحدة ألف جنيه؛ لكي تصبح هذه الشبكات الـ ١٢ رصيدا احتياطيا يوزع علـى السـفن الثلاث: (برنيس) و(رأس بناس) و(الغردقة)؛ حتى لا تتكرر عملية خروج سفينة إلى الصيد بلا شبكة كما حدث معنا..

## وقرب الغروب

بدت لنا في عرض الأطلنطي من بعيد السفينة الضخمة (أشكوال).. فذهبنا إلى جوارها، وربطنا إلى جانبها الأيمن.. هي ضخمة هائلة الحجم بالنسبة إلينـا، راسـخة كالجبـل، وسفينتنا إلى جوارها صغيرة الحجم تتلاعب بهـا الأمـواج،

فكان شكلنا كطفل يمسك بيد أمه، لكنه شقي ومش قادر يقف ساكت فعمال يتشال ويتهبد زي الجن جنبها.. ولأول مرة منذ غادرنا الإسكندرية من ٦ أسابيع نرى: النساء!! لمحنا طيف أو خيال واحدة منهن بملابسها الداخلية تظهر وتختفـي وراء نافذة مضيئة وهي تكوي ملابسها، فتجمـع بحـارة سـفينتنا وعلى رأسهم ضباطهم عند مؤخرتهـا –مـؤخرة السـفينة طبعا!!- أمام شباك الفتاة الروسية تجمع التلامـذة الصـغار المراهقين أمام شباك بنت الجيران، فـي مظـاهرة صـامتة ينتظرون أن (تبدو) أو (تتبدى كاملة).. ثم بدأت المظـاهرة تأخذ طابع الصخب الشديد، كل واحد يحاول أن يلفت نظـر حسناء الشباك التي لا يراها بوضوح!!.. ولمحت أنـا فتـاة أخرى تبدو من بعيد، فعبرت سفينتنا كلها بالعرض لمجرد أن أستطيع أن أرى الفتاة كاملة، بطولها بفستانها بساقيها، رغـم الظلام وعدم (وضوح الرؤية)، ولكنها امرأة على أية حال.. امرأة وسط المحيط الأطلنطي!!.. وبعدها جـاءت ووقفـت أمامنا مباشرة فتاة أخرى مندقة صغيرة الحجم، ولذيذة جـدا حمراء الشعر منكوشة كأنها مسـتيقظة حـالاً مـن النـوم، بضفيرتين زعرارتين، ووجها باسم دائمـا ملـيء بـالنمش

الظريف، وعيناها لامعتان براقتان ضاحكتان، وترتدي شـيئًا قصيرا كبرنس البلاج، وحجمها أقرب إلى حجـم تلميـذات المدارس الثانوية.. القبطان (داود) بعد أن ظل ربـع سـاعة يحملق فيها ويلتهمها ويأكلها أكلاً بنظراتـه حتـى أصـابته التخمة وهو لا يحول عينيه عنها، قال مداريا: (يا شيخ.. دي عاملة زي الضفدعة).. منه لله، كأنها فهمت كلامه فقد راحت واختفت –النعمة- من وجوهنا، فلا طلنا ضفدعة ولا طلنـا الفتاة الحسناء!!.. واتضح فيما بعد أنهـا: طباخـة السـفينة الروسية.. فيذهب (علي البنا) طبـاخ سـفينتنا هـو وأكلـه الظريف إلى الجحيم.. نريد أكلاً شائطًا محروقًا، ولو حتـى بيض مسلوق، من يد هذه الحسناء ولا نريد ديوك رومي من (علي البنا) فإن البيض المسلوق من يدها يصبح فـي فمنـا أطعم وألذ ألف مرة من الديوك الرومي!!

واشتكى أخونا (عبد الوهاب فرغلي) مهندس التبريـد من ضرسه الذي يؤلمه منذ فترة وفشل طبيبنا (رفيـق) فـي علاجه؛ لأنه طبيب باطني، فذهبوا يأتون له بطبيب السـفينة الروسية لاستشارته، فطلع الطبيب: ست طبيبـة!!.. ووقفنـا جميعا نملأ العين منها وهي تقارب الأربعين لكن هه، يعني،

لسه فيها الرمق!! واشتكينا جميعا من أسناننا حتـى تطـول وقفتها أمامنا، فلما اتضح أنها هي الأخرى طبيبـة باطنيـة اكتشف كل منا فجأة –أو تذكر- أن بطنه ومعدته وأمعـاءه- وكل ما يمكن أن يدخل في اختصاص الطبيبـة الحسـناء- تؤلمه!!.. وحاولنا إقناعهم بـأن يبادلونـا ويأخـذوا طبيبنـا (رفيق) ويعطونا طبيبتهم الربع حسناء –وأهو تخين وملظلظ وباطني زيها- ولكنهم رفضوا.. ومن غيظنا قال لهم كبيـر الضباط (عباس): (طيب تاخدوا (رفيق) وماتدوناش حاجـة بداله!؟ ولكنهم رفضوا أيضا.. هم مجانين!؟

وظل خبراؤنا الروس الأربعة يحرجمون ويتمحكـون ويتحايلون، حتى سمح لهم القبطان الروسي بالـذهاب إلـى السفينة الروسية بحجة الاستحمام!! فأرسلوا لهـم أسانسـير ظريف بالحبال ويرفع بالونش، نقلهم فوق مياه المحيط إلـى (السفينة الأم) حيث هاصوا هناك، وشـفناهم بأعينـا وهـم (يهيصون).. وتشعبطنا أنا وزميلي المصور (عبـد المـنعم) على أعلى الصواري لكي نصورهم أثناء عمليـة الهيصـة، فأسدلوا ستائرهم في وجوهنا وتركونا نموت بغيظنا ونعـض أصابعنا كمدا حتى وصلنا إلى الأكتاف.. حتى لقد تمنينا فـي

لحظة من اللحظات أن تغرق السـفينة بجـوارهم فينقـذونا ويأخذونا عندهم.. أو حتى العكس زي بعضه!!

وفي النهاية، وبعد أكبر تعطيل وتلكـؤ ممكـن مـن ناحيتنا، تسلمنا الشبكات، واستعدنا خبراءنا الأربعـة ونحـن نقابلهم بوجه كظيم ونحسدهم من أعماق طراطيف قلوبنا!!

## والنساء كن

واحدا من ثلاثة موضوعات رئيسـة تـدور حولهـا أحاديث الناس –كل الناس- على السفينة.. يصبح واحد مـن هذه الموضوعات هو الموضوع الرئيسي فـي فتـرة مـن الفترات، ولكن الموضوعين الآخرين يظلان دائما موجودين إلى جواره.. وهذه الموضوعات الثلاثة هي لم تكن تخـرج عنها أحاديث الناس هي حسب الترتيب: الـدين والسياسـة، الجنس، المواني..

وكان الدين والسياسة هما الموضوع الرئيس لحـديث كل الناس في فترة بداية الرحلة.. لم يكن يجتمع اثنان علـى ظهر السفينة إلا وكان محور حديثهما إما الدين أو السياسة.. في بداية الرحلة كانت المناقشات الدينية على أشـدها حـول

نشأة الكون وتطوره ونشأة الإنسان وتطـوره، ورأي الـدين ورأي العلم فيهما.. وكل من حفظ (الفاتحة) علـى السـفينة أصبح مفتيا يفتي ويناقض ويحلل ويدلي بآرائه فـي أمـور الدين والدنيا.. ومن لا يتناقش في الدين يتناقش في السياسـة وأمور البلد الداخلية والخارجية.. (وده كان صـح وده كـان غلط، وفي الشيء الفلاني كان لازم يعملوا كذا، وفي الشيء العلاني كان لازم يتصرفوا كذا).

كلهم تحولوا إلى قيسوني وحجازي وحسـن عبـاس زكي.. وطرحنا المسائل والمشاكل على بساط البحث –واحنا ورانا إيه؟- واتخذنا فيها جميعا قرارات وحلولاً حاسمة تنهي المشاكل تماما.. أبسطها أن نجعل ثمـن تـذكرة التـرام أو الأوتوبيس بـ ٢٥ قرشًا، وبالشكل ده يجد الناس أن ركـوب التاكسيات أرخص فيركبوا التاكسيات ويسـيبوا الأتوبيسـات فاضية.. وهكذا تحل مشكلة الأتوبيسات المزدحمة!

## وبعد بدء

الرحلة بقليل خفت المناقشات الدينية والسياسية لتفسـح المجال لمناقشات أهم: الجنس والمرأة.. وبدأ كل واحد يحكي مغامراته وحواديته وحكاياته –محليا وخارجيا- وبدأت نتائج

الحائط الأوربية ذات الصور العاريـة، والصـور العاريـة المقصوصة بعناية من مجلات لبنان، تملأ جدران القمـرات من الداخل، بل وضاف الـدواليب أيضـا.. وحتـى لوحـة التعليمات الصغيرة الموضوعة بداخل كـل قمـرة، اختفـت التعليمات فيها وراء صور البنات.. (سامي البرقي) الضابط الثاني و(أحمد عزب حبيش) الضابط الثالث علقا في قمرتهما نتيجة إسبانية عليها صـورة ظريفـة جـدا.. علقاهـا فـي مواجهتهما مباشرة، بحيث تكون أول شيء تقع عليـه عينـا الواحد منهما حين يستيقظ، وآخر شيء يراه قبل أن ينام!!

ومن المؤكد أن للنساء فعلاً تأثيرا عجيبا.. فالواحد منا في مصر يحلق ذقنه كل يوم الصبح ويستحم مرة كل يومين ويغير ملابسه أكثر من مرة في اليوم، كل ذلك مـن أجـل النساء فقط.. أما هنا على السفينة –علشان مفـيش نسـاء- فالواحد لا يحلق ذقنه إلا كل ١٠ أو ١٥ يوما.. ولا يسـتحم إلى كل أسبوعين مرة، هذا إذا وجد الماء أصلاً.. ولا يغيـر ملابسه إلى كل ١٥ يوما ويبقى مستخسر كمان.. والذي يقول إننا في المدينة نظهر بمظهر حسن من أجل رؤسائنا مخطئ؛

فإن على السفينة رؤساء أيضا ولكننا لا نفعل شـيئًا خشـية منهم؛ لأننا نعرف أنهم أوحش حالاً وشكلاً!!

وما دام الحديث حديث النساء فلابـد أن تظهـر إلـى جواره قطعا النكات الجنسية.. ورجال البحر يحفظون رصيدا ضخما من النكت الجنسية (الأبيحة).. ولكـن فـارس هـذا الميدان الذي لا يشق له غبار فيه هو (عباس) كبير الضباط، فهو إذا انفتح فيها –ومعها ضـحكاته الصـاخبة المجلجلـة العنيفة- لا يتوقف إلا حين يجد نفسه وقد أصبح وحيدا!!

## والموضوع الثالث

كان يظهر ويختفي على فترات خلال مـدة الرحلـة: موضوع المواني.. فدخول السفينة الموانئ الإسبانية الأوربية والأفريقية هو الحديث المفضل عند الضباط والبحارة.. فكل منهم يحمل في جيبه كشفًا طويلاً عريضا للأشـياء والهـدايا المطلوب منه أن يشتريها لأسرته من الموانئ التي تتوقـف عليها السفينة خلال الرحلة.. ولما كان برنامج هـذه المـرة يقول: إننا لن ندخل مواني على الإطلاق؛ لذا فقد بدأ حـديث الموانئ من الشائعات والاستنتاجات والتكهنات، حتى وصـل إلى التمنيات والرجوات.. وكل يوم تخرج إشاعة تنتشر فـي

السفينة كلها بأننا سندخل ميناء كذا، ثم لا يتحقق ذلك فتهـدأ الأحاديث قليلاً ثم تعود لترتفع مرة أخرى بأننا داخلون ميناء كذا.. وظللنا على هذا الحال حتى دخلنا فعلاً ميناء واحدا في آخر الرحلة هو ميناء: الإسكندرية!!

لماذا يريدون النزول في موانئ إسبانيا وأفريقيا!؟ هل لمجرد أن يزوروا بلادا أوربية وأفريقية!؟ أبدا.. فهذه الفكرة –مجردة- لا أعتقد أنها تكون خطرت على بال واحـد مـن بحارة أو ضباط السفينة؛ لأن أغلبهم من ناحية شبعانين نزول في مواني.. ومن ناحية أخرى فإن هذه المواني ليست جديدة عليهم، بل إنها هي تقريبا تكاد لا تتغير في كل رحلـة.. إذن لماذا الإصرار على دخول المواني، والإلحاح الذي بلغ حـد التوسل –بلا فائدة- في بعض الأحيان!؟

أولاً وقبل كل شيء فإن كل البحارة والضباط، علـى اختلاف أعمارهم، أصحاب بيوت.. إن لم يكونـوا أزواجـا وآباء، فهم خاطبون أو كاتبون كتابهم وعلـى وش جـواز.. ومن ليس هذا أو ذاك فهو لديه أسرته: أبوه، أمـه، إخوتـه، وإلى جانب هؤلاء صديقته أو حبيبته، وأصدقاؤه.. كلهـم لا يستطيع أن يدخل عليهم وإيده فاضية بعد عودته من رحلـة

طويلة في البحر وفي الخـارج.. حاجـة تكسـف طبعـا.. فالمتزوجون لهم زوجات وأبناء وبنات وهؤلاء لهم مطالـب وطلبات.. والخاطبون والكاتبون كتابهم قطعا بيوتهم الجديـدة تحتاج إلى أشياء، سواء كانت ضروريات أو كماليات، قطعا سيجدونها في الخارج أرخص وأكثـر تنوعـا.. والبـاقون يريدون شراء هدايا لصديقاتهم وأصدقائهم.. هذا من ناحيـة، ومن ناحية أخرى فإنهم يجدون في الموانى فـي الخـارج، سواء في أفريقيا أو أوربا، وبالذات في إسبانيا، التي يتوقفون –عادة- في العديد من موانيها، مثل (قادش) و(فيجو) و(جزر الكناريا)، يجدون هناك مستوى مـن الحريـة الاجتماعيـة والانطلاق (والبحبحة) غير موجودة عنـدنا فـي مصـر.. والشاب المصري الذي (ينقطع قلبه) في مصر من الجـري وراء فتاة مصرية حتى يستطيع أن يتخذها صديقة، ولا تقبل هي صداقته إلا على اعتبار أنها (تمهيد) و(خطوة أولى) في طريق الزواج، هذا الشاب فرخة بكشك في أوربا –خصوصا العرب والمصريون بالذات؛ لأن دمهـم خفيـف وجِـركين وملحلحين وظراف- ويجدون أن البنـات الأوربيـات هـن

اللاتي يسعين إليهم ويجرين وراءهم، ويتمنـين رضـاهم.. وطبعا هم بيرضوا، ما بيقولوش لأ أبدا!!

وإصرار القبطان (داود) على عدم دخول مواني فـي رحلتنا هذه لم يكن من باب العنـاد أو ركـوب الـرأس أو نشوفية الدماغ، ولكنه أراد –بالاتفاق مع اللـواء (مـدكور) رئيس مجلس الإدارة- أن يقدم رحلة نموذجية تجريبية تأتي بأحسن النتائج في أقصر وقت ممكن.. ولـم تكـن حكايـة (أقصر وقت ممكن) هذه تتيسر إلا باختصار الفترات والمدد التي تضيع في الذهاب من منطقة الصيد في وسط المحـيط الأطلنطي إلى المواني، ثم العودة من المواني إلـى منطقـة الصيد، ثم الأيام التي تضيع في المـواني نفسـها.. وصـمد القبطان (داود) لكل الظروف التي مررنا بها والمحاولات – المتعمدة منها وغير المتعمـدة- والوسـاطات والرجـاوات والشفاعات، لدرجة أنه حين (زنقه) ضابط وهو يسهر معهم ذات ليلة في صالونهم، في مناقشة حول دخـول المـواني، وانحمق واحد منهم جدا وهو يقول له إنه طلع هذه الرحلـة خصيصا لكي يشتري لخطيبته فستان الزفاف من إسـبانيا!! رد عليه القبطان (داود) بهدوء جدا يشرح له أننا لكي نـدخل

إسبانيا فسنحتاج إلى يومين ونصف يوم من مكاننا هذا فـي وسط الأطلنطي إلى أقرب ميناء إسباني، وسنحتاج إلى نفس المدة للعودة منه، وسنحتاج إلى يومين نقضيهما في الميناء، فيكون المجموع ٧ أيام.. إذا صرفنا النظر عن أنها ضائعة من وقت الصيد ووقت الرحلة ومحسوبة عليها من غير مناسبة، فإن اليوم الواحد للسفينة يتكلف ٨٥٠ جنيها.. فإذا ضربنا ٨٥٠ جنيها × ٧ أيام كانت النتيجة ٥٩٥٠ جنيها.. فهل يساوي فستان زفاف خطيبته ٥٩٥٠ جنيها تتحملها الشركة وتتحملها الدولة من أجل سواد عيون خطيبته العزيزة!!؟

وحدث.. ولم تدخل السفينة أية مواني على الإطلاق في رحلتها كلها!!

## أخونا ضابط

اللاسلكي (محمد حسن هارون) الشهير بـ (ماركوني) أو (محمد حسن.. حول) كما يسميه الخبراء الروس، وقع فريسة سهلة لبكبكة (حمدي حافظ) الضابط الإداري للسفينة: محمد من أسوان ولونه أسمر غامق، ورفيع وعصعوص وصغير الحجم وله شكل خاص مميز ينفع في السينما، في

أدوار البوابين والسفرجية والخدامين اللي دمهـم خفيـف.. المهم، كان (ماركوني) و(حمـدي) زمـلاء علـى السـفينة (الغردقة) في رحلة سابقة حين توقفت السـفينة فـي مينـاء بإسبانيا، فنزلا معا يتجولان.. وأعجـب أحـد المصـورين الإسبان بشكل (ماركوني) فطلـب أن يلـتقط لـه صـورة، واستغرب (ماركوني) للطلب اللي من غير مناسبة فرفضه.. وألح المصور، ورفض (ماركوني).. وبين الإلحاح والرفض عرض المصور على (ماركوني) عشرة دولارات لكي يوافق على أن يتصور!!.. أهه، جنان أوربي، ما تعرفش إيه اللـي الراجل المصور الأهبل توسمه في (ماركوني)، لكن المهم أن أمام إغراء الدولارات العشـرة ركـع مـاركوني وسـجد، واتصور فيلم بحاله، بل وعرض على المصور الإسباني أنه يبعت يجيب الست والأولاد من مصر علشان يتصوروا هـم كمان!!

وصارت هذه القصد نادرة ترويها السفينة (الغردقـة) وكل سفن الصيد..

وحدث بعد ذلك أن تخلف (ماركوني) عـن الرحلـة التالية للسفينة بينما سافر (حمدي).. وعادا ليلتقيا مرة أخرى

في رحلتنا هذه على السفينة (برنيس).. ووجـدها (حمـدي حافظ) فرصة لكي يمارس بكبكته مع (ماركوني)، فأدخل في روعه أنه حين كان في إسبانيا في الرحلة التي تخاف عنهـا (ماركوني) فوجئ بصورة (ماركوني) التي التقطها المصور الإسباني تملأ كل محلات إسبانيا، مرسـومة علـى علـب الورنيش البني!!..: (وشفت بأه الراجل المصوراتي الخبيـث ده كان عايز يصورك ليـه؟ آدي اللـي خـلاه يـديلك ١٠ دولارات)!!.. ولم يكتف (حمدي حافظ) بذلك، بل استطاع أن يقنع (ماركوني) بأن من حقه أن يطالب (بحـق أداء علنـي) لصورته، ومن حقه أيضا أن يساوم الشركة صاحبة الورنيش ويأخذ منها ١٠ دولارات أخرى في مقابل أن يوافق على أن تضع الشركة صورته على علب الورنيش الأسود أيضا!!!.. وصدقه (ماركوني)، وكان أغلب حديثهما طول الرحلة بعـد ذلك حول هذا الموضوع.. و: (بس لما نوصل إسبانيا).. لذا، فلم يكن مستغربا أن يكون (ماركوني) هو أكثر المتحمسـين لدخول السفينة إلى المواني.. وإسبانيا بالذات!!.

## نهاية الرحلة

تقترب بسرعة كبيرة.. أنهينا اليـوم الـ ـ ١٠٠ طـن السادسة والأخيرة، ولم يبق أمامنا إلا نحو ٢٠ أو ٣٠ طنًـا أخرى فقط، حصيلة يوم واحد أو يومين على الأكثر ثم نبـدأ رحلة العودة، التي ستستغرق نحو ١١ يوما أخرى بدلاً مـن ١٣ يوما؛ لأننا الآن على حافة منطقة الصيد فـي المحـيط الأطلنطي وقريبين جدا من جبل طارق الممكن أن نصل إليه في خمسة أيام بدلاً من ٧ أيام..

وقد تقاربت اليوم سفينتنا (برنيس) مع شقيقتها السفينة (رأس بناس) التي وصلت مؤخرا إلى منطقـة الصـيد فـي المحيط.. وعرف طاقم (رأس بناس) منا أننا على وشـك أن ننهي رحلتنا ونعود إلى الإسكندرية.. قطعا هم يشعرون الآن بنفس شعورنا حين وصلنا إلى منطقة الصيد في بداية رحلتنا وكانت السفينة الثالث (الغردقة) قد أنهت رحلتهـا وأوشـكت على العودة، فحسدناها.. وأصبحنا نحن الآن محسودين..

وباقتراب رحلتنا من نهايتها بدأت أعصـاب الضـباط والبحارة المشدودة والمتوترة تهدأ وترتاح وتسترخي.. وبـدأ الناس على السفينة يجدون وقتًا لحديث هادئ متأن متمهـل، ويستعرضون معلوماتهم وثقافتهم وسـعة اطلاعهـم، وبـدأ

القبطان (داود) يناقشني في أدب شكسبير، وقلـة أدب أحمـد رجب.. واستفرد بي (ثروت) مهندس ثاني السـفينة ليختبـر مدى تعمقي في اللغة العربية، وكان الاختبار الذي وضعه لي تركيبة من الكلمات العربية الأصيلة من النوع الذي يتحفنا به المجمع اللغوي، وإن كنت أنا أعتقد أنها غير مفيـدة علـى الإطلاق، وإلا فليقل لي أي واحد منكم إن كان يسـتطيع أن يفهم شيئًا من هذا الكلام الـ... مفيد!!

-الصق روانفك بالجيوب..

وخذ المزبرة بين شفائرك، واجعل

حندورتيك إلى فيهلي؛ حتى لا

أنفى نفية إلا أودعتها مجماطة

جلجلانك!!

هل فهمتهم شيئًا.. ولا أنا.. لكن (ثروت) (ترجمه) لي بأن معناه:

ألصق مقعدك بالأرض.. وخذ القلم بما بين أصـابعك، واجعل عينيك إلى وجهي؛ حتى لا أقول قولاً إلا دخل سـواد قلبك!!

ربنا يهديك ويشفيك يا (ثروت).. شايفين طول البقـاء
في البحر بيعمل إيه في الناس!!

# الفصل الخامس عشر

# حفلات القلق..!

## أخونا مهندس

التبريد (عبد الوهاب فرغلي)، الذي كانـت هـذه أول رحلة له على سفن الصيد المصرية بعد عودته من بعثته في روسيا التي أمضى فيها ٥ سنوات، كانت لي ملاحظة غريبة عليه لفتت نظري على امتداد الرحلة كلها تقريبا: هو أنـه – بشكل ما- يحاول بقدر الإمكان ألا يبقى في أي مكان يوجـد فيه القبطان (داود).. وإذا دخـل القطبـان (داود) صـالون الضباط ليقضي معهم جانبا من سهرته، لا تمر عدة دقائق إلا وقد انسحب (عبد الوهاب) بهدوء.. وفي مرة مـن المـرات قرب نهاية الرحلة ما إن جلس القبطان في الصـالون حتـى لفتت نظره حركة تهيؤ (عبد الوهـاب) للقيـام مـن مكانـه استعدادا للزوغان، فتأمله القبطان (داود) مليا ثم قال له: "يـا أخي أنا كل ما أشوفك أحس إن مش ممكن دي تكـون أول رحلة أشوفك فيها.. حاسس كده أني أكيد شـفتك أو أعرفـك قبل كده، بس طشاش.. يعين لولا فرق السـن بيننـا كنـت تصورت أنك كنت تلميذًا معايا في ابتـدائي أو فـي ثـانوي مثلاً).. وابتسم (عبد الوهاب) فـي ارتبـاك وهـو يجيـب: (سيادتك عندك حق يا أفندم.. سيادتك فعلاً كنـت بتشـوفني

كتير، بس زمان أوي) وقال القبطان (داود) مندهشًا: (زمان أوي يعني إيه؟ حد من إخواتك الكبار كان مـن أصـحابي؟) وأجاب (عبد الوهاب) وهو يشد قامته كأنه يكاد يقف انتبـاه: (لا يا أفندم.. بس أنا قبل ما أسافر البعثـة كنـت عسـكري متطوع في السلاح البحري، واشتغلت عسكري مع سـيادتك لما كنت سيادتك قبطان السفينة (انتصار) اللي هـي اليخـت الملكي (فخر البحار) سابقًا.. يعني سيادتك فاكر شكلي بـس مشا قادر تربط بين المهندس دلوقتي والعكسري اللـي كـان معاك زمان)!!

على الـ ٣٠ طن الأخيرة المطلوبة بدأ الحظ يعصـلج معانا بعد أن ظل موفقًا –أو على الأقل عاديا- طوال الرحلة تقريبا.. المحيط هو نفس المحيط والمنطقة هي نفس المنطقة والشبكة هي نفس الشبكة والسمك هو نفسك السمك والسـفينة هي نفس السفينة، ولكن المسألة أولاً وأخيرا مسـألة أرزاق، وقيراط حظ ولا فدان شطارة، واجري يـا ابـن آدم جـري الوحوش غير رزقك لم تحوش..

بالأمس كان حظنا منحسا جدا.. فحتى الساعة الثالثـة ظهرا كنا قد اصطدنا أربعة أطنان ونصـف فقـط، وكـان

المفروض أن نصطاد ٢٠ طنًا على الأقل.. أما اليوم فبرغم أن القبطان بدأ الصيد من الساعة الخامسة صباحا اسـتعجالاً لانتهاء الصيد وبدء العودة، إلا أننا بعد ١٥ ساعة كنا قد ألقينا الشبكة في المحيط ٧ مرات، وكل مرة كانت تبقى في المـاء ساعتين كاملتين، ومع ذلك فلم تزد حصيلة اليوم عن ١٥ طنًا فقط كنا نصطادها في الأيام العادية في شبكة واحدة.. ومـا زال باقيا لنا نحو ١٠ أطنان أخرى لابد من صيدها، وعلـى ذلك فسنضطر إلى استكمال الصيد غدا أيضا..

وأراد القبطان (داود) أن يريح الأعصـاب المتـوترة قليلاً، فأمر بألا ترسو السفينة بعد انتهاء يوم الصيد، وإنمـا تظل طوال الليل منطلقة شمالاً في اتجاه جبل طارق؛ لكـي نكسب بعض الوقت وبعض المسافة في حالة انتهاء الصـيد غدا، فنكون أقرب إلى طريق العـودة، ونصـطاد الكميـة الأخيرة المتبقية لنا (في سكتنا) واحنا مروحين..

وكأنما أراد الأطلنطي أن يقيم لنا حفلـة وداع علـى طريقته الخاصة، فذكر العاصفة بنا، فجاءت الليلة لتحيينا بعد أن كنا قد نسيناها.. وفاجأتني العاصفة وأنا سهران أكتب ليلاً في صالون الضباط، فلم أستطع أن أتحرك من مكاني للنزول

إلى قمرتي، فقط استلقيت على كنبة في الصـالون ورحـت أرقب برعب السفينة وهي تصارع البحر والبحر يصارعها، ومرة تتسلق الموجة فترفعها الموجة وتهبدها علـى سـطح المحيط فتنتفض السفينة الصغيرة بعنف كـأن جـبلاً مسـته صاعقة أو لحقه زلزال عنيف، ومرة تتسلقها الموجـة حـين تأتي عالية فتعبر فوق رءوسنا السفينة مـن مقـدمتها حتـى مؤخرتها بطول السفينة كلها ٧٦ مترا وأكثر!!

يا رب: استر على الأواخر..

## أيقظني المهندس

ناجي قرب فجر يوم بعد أن نمت أقل من ساعة واحدة فقط، وكان هو لم ينم بعد.. بعد طول عشرتنا معا في البحر انتقلت عدوى الصحافة إلى جميع ضـباط السـفينة الشـبان فأصبحوا جميعا يعملون مساعدين لي، وكل واحد منهم اعتبر نفسه صحفيا.. (وهو أنت بتعمل إيه يعني؟ ما أنـت طـول النهار وطول الليل قاعد معانا بتضحك وتنكت وبتهزر ومش بنشوفك تعمل حاجة فيها صحافة.. إيه يعني إنك بتكتب لـك شوية بالليل، ما هو أي واحد بيعرف يكتب، وكلنا بنكتـب، وياما كتبنا.. ده إحنا ما كناش عارفين أن الصـحافة سـهلة

بالشكل ده)!!.. وعلى الرغم من هذا فإن المهندس (ناجي نوار) حين شاهد في عرض المحيط الأطلنطي قرب الفجر منظرا فريدا من النادر أن يمر بمن يعمل في البحر مرتين في حياته، استخسر أن تفوتني مشاهدة ذلك المنظر الفريد، فأيقظني: منظر فريد فعلاً، ولا يتكرر فعلاً، وقد يعيش إنسان حياته كلها في البحر فلا يراه؛ لأنه فعلاً نادرا ما يحدث: منظر سفينة في وسط البحر أو وسط المحيط وقد تعطلت آلاتها تماما وعجزت عن السير والحركة، فأرسلت تطلب النجدة من أقرب ميناء إليها.. والنجدة هنا تكون عبارة عن سفينة أخرى أو قاطرة (تقطر) السفينة المتعطلة أن تجرها إلى أقرب ميناء لكي يتم إصلاحها فيه.. وفي هذه الحالة يكون من حق السفينة التي تجرها أو تقطرها أن تحصل على نصف ثمن السفينة المعطلة، بالإضافة إلى نصف قيمة شحنتها، سواء كانت تحمل ذهبا أو بطاطس.. وليس مهما على الإطلاق حجم السفينة أو القاطرة التي تجر السفينة المعطلة، فإن السفينة المعطلة تصبح كقطعة خشب عائمة فوق سطح الماء، ويصبح من السهل جدا تحريكها بأي قوة جذب بسيطة مهما كان حجم السفينة المعطلة!!

سفينة كبيرة طويلة وضخمة وفاخرة جدا، مظلمة ليس فيها بقعة ضوء واحدة، يخيم عليها جو من الكآبـة والحـزن كأنها قصر كبير مهجور تركه أصـحابه.. تجرهـا قـاطرة صغيرة ضعيفة متواضعة.. شبه علي منظرهما معـا كأسـد مريض عاجز يجره كلب حقير جربان.. أو بطل قديم عملاق من أبطال كمال الأجسام فاخر المنظر، جار عليـه الـزمن فكف بصره، وأصبح يسحبه من يده طفل صغير ضئيل رث الثياب!!

## وفي الخامسة

إلا ربعا عصر اليوم خرجت الشـبكة مـن المـاء.. وبنظرة سريعة قدر القبطان (داود) من مكانه في غرفة قيادة السفينة حمولة الشبكة، فسأل بالميكروفون (عبـاس) علـى السطح بجوار الشبكة:

- مش كفاية كده يا عباس!؟

فرفع (عباس) ذراعيه الاثنين إلى أعلى وأشار بهمـا متقاطعتين منفرجتين علامة انتهاء الصيد تمامـا.. فالتفـت القبطان (داود) في غرفة القيادة إلى الضابط الرابـع (أحمـد

الصحن) الذي يمسك بعجلة القيادة وقال بصوت قوي مرتاح محددا خط السير الجديد:

- الضومان ٢٣..

وردد ( الصحن) بصوت آلي:

- الضومان ٢٣..

ودارت السفينة في قوس كبير لتغيـر اتجاههـا إلـى الشمال، وتبدأ على الفور رحلة العودة التي ستستغرق نحـو ١١ يوما قبل أن نصل إلى الإسكندرية..

ما أسرع ما تمر الأيام! منذ نحو خمسين يوما، وقبـل قيام السفينة بعـدة ليـال، كنـت أنـا وزميلـي المصـور (عبد المنعم) نتسكع في شوارع الإسكندرية ليلاً، نملأ أعيننا من المدينة الجميلة التي سنغيب عنها فترة طويلة، حين قـال (عبد المنعم) متسائلاً:

- مش كان حقنا نطلع السفينة نبات عليها مـن قبـل الرحلة بليلة!؟

قلت له:

- ما تستعجلشي على رزقك، بكره الكام يـوم اللـي فاضلين يفوتوا بسرعة وتبتدي الرحلة، وبعدهم كمان الكـام شهر بتوع الرحلة يفوتوا وتنتهي الرحلة، وبسرعة كمان كام سنة يفوتوا، وتبقى الرحلة نفسها مجرد ذكريات!!

وها قد انتهت الرحلة فعلاً.. وكلها كام يوم ونصل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة.. وتصبح هـذه الأيـام الجميلـة المتعبة الممتعة كلها فعلاً: مجرد ذكريات!!

أيام!!

**

أمامنا ٣٠٠٠ ميل بحري في مشـوار العـودة إلـى الإسكندرية، سوف نقطعها بسرعة ١٢ عقدة أو ميل بحـري في الساعة =٣٠٠٠ ميل بحري على ١٢ ميل في الساعة = ٢٥٠ ساعة، أو نحو ١٠ أيام و١٠ ساعات..

وهكذا تصبح الرحلة مقسـمة كـالآتي: ٣٠٠٠ ميـل بحري في الذهاب من الإسكندرية إلى منطقة الصيد في وسط المحيط الأطلنطي، قطعناها في نحو ١٣ يوما +٣٠٠٠ ميـل بحري من منطقة الصـيد فـي المحـيط الأطلنطـي إلـى

الإسكندرية نقطعها في أقل قليلاً من ١٢ يوما؛ لأننـا نسـير الآن في رحلة العودة مع التيار، بمعنى أن التيار يكون عاملاً مساعدا على زيادة سرعة السفينة + ٤٠٠٠ ميـل بحـري قطعناها في تجوالنا في منطقة الصيد على مدة ٣٥ يوما التي قضيناها فيها؛ وذلك لأننا كنا نتحرك أثناء النهار فقط ونرسو أثناء الليل.. إذن فالمسافة التي ستكون السفينة قـد قطعتهـا خلال الرحلة كلها منذ مغادرتنا الإسكندرية حتى عودتنا إليها هـي ١٠,٠٠٠ ميـل بحـري كاملـة، أو ١٨ ألفًـا و٥٣٠ كيلو مترا؛ لأن الميل البحري ليس ميلاً عاديا.. الميل العادي يساوي ١٧٦٠ ياردة أو ١٦٠٩ أمتار، أما الميل البحري فهو يساوي ٢٠٢٧ ياردة أو ١٨٥٣ مترا..

بالمناسبة (العقدة) هي نفسها الميل البحـري.. ولكـن الميل البحري مسافة.. أما العقدة فهي سرعة، وتساوي مـيلاً بحريا واحدا في الساعة الواحدة.. والله أعلم!!

## وبانتهاء مرحلة

الصيد وبدء رحلة العودة بدأت الأعصاب التي كانـت قد ارتخت واستسلمت وتبلدت نتيجة طول مدة الصيد، وبدأت أعصاب أهل السفينة كلها تصبح مشدودة ومتوترة من جديد..

فكلها أيام ونصبح في الإسكندرية.. أو في مصـر.. البلـد.. بلادنا.. وهكذا ظهرت الإسكندرية والقاهرة في أفق التفكيـر والأفكار ونحن بعد ما زلنا في خطواتنا الأولى فـي طريـق عودتنا إليهما الذي سيستمر ١١ يوما تقريبا.. وبدأ الجميـع يفكرون في البلد وماذا جرى وماذا يجري في البلد؟ أهلنـا، ناسنا، حبايبنا، أولادنا: ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم فـي خلال هذين الشهرين الطوال اللذين غبنا فيهما عن البلد؟! يا ترى مين مات ويا ترى مين عاش ويا ترى مين حصل لـه حاجة وحشة ومين حصل له حاجة كويسة؟ وحبايبنا: يا ترى حانرجع نلاقيهم حافظين الود وحارسينه والا بعـدنا عـنهم خلاهم نسيونا، على اعتبار أن (البعيد عن العين بعيـد عـن القلب)؟! والولد عمل إيه في الثانوية العامة اللـي بيعيـدها؟ والبنت اللي عندها ١٧ سنة! يادي المصيبة!!.. ويـا تـرى الفلوس اللي أنا سايبها في البيت كفـت والا مـاكفتش!؟ وإذا كانوا احتاجوا فلوس تانية يا ترى مين يديهم ومن يطلع نـدل ومين...! اللهم اخزيك يا شيطان!!. ويقف الطبيـب الشـاب (رفيق) على حاجز السفينة وقت الغروب ينظر إلـى الأفـق الذي يصبغه الشفق بلونه الأحمر الغامض الحـزين ويأخـذه

الشجن والحنين فيبكي، ويظل يبكي طول المساء.. أول رحلة لرفيق.. وتوقد في قلبي نارا أغنية أم كلثوم التي تأتينا ضعيفة خافتة من خلال الموجة القصيرة التي يذيعها راديو القاهرة: (فات الميعاد).. الموسيقى الأليمة المصـاحبة لهـا أثـارت عواطفي وأشجاني وذكرتني بما أحاول أن أتناساه وأتجاهلـه وخرجت إلى هذه الرحلة هربا منه: تفيد بإيه يا ندم يا ندم يا ندم.. طالت ليالي الألم واتفرقوا الأحباب.. وكفاية بأه تعذيب وشقا).. أه، يا ندم!! وأغالب الأشجان حتى لا تغلبني وتظهر علي، فأندمج وسط مجموعة الزملاء حتى تذوب همومي بين همومهم، وترتفع أصواتنا بضحكات نعلم جميعا أنها مجـرد أصوات رنانة تخرج من حلوقنا فقط كأنما لتزيل وحشـتنا، ولكنها قطعا ليس صافية وليست من القلب.

والسؤال الذي يشغل ذهن وبال وتفكير كل واحد منـا ونداريه عن أنفسنا قبل أن نداريه عن غيرنا، بالصوت العالي والضحكة الجوفاء: مصر.. يا ترى كيف سنجد الأحوال في مصر حين نعود!!؟

***

ما حدث أمس حدث اليوم أيضا: استيقظت من النـوم وقت الغروب وأنا أشعر برغبة في البكاء لسبب غـامض لا أدريه، ثم تبينت أن السبب هو الراديـو أيضـا، والمقدمـة الموسيقية الحراقة المليئة بالشجن لأغنية (العيون الكواحـل) لفايزة أحمد، وكاد الشجن الذي حرك مشـاعري وعـواطفي كلها أن يبكيني.. وطار بي الشوق والذكريات إلـى شـرفة شقتي التي تطل على القاهرة كلها من أعلى دور في العمارة التي أسكنها: تخيلت ساعة الغروب في شرفتي وأنا وحـدي والقاهرة كلها من تحتي ممتدة في كل اتجاه، جالسا وحدي في ظلام ما بعد الغروب بقليل من استمع إلى أغنيات أم كلثـوم الحراقة التي تستنفر العواطف وتستثيرها مـع الـذكريات، خصوصا بالنسبة للناس فـي سـننا فـي منتصـف العمـر ويشعرون –أكثر من غيرهم- بأن العمر يجري بسرعة جدا، أسرع مما نستمتع به.. أين أنا من القاهرة الآن؟ وهل يقـدر لي بعد كل الأخطار التي واجهتنا ومررنا بهـا، ومـا زال أمامنا أن نمر ببقيتها، أن أعود إلى القـاهرة وإلـى بيتـي، لأجلس في شرفتي نفس الجلسة ساعة الغروب مرة أخرى!!؟

وبدأت حفلات السمر وفيها يجتمع الضباط والبحـارة كل ليلة، بعد أن اختلط الجميع، فقد انتهى الصيد، فما أن يأتي المساء ومعه شحنات قلقة حتى يندمج الجميع معا: ضـباطًا وبحارة.. ويصبح المكان المختار للسهر والسمر هو منطقـة مقدمة السفينة المتجهة –الآن- إلى الإسـكندرية.. حفـلات وسمر وترفيه في ظاهرها، وحفلات قلق وترقب وانتظار في باطنها.. كما نسهر طول الليل جلوسا على الأرض في مقدمة السفينة، نضحك ونغني وعيوننا جميعا مشدودة إلـى الأفـق أمامنا مربوطة به، كأننا نتوقع أن تحـدث معجـزة ويظهـر شاطئ الإسكندرية فجأة قبل موعده بعدة أيام، أو أن نجده وقد ظهر مكانه شاطئ المغرب أو الجزائـر أو تـونس مـثلاً.. وأصبحت تسلية البحارة أن ينتهز كل واحد مـنهم فرصـة غياب القبطان (داود) عن غرفة القيادة ليصعد البحارة إليهـا ويتسلل إلى الخريطة البحرية التي تبين (كـورس) أو خـط سير السفينة وينظر فيها ثم يسأل ضابط الوردية: (إحنا فـين دلوقت؟) فيضع الضابط إصبعه في صمت على مكـان فـي الخريطة لا يعني شيئًا للبحار الذي لم يفهم شـيئًا.. فيعـود ليسأله: (يعني فاضل قد إيه؟) فيجيـب الضـابط باختصـار

وصوت لا حياة فيه (٨ أيام).. فيهز البحار رأسه وينصرف وهو يقول بصوت خاف مواسيا نفسه: (معاش.. هانت)!!

***

ذكرني موقفنا هذه برواية سريعة كنت قد قرأتها زمان في مجلة أجنبية ولم أفهمها وقتها.. فقد كففنا منذ أواسط أيام الصيد عن عد الأيام التي انقضت أو الأيام الباقية على انتهاء رحلتنا.. نوع من التبلد والاستسلام لتشابه الأيام وتكرارهـا ورتابتها ومللها، حتى أننا لم نعد نفكر، أو نحاول أن نفكـر: النهارده إيه في أيام الأسبوع، أو النهارده كام في الشهر؟

القصة السريعة التي كنت قد قرأتها في المجلة الأجنبية تقول: إن ناسا في مثل ظروفنا هذه تقريبا كانوا يعيشون في جزيرة شبه مهجورة في المحيط الأطلنطي أيضا أيام الحرب الماضية، تمر عليهم الأيام بطيئة مملة راكدة وخمانة صفراء صامتة.. وأراد واحد منهم ذات يوم أن يحرك لسانه ليـتكلم ويقول شيئًا، أي شئ، فالتفت إلى زميله وقال له: (كم الساعة الآن)!؟ ولم ينظر الآخر في ساعته وإنما أجابه بأسى وهـو ينظر إلى الأفق: (يوليو)!!

## وبعد أن

كنا نلح ونرجو أيام الصيد في طلب تشغيل السينما والقبطان وكبير الضباط يرفضان، أصبحت السينما الآن تعمل كل لليلة ولا تجد من يشاهدها.. فقد انصرف أهل السفينة عن السينما إلى مراقبة الأفق والتأمل والتفكير.. ولم تعد لديهم قابلية لمشاهدة السينما: لما نرجع إسكندرية ونتطمئن على كل حاجة نبقى نشبع سينمات هناك!!

والغريب أنه رغم أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء بعد عدة أيام قليلة، إلا أن التقتير في صرف الماء العذب ما زال قائما.. وبالرغم من أننا خرجنا من الإسكندرية وفي خزانات المياه في السفينة ١٠٠ طن، فإننا نعود الآن إلى الإسكندرية بعد شهرين في البحر الأبيض وفي المحيط الأطلنطي والخزانات تكاد لم تنقص شيئًا.. ففيها الآن أكثر من ٩٠ طنًا!!

لم أجد اليوم ماء أتنشطف به وأغسل فمي، فلم أجد أمامي إلا أن أتمضمض من الماء المالح الذي في جردل الغسيل القذر المذاب فيه مسحوق رابسو.. ودار المهندس (فهمي عجمي) –رفيقي في قمرتي- يلف على القمرات

المجاورة كلها ليشحت لي شوية ماء صغيرة أشـطف بهـا وجهي، فلم يجد غير نصف كوب ماء فقط جمعها من بقايـا الزجاجات من أكثر من قمرة!!

هانت.. كلها كان يوم ونستحمى في بيوتنا، ونأخذ كل يوم دش ١٠ مرات لو حبينا!!

## لمسة حب

من البحارة سعدت بها اليوم مرتين: المرة الأولى حين جاءني البحار العجوز (إبراهيم شاهين) أو (عسران) ليقـدم لي هدية كتذكار منه: شبكة مصنوعة من خيوط النايلون الذي يستخدم في شباك الصيد، غزلها بيده ليقـدمها لـي كتـذكار لرحلتي على السفينة؛ حتى لا أنسى بحارة (برنيس)!!.. لـم أجد عندي ما أستطيع أن أقدمه (لعسران) ردا علـى هديتـه الرقيقة غير كتاب من الكتب التي كانت معي: أهديته كتـاب (فنان من باريس) للفنان (فتوح نشاطي).. ثم جاء المهنـدس (ثروت) مساعد كبير مهندسي السفينة ليخبرنـي أن الفنيـين والميكانيكيين في غرفة ماكينات السفينة قـد جهـزوا لـي (صفيحة فسيخ) من السمك الذي ملحوه أثناء رحلة العـودة،

برضه لكي أتذكر بها بحـارة (بـرنيس) ورحلتـي علـى (برنيس)!!

إزاء كل هذا الحب والمودة والعطف قررت أن أرشح نفسي في الانتخابات القادمة: عن دائرة المحيط الأطلنطي!!

## قرب ظهر

اليوم مررنا مرة أخرى على جزيرة (بنـتلاري) فـي البحر الأبيض: هل تذكرونها؟ الجزيرة الإيطالية السجن!!.. ومن باب الترويح والترفيـه عنـا اقتـرب القبطـان (داود) بالسفينة من الجزيرة اقترابا شديدا، لدرجة أننا اسـتطعنا أن نرى الناس فيها في بيوتهم بالعين المجردة وبدون نظـارات معظمة.. وخرج رجل وامرأة –لعلهما واحد مـن الحـراس وزوجته- من بيت مكون من دور واحد سلاملك في منطقـة مكشوفة على حافة الجزيرة.. المرأة ترتـدي قمـيص نـوم وردي اللون قصير جدا، والرجل يرتدي ملابسـه الداخليـة فقط، وسحب الرجل بنطلونا كان منشورا على حبل غسـيل ظنناه سيلبسه ولكنه رفعه بذراعه وراح يلوح بـه لنـا فـي حماس شديد، ونحن نرد عليه تحيته وتلويحه وعيوننا كلهـا مركزة لا تتحول عن المرأة التي بجواره.. وحتـى وصـلنا

الإسكندرية بعد أربعة أيام كانت رقاب وعيون شبان السفينة ما زالت معووجة وملووحة ومتجهة إلى جزيرة قميص النوم الوردي.. آسف، أقصد جزيرة بنتلاري!!

## وعقد القبطان

(داود) اجتماعين بمناسبة قرب انتهاء الرحلة، واحـد منهما للضباط والآخر للبحارة.. في اجتماع الضـباط شـكر فينا -أنا وزميلي المصور (عبد المنعم)- بكلمتين وقال: إننا كنا أعضاء فعليين في أسرة السفينة باندماجنا فيهـا وفـي مشاكلها ومعايشتنا لها كما هي.. تذكرت كلماتـه عنـا فـي اجتماع بداية الرحلة فابتسمت.. وشكر أيضا فـي (عبـاس) كبير الضباط لأنه –رغم مرضه- قـد اسـتطاع أن يجعـل النظام مستتبا فكفل ذلك حسن سير العمـل علـى السـفينة، وأيضا نظافتها من الداخل والخـارج فـي بدايـة الرحلـة ونهايتها.. وشكر في (أحمد الصحن) الضابط الرابـع؛ لأنـه رغم كبر سنه يبدأ من أول الطريق مـن جديـد.. وشـكر الباشمهندس (حنا يعلم الله) شكرا عـابرا مـن بـاب عـدم إحراجه.. ومدح (ثروت) مساعد كبير المهندسين مديحا يكفي ميناء بحاله.. وكذلك المهندس (ناجي نوار) كتكوت السـفينة

الفركوك الماهر، الذي رغم أنه لم تمض على تخرجه سـنة كاملة بعد إلا أنه استطاع أن يمنع عن السفينة الحرج وإفساد برنامج الرحلة المرسوم..

في الحقيقة: أنا شخصيا أعتقد أن القبطان نسي أفكـار المهندس (فهمي عجمي) التي أنقذت عمليات التبريد والتجميد وكان ممكنًا أن ندخل ميناء بسببها لإصلاحها.. ونسي كذلك جدية وإخلاص وشجاعة الضـابط الثالـث (أحمـد عـزب حبيش)، وطرزان المحيط وأخصائي الصيد (جاد محمد جاد) الذي أنقذ الشبكة القديمة من الفقدان بحمولتهـا فـي وسـط المحيط مجازفًا بحياته..

وفي اجتماع البحارة شكرهم جميعا بلا استثناء؛ لأنهم كلهم قاموا بواجبهم على الوجه الأكمل.. وأعلن أنه طلب في تقريره ترقية بعضهم وحددهم بالاسم.. كمـا أعلـن إلغـاء الجزاءات التي كانت قد وقعت على بعضهم لسبب أو لآخر.. وأعلن كذلك أنه قد جاءته برقية من الشركة في الإسـكندرية بأن اللواء (مذكور) رئيس مجلس الإدارة قد قرر منح مرتب شهر مكافأة لكل العاملين في السفينة نظرا للرقم القياسي الذي حققوه في اختصار مدة الرحلة إلى هذا الحد!!

# اليوم الأخير

والساعات الأخيرة لرحلة السـفينة منطلقـة بأقصـى سرعة ممكنة لها كي تحاول بقدر الإمكـان الوصـول إلـى الإسكندرية قبل غروب الشمس بـأي شـكل.. فـإن حالـة الطوارئ وظروف الأمن بعد يونيو ٦٧ تحتم إغلاق مـدخل الميناء ابتداء من غروب الشمس حتى فجر اليـوم التـالي.. وكل السفن تعلم ذلك، وتعلم أنها إذا لـم تسـتطع أن تـدخل الميناء قبل الغروب فعليها أن تبتعد عنه لمسافة ٥٠ ميلاً في عرض البحر، ولا تبدأ في الاتجاه إليه مرة أخـرى إلا مـع ظهور أول أضواء الفجر..

ورغم السرعة المتناهية التي كانت السفينة منطلقة بها، ورغم اللهفة الشديدة التي كنا نحبسها في صدورنا؛ لأننـا لا نستطيع أن نفعل شيئًا لكي تسير السفينة أسرع مـن ذلـك، ورغم تشاغلنا بحلاقة ذقوننا والاستحمام –فقد تركت الميـاه مفتوحة في الساعة الست الأخيرة للرحلة- وتجهيز حقائبنـا وارتداء ملابس الخروج.. إلا أننا كنا جميعا نقف عند حاجز السفينة من قبل الغروب بساعة، وحين احمرت السماء وبدأت الشمس تأخذ طريقها المائل نحو الأفق وهـي تصـبغ قبـة

السماء بلون الشفق الأحمر القاني المنعكس على سطح البحر الأبيض المتوسط.. وحين تلامس أو محيط قرص الشمس مع خط الأفق استعدادا لمغيبها تحت الأفق، كادت الدموع أن تطفر من عيوننا كأنها ستغرق في البحر ولن تظهر مرة أخرى، وكدنا أن نمد أيدينا بحركة لاشعورية لنمنعها من السقوط والاختفاء في الماء.. فإن اختفاءها وراء خط الأفق معناه أننا سنقضي ليلة أخرى على السفينة ولن ندخل الإسكندرية ونعود إلى أرض الوطن وإلى بيوتنا هذا المساء!!

وهذا ما حدث فعلاً، فقد غابت الشمس وغربت، ولم تظهر أضواء الإسكندرية البعيد أمام أعيننا إلا في العاشرة مساء.. عندئذ، وفي الحلق غصة أليمة وفي القلب حسرة موجعة حزينة، أدارت السفينة ظهرها إلى الإسكندرية وعيوننا معلقة بأضوائها، لتبتعد في بطء شديد مسافة ٥٠ ميلاً في البحر.. ونقضي الليلة كلها ساهرين واقفين على حاجز السفينة صامتين واجمين كأنا أصابنا الخرس والبكم، وكل منا ينظر في ساعته كل خمس، يستعجلها ويتعجلها، والعقارب العنيدة تتحرك ببطء شديد كأنها تحالفت مع الغروب علينا، وكأننا مساجين قضوا أجمل سنوات عمرهم

في السجن، فلما جاءت ساعة الإفراج تركهم سجانهم القاسي ومعه المفاتيح ليبيت في فيته الذي تضـيء أضـواؤه علـى مرمى أبصارهم، ولن يعود ليفتح لهم ويفـرج عـنهم قبـل ظهور الأضواء الأولى للفجر!!

***

وعند الفجر، كانت السفينة تنهب البحر نهبا في اتجـاه الإسكندرية، تكاد تقفز فوق سطح الماء.. وعند الشروق كنـا نلتهم بأعيننا ملامح المدينة الجميلة الحبيبة التي غبنـا عنهـا شهرين كاملين قاسيين، ونعانق ونستقبل الوجـوه المصـرية العزيزة التي مرت بنا لحظات توقعنا فيهـا ألا نـرى هـذه الوجوه مرة أخرى!!

***

## بمجرد دخولي

لبيتي في الدور الثاني عشر بإحدى عمارات القـاهرة العالية، لم أطق صبرا فدخلت الحمام، وفتحت الدش لأطمئن أن تلك الأيام الغريبة قد انتهت، وأن في بيتنا ماء!!.. وتركت الدش يطلق ماءه بقوة وأنا أستمتع بالرذاذ، وجلست بكامـل

ملابس أتفرج عليه –فقط- لمدة ربع ساعة.. ثم بدأت أخلـع ملابسي وأنا أصفر بفمي وأدندن سعيدا مرحا جذلاً طروبا..

وحين انتهيت من خلع ملابسي، وقبل أن أدخل تحـت الدش.. فجأة: انقطع الماء!!

منك لله يا عباس يا ابن جاد الله.. إنت ورايا ورايا!!؟

**(حسين قدري)**

أول نوفمبر ١٩٦٩